حالة
أهل الحقيقة مع الله

تأليف

أحمد بن عليّ الرفاعي أبي العلمين
٥١٢ - ٥٧٨هـ

اعتنى به

محمد أديب الجادر

دار صادر
بيروت

رسالة
أهل الحقيقة مع الله

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حالة

أهل الحقيقة مع الله

تأليف

أحمد بن علي الرفاعي أبي العلمين

٥١٢ - ٥٧٨هـ

اعتنى به

محمد أديب الجادر

دار صادر

بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2000

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

دار صادر

تأسست سنة ١٨٦٣

ص . ب ١٠ بيروت ، لبنان

© DAR SADER *Publishers*

P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

Fax: (961) 4.910270
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

مقدمة بقلم الأستاذ
أحمد بن سليم الحمامي

الحمد لله الذي اختص أولياءه بالكرامة ، فكانوا خلفاء نبيِّه المبعوثِ بالرحمة والاستقامة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تنجي قائلها يوم الحسرة والنَّدامة ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله : الشفيعُ المشفَّعُ مفزَعُ الناس يوم القيامة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على هديه ، وانتهجوا نهجه ، وما بدلوا تبديلاً ، وعنَّا معهم برحمةٍ منك يا رحمن ، وبَوِّئْنا دار الكرامة .

أمَّا بعد :

فإن الكلام عن الطريقة الرفاعية إنما يتبدَّى من خلال الكتاب الذي بين أيدينا « حالة أهل الحقيقة مع الله » المنسوب لأبي العلمين ، الإمام الزاهد ، أحد أفذاذ أولياء الله العارفين ، أبي العباس شيخ الطريقة الرفاعية ، السيد أحمد الرفاعي ، حيث أملاه في أربعين مجلساً في رواقِ أُمِّ عَبِيْدَةَ على طريقة المحدِّثين ، وقد تضمن الكتاب أربعين حديثاً بأسانيدها ، أفاض في شرحها على طريقة القوم ، فالشارح لم يُعنَ بشرح الأحاديث شرحاً يتوجه إلى مباشرة النصوص بحيث يبين معانيها اللغوية واستنباطاتها الفقهية ، بل كان الشرح للأحاديث مقتضباً جداً ، ربما

لا يتجاوز سطراً أو سطرين لكل واحد منها ، وإذ كان جُلُّ اهتمامه منصباً على أن يكون الحديث الذي صدَّر به مجلسه نقطة ارتكازٍ ينطلق منها للكلام على المعرفة بالله ، ودرجات العارفين ، ومقاماتهم وأحوالهم وقصصهم ، وأنت إذا قلَّبت النَّظر في الأحاديث الأربعين ، ترى أن الكلام على المعرفة والعارفين سلكٌ ينتظمها جميعاً ، فلا يكاد ينخرم منها حديثٌ واحدٌ ، والغرض من إملائها كما يقول قدسَ الله روحه : « لترتاضَ النفوسُ ولتتروَّح القلوبُ بنسبة ما ألفت إليه ، وإلا فمنبعنا وقتي ، وثريدنا طري ، من مائدة النبي ، بالتنزل الإلهي » وإن المرء ليعجب من خلال قراءته لهذا الشرح النفيس من هذا الحشد الكبير للشواهد القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمقطعات الشعرية العذبة التي تخللت هذا العلق الفاذ ، بأسلوبٍ ماتعٍ ، وطريقة في العرض آسرة ، وناهيك بألفاظ الصوفية المتوشحةِ بالعذوبة والمنطوية على كل معنىً حكيم ، نظم الإمام الرفاعي عقد بيانه ، وتفجرت على لسانه ينابيع حكمه ، فسالت سلسبيلاً عذباً ، ارتوت بها قلوب السالكين إلى الله ، حيث نهلوا من هذه المناهل العرفانية ، وشفوا قلوبهم بهذه الفيوضات الرحمانية ، وقد استحبَّ ساداتنا المحدِّثون قديماً ، أن يضمخوا أساليبهم ومواعظهم بحكايات عن السلف ، وبشيء من أقوالهم يوردونها ، لما يعلمون أنها تأخذ بمجامع القلوب فترقِّقها ، وتنشِّط الأذهان ، وتُروِّح الجَنَان : فروىٰ الإمام الحافظ المحدِّث أبو سعد السَّمْعَاني في كتابه : « أدب الإملاء والإستملاء » ص ٧٠ ، عن الحافظ الثَّبْت النَّبيل سُلَيمان بن حَرْب قال : كنا عند حَمَّاد بن زيد ، فحدَّثنا بأحاديث ، ثم قال : لِتَأْخُذوا في أَبْزار الجنَّة ، فحَدثنا بحكايات .

وعن أبي حامد أحمد بن ماما الأصبهاني ، قال : سمعت البَرْقِيَّ يقول : الحكَايات حبوب ، تُصْطَادُ بها القلوب .

وعن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي قال : سمعت عَمِّي يقول : قال

لي الرَّشيد : استكثِروا من هذه الحكايات ، فإنها نُثاراتُ الدُّر .

وأمثال هذه الحكايات والأخبار ، ترتاض بها النفوس ، وتأْنَس بها القلوب ، لما فيها من طرافة مُحَبَّبة وسيرة صالحة وفكاهة مؤنِسَة ، تبعث المرء على التقوى والزهد ، والتخلي عن بهرج الدنيا ، وتجعل السالك يقبل على الله بنفس خفيفة ، وروح لطيفة ، وجَنَان ثابت عامر بمحبة الله ، وقد فُطِرت القلوب على حُبِّ التأسِّي بسير الصالحين ، والنَّسج على مِنْوالهم ، والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم .

قال الإمام الجُنَيْدُ رحمه الله تعالى : الحكايات جُنْد من جنود الله تعالى يُثَبِّتُ الله قلوب أوليائه ، فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : شاهده قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] .

وأهل الحقيقة مع الله : هم الذين سَلَكوا سلوك السَّلَف الصالحين ، ورافقوا العلماء العاملين ، والأصحاب الزاهدين ، وأهل المعرفة واليقين ، وابتعدوا عن المبتدعين ، وشكروا الله على سلامة العقيدة من الزَّيْغ والضَّلالة ، والتَّحقُّق بالاعتقاد السَّليم ، وهكذا أشرقت بنور الحقِّ بصائرهم ، بعد أن غالبوا نفوسهم وكَبَحُوا جِمَاح شهواتهم فَصَفَتْ نفوسهم ، واطمأنَّت قلوبهم .

« فإنَّ قلوب العارفين خزائنُ الله في أرضه ، وَضَعَ فيها ودائعَ سِرِّه ، ولطائفَ حِكْمتِه ، وحَقَائِقَ مَحبَّتِه ، وأنوارَ عِلْمِه ، وأَمانَةَ مَعْرفتِه » .

هذه حالة أهل الحقيقة مع الله . وتراهم مع الشَّريعة المحمَّدية ، يدورون حيث دارت ، ويتوقفون حيث توقفت ، وإليك ما نَقَلْتُ من كلامه قدَّس اللهُ روحَه :

« العارفون بالله : الذين أَخَذوا أحكامَ الشَّريعة ، فَعَرَفُوا حكمها بأسانيدها المنقولةِ ورواياتها الطَّيِّبةِ المقبولة ، وتخلَّقوا بأخلاقِ الله ،

واتَّبَعُوا رسولَه عملاً بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] » .

ثم يعرِّف الولاية ومراتبها بقوله : ولكن أقول : « كمالُ مَرْتَبَةِ الولايةِ : كمالُ التَّخَلُّقِ بِخُلُقِ النَّبي العظيم ، عليه أفضل الصلاة والسَّلام ، والفضل والفضيلة ، والفخر والمجد بالعمل بأعماله ، والقول بأقواله ، والتَّحَلِّي بأحواله صلَّى اللهُ عليه وعلى آله ، وكلَّما نَقَصَ الوَلِيُّ في هذه المَرْتَبَة ، نَقَصَتْ مَرْتَبَتُه بنسبة نُقْصَانِه . . . الخ . الكليات الأحمدية ص ٨٤ .

والصوفي هي الذي يصفو به كلُّ شيء ، ولا يكدِّره شيء ، والتَّصَوُّف حقيقته : الصفاء والتَّخلُّق بخلق المصطفى ﷺ ، والاقتداء بأصحابه أولي الصِّدْق والوفاء ، والتَّصَوُّف : تصفية القلوب لِعلاَّم الغيوب ، والتصوف : طريقة صَفَتْ مَنَاهِلُها ، وَطَابَتْ مَشَارِبُها ، ورَبَطَتْ القلوب بحبل الله ، وعَقَدَتْها على مَحبَّة الله ، ونَدَبَتْها للتخلُّق بأخلاق الله . يقول الإمام الرفاعي : « أي سادة : تخلَّقوا بأخلاق الله ، وذلك أن تَتَمَسَّكُوا بسُنَّة رسول الله ﷺ ، وأن تَتَخلَّقُوا بأخلاقه المحمدية ، وهو خلقه القرآن ، والقرآن كلام الله القديم الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد حَرَّرَهُ أصحاب رسول الله ﷺ ، وجمعوه فهو كما أَنْزَلَهُ الله تعالى ، محفوظٌ من التَّحريف والتَّغيير والتَّبديل بشاهد : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] » . الكليات الأحمدية ص ٢٣

ولعلِّي في آخر هذه المقدمة التي قَدَّمتُها بين يدي الكتاب ، وقَبْل أن أَشْرَعَ في ترجمة هذا الإمام ، أَوَدُّ أن أُثْبِتَ بعض مَنْثُور كلامه في الحِكَم التي أُثِرَتْ عنه ، والتي ضَارَعَتْ في جَمِّ معناها وجميل مَبْنَاها حِكَمَ ابن عطاء الله السَّكَنْدَري ، يقول قَدَّس الله روحه : العُبُوديَّةُ في أربع خِصَال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرِّضا بالموجود ، والصَّبْر عن المفقود .

وقال له بعض أصحابه : ما العافية ؟ فقال : العافية أربعة أشياء : دين

بلا بِدْعَة ، وعمل بلا آفَة ، وقلب بلا شغل ، ونفس بلا شهوة .

وقال : إذا تمكَّنت الأنوار في السِّر ، نَطَقَتْ الجوارح بالبِرِّ .

وقال : الفَقْرُ لِبَاسُ الأحرار ، والغِنَىٰ بالله لباسُ الأبرار .

وقال : الشُكر : أن تَشكُر على البلاء ، كشُكْرِكَ على النَّعْمَاء .

وهذا غَيْض من فَيْض حِكَمِه المُنيفة ، وإذا أردتَ التَّوسُّع في باب الحِكْمَةِ فانظر شرح الحديث الحادي عشر مثلاً من هذا الكتاب فإنه غايةٌ في هذا الباب وإنك لواجد فيه ما يَشْفي صَدْرَك ، ويَنْقَعُ غَلَلَك .

أما بعدُ : فهذا كتاب السَّالكين إلى الله على طريقة القوم في مجاهدة النَّفس ، والاجتهاد في الطَّاعات ، والأذكار وتَرْك التعلُّق بالسِّوَىٰ ، وإعْمارِ القلب بمحبَّة الله مع متابعة الأصلين : الكتاب والسنة .

يقول أحد أتباع هذه الطريقة النَّابهين ، عن شيخه الرفاعي : « وإنَّ الإمام الرِّفاعي لمَّا اختار العَبْديَّةَ المَحْضَةَ ، وتَخلَّصَ من رِبْقَةِ الدَّعْوَىٰ والشَّطْح ، وَبَرَّأ اللهُ طريقه العالي من القول بالوحدة المُطْلَقَةِ والحُلُولِ ، وما يُجَانِسُ هذا ويُشَاكِلُه ، وتَحقَّقَ في الحال والمقال بالاتِّباع الأتمّ للجَنَاب المحمَّدي الأعظم ﷺ » . المجموعة النادرة لأبناء الآخرة لبهاء الدين محمد مهدي الصيادي الرفاعي من كتاب فَذْلكة الحقيقة في أحكام الطريقة .

وهكذا أَخَذَ هذا الإمام نَفْسَه بما أَخَذَ به السَّلَفُ الصَّالحُ أَنفُسَهم من أهل السُّنَّةِ والجماعة في لزوم الجادة والمحجة المحمدية والتي لا يزيغ عنها إلا هالك ، ثُمَّ دَعْ عنك ما عَلِقَ بهذه الطريقة المُنِيْفَة من أقوال وأفعال ، يفعلها أهل الانْتِحَال والانْزِلَاق ، وأَتْبَاع الهوى والانحراف عن طريق الجماعة ، والسَّواد الأعظم الذي من شَذَّ عنه شَذَّ في النَّار ، وكالدَّعْوَى العريضةِ والشَّطْح ، فالتَّبَاعُدُ عن البِدَعِ القَوْليَّة والفِعْليَّة دَأْبُ الصَّالحين ، ومنهج العارفين ، والحمد لله أولاً وآخراً .

« ترجمته »(*)

الإمامُ القُدْوَةُ العابد الشَّيخُ الزَّاهدُ الكبيرُ أَحَدُ أولياء الله العارفين والسَّادات المُشَمِّرين ، أهلِ الكرامات الباهرة ، شريف نَمَا روضُ شَرَفِهِ وهَمَىٰ على العَالَم غيثُ سَلَفِه :

أحمد بن عليِّ بن أحمد بن يحيىٰ بن حازم بن علي بن رِفَاعَةَ الرِّفاعي الحُسَيْنيُّ المغربيُّ محيي الدين ، أبو العباس ، وأبو العلمين(1) ، كان

(*) ترجمته : الأعلام للزركلي ١/ ١٦٩ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٢ ، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٢ ، تاريخ الخلفاء ٤٥٧ ، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤١ ، جامع كرامات الأولياء ١/ ٧٧ ، دول الإسلام ٢/ ٩٠ ، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧ ، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٩ ، طبقات الأولياء لابن الملقن ٩٣ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٤٠ ، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٦٤ ، العبر ٤/ ٢٣٣ ، العسجد المسبوك ٢/ ١٨٧ ، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٠٠ ، الكواكب الدرية للمناوي ٢/ ٧٥ ، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٥ ، مرآة الزمان ٨/ ٣٧٠ ، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٩ ، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٢ ، الوافي بالوفيات ٧/ ٢١٩ ، وفيات الأعيان ١/ ١٧١ .

(1) جاء في كتاب «مراحل السالكين» طبعة دار السعادة ص ١١٦ـ١١٧ لبهاء الدين محمد مهدي الصيادي الشهير بالرواس نقلاً عن الإمام عبد العزيز الديريني في كتابه «غاية التحرير» : حدثنا الشريف الكبير عبد الحافظ بن سرور بن بدر الحسيني المقدسي ثم البطائحي ثم المصري بعد أن أورد نسب سيدنا السيد أحمد الرفاعي على الوجه التالي : هو أحمد بن علي أبي الحسن بن يحيى ويكنى بأبي أحمد نقيب البصرة المغربي ابن ثابت بن أبي ثابت بن أبي الفوارس علي الحازم ابن أبي علي أحمد بن علي بن رفاعة الحسن الأصغر ابن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن الرئيس ابن الحسين عبد الرحمن الرضي . . . الخ . وذكر أن جَدَّه السيد بدر الدين الحسيني الوفائي صاحب وادي النُسُور بديار القدس أملاه هذا النسب الشريف على هذه الصورة . وقال له : ثَبَتَ هذا النسب المبارك على هذا المنوال في المغرب ثم في =

سيِّداً جليلاً وصُوفِيّاً عظيماً نبيلاً .

قَدِمَ أبوه من المغرب وسكن البَطَائِحَ بقرية أُمّ عَبِيْدَةَ ، فتزوَّجَ بأخت منصور البطائحي الحسيني الزاهد ، ورُزِقَ منها : الشيخَ أحمدَ الرفاعي وإخوتَه ، وكان أبوه مُقرِئاً يَؤُمُّ بالشيخ منصور ، فمات وزوجتُه حاملٌ بالشَّيخ أحمد ، فربَّاه خالُه منصور ، فقيل : إنَّه وُلِدَ في أول المُحَرَّم سنة خمس مئة . قال الإمام الشيخ ضياء الدِّين أحمد الوِتْرِي الشَّافعي في كتابه « روضة النَّاظرين » ما مُلَخَّصُه مع حِفْظِ نصِّه بحروفه : ولد سيِّدنا السَّيِّدُ أحمدُ المُشَار إليه عام اثني عشر وخمس مئة بقرية حسن ، من أعمال واسط ، قرية محاذية لأُمّ عَبِيْدَةَ بالبَطَائح ، والبَطَائِحُ : قُرَىً مجتمعة حول الماء ، وواسطُ : بلدةٌ معروفة شهيرة في العراق اختَطَّها الحجَّاجُ بن يوسف الثَّقفيُّ ومَصَّرَها سنة ثلاثين وثمانين . توفي أبوه وهو حَمْلٌ ، والذي عليه الحجج والأثبات من الثقات الأحمديين وهم أدرى من غيرهم ، أن أباه قدس الله روحه توفي ببغداد حين كان مسافراً بها سنة تسع عشرة وخمس مائة ، وللسيد أحمد رضي الله عنه من العمر إذ ذاك سبع سنين .

نشأته ـ علمه ـ مشايخه :

كان قد أكمل قراءة القرآن حفظاً على الشيخ الورع المقرىء الصالح عبد السميع الحربوني ، وهو ابن سبع سنين ، وأدخله خاله منصور على الإمام العلامة المقرىء الحجة الشيخ علي أبي الفضل الواسطي ، فتولى أمر تربيته ، وتعليمه وتأديبه ، فبرع في العلوم النقلية والعقلية ، وتفقه بفقه الإمام الشافعي وحفظ كتاب « التنبيه » للإمام أبي إسحاق الشيرازي ومهر واشتهر وأحرز قصب السبق على أقرانه ، وكان يلازم درس خاله

= الحجاز ثم في العراق وبلغت شهرته الآفاق .

الشيخ أبي بكر الواسطي المغربي ثم البطائحي من شيوخ الشافعية وهو الأخ الأكبر لأمه ، وتردد على الشيخ عبد الملك الحربوني وانتفع ، به وظل يطلب العلم حتى السابعة والعشرين من عمره ، وأجازه الشيخ علي الواسطي ، وأمَّا الخرقة فقد ألبسه إياها خاله المنصور .

كراماته :

أما كراماته رضي الله عنه والتي أتى على ذكرها بعض مترجميه فهي كثيرة منها : أنه كان إذا جلس للوعظ سمع صوته القريب والبعيد ، حتى إن أهل القرى الذين حول بلده يسمعونه كالذين بزاويته ، وكان الأصم إذا حضره سمع كلامه فقط .

ومنها أنه حجَّ سنة ٥٥٥ هـ ووقف تجاه الحجرة الشريفة النبوية وقال على رؤوس الأشهاد : السلام عليك يا جدي . فقال له عليه الصلاة والسلام من قبره المبارك : وعليك السلام يا ولدي . سمع ذلك من حضر في المسجد النبوي ، فتواجد وارتعد واصفرَّ وبكى وأنَّ وجثا على ركبتيه ، ثم قام وقال : يا جَدَّاه :

في حَالَةِ البُعْدِ رُوحي كُنْتُ أُرْسِلُها ... تُقَبِّلُ الأَرْضَ عَنِّي وهي نائبتي
وهذه دَوْلَةُ الأَشْباحِ قد حَضَرَتْ ... فامْدُدْ يَمِينَكَ كي تَحْظَىٰ بها شَفَتِي

فمدَّ له رسولُ الله ﷺ يده الشَّريفة العَطِرة من قَبْره الأزهر المكرَّم ، فقبَّلها في ملأ يَقْرُب من تسعين ألف رجل والنَّاس ينظرون اليَدَ الشَّريفة ، وكان في المسجد مع الحُجَّاج الشيخ عبد القادر الجَيْلاني والشيخ حياة بن قَيْس الحَرَّاني ، والشيخ عَدِيُّ بن مُسافِرِ الشَّامي وغيرهم .

يقول السُّيوطي في « الشَّرَفِ المُحَتَّم » بعد أن ذَكَرَ القصَّة : ومن المعلوم أن هذه المَنْقَبَة المباركة بلغتْ بين المسلمين مَبْلَغَ التَّواتر ، وعَلَتْ أسانيدها ، وصحَّتْ رواياتُها ، واتَّفق رُواتها .

على أن الذَّهبي في تواريخه وسيره ، والسُّبْكي في طبقاته ، وابن خَلِّكان في وَفَيات الأَعْيان ، وابن المُلَقِّن في طبقات الأولياء ، واليافعي في روض الرياحين في حكايا الصالحين وغيرهم من المتقدمين ، لم يأتوا على ذكر هذه الكرامة عندما ترجموا للرِّفاعي ، مع أنها من أَبْيَنِ كراماته وقد ذكروا ما دونها من سيرته ومناقبه مع أنها أحقُّ بالذِّكْر من جميع ما ذَكَرُوه .

وتذكر عنه كرامات وتألُّه ومناقب ، أكثر من أن تُحْصَر . رحمه الله .

وفاته :

توفي يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ، ودفن في أم عبيدة ، ولم يعقب ، وإنما المشيخة لابن أخته . وقال الذهبي : المشيخة في أولاد أخيه .

وكتب : أحمد بن سليم الحمامي

١٥/ رمضان ١٤١٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن الله جلّت قدرته قد كتب الإقبال والقبول في أشياء ، وجعل الرفض والنفور من أشياء ، وما تراث الأمة المحمدية إلا جزء من هذا ، أقبلت الأمة على تراثٍ بهمةٍ ، وقابلت بفتور تراثاً آخر ، لا لسموّ هذا ، ولا لدنو هذا؛ ولكن لأمرٍ يريده الله .

ومن الأشياء التي كتب الله لها القبول بين أفراد هذه الأمة كتب القوم لما اتّصفت به من مخاطبة النفس الإنسانية ، والسهر على تهذيبها وتثقيفها ، وحثها بما أوتيت من قوة على التمسك بمحاسن الأخلاق وتنفيرها عن مساوئها ، وقد صرحت وأفصحت عما تريد : حب الله ورسوله الناتج عن معرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ ، بل اعتبرت أن العلم والعمل ، والتحصيل والعبادة مالم تقترن بما أشارت إليه انقلب الدين إلى طقوس منفرة ، وأخلاق نفاقية ، وسلوك ظاهر لا يمس الباطن بشيء .

ومن هذه الكتب التي نهضت لأداء هذه الرسالة كتابنا « حالة أهل الحقيقة مع الله » فهو من الكتب التي كتب الله لها القبول والإقبال ، مما دفع كثير من دور النشر إلى تبني طبعه ، وإعادة تصويره .

ولم يخدم الكتاب الخدمة اللائقة به إن كان : تخريجاً للآيات

والأحاديث، والآثار والأشعار، أو شرح الغريب، والتعريف برجاله والتدليل على أماكنه، وصنع فهارس يمكن بواسطتها الرجوع إلى المبتغى بأسرع وقت.

هذا ما دعاني إلى إعادة العمل بهذا الكتاب، والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وقد اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على طبعتين:

١ـ طبعة المطبعة السورية بحلب سنة ١٣٧٨هـ.

٢ ـ طبعة مكتبة الربيع في حلب ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م. وكلتا الطبعتين من تقديم وتعليق الأستاذ محمد نجيب خياطة. وقد أبقيت على جملة من تعليقاته منسوبة إليه. وتجاوزت ما فيها من التصحيف والتحريف، دون إثقال بالحواشي، وأثبت ما رأيته صواباً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

٢٣ رمضان ١٤١٩

١٠ كانون الثاني ١٩٩٩

محمد أديب الجادر

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم إسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

قال الشيخ الإمام السيد محيي الدين أحمد الأخضر ابن السيد سلمان ابن السيد أحمد ابن السيد سُليمان نزيلِ الرَّحبة[١] ، ابن السيد إبراهيم ابن السيد أبي المعالي عبد المنعم ابن السيد أبي العباس أحمد البطائحي ، نزيل الهُمَامِية[٢] بواسط ، الرِّفاعي الحسيني رضي الله عنه ، وعن أسلافه الطاهرين أجمعين .

[سند الكتاب] :

أُلقي برُواق أم عَبيدة[٣] عام تسعٍ وأربعين وخمس مئة للقوم كتاب « حالة أهلِ الحقيقة مع الله » أعني الكتاب الجليل ، والسِّفر العديم المثيل ، الذي انتظم من أربعين مجلساً ، كلُّ يوم خمِيس مجلسٌ ، أولها أوّلُ خميسٍ من شهر رجب من ذلك العام ، وقد صدرَ من لسان قطبِ الأقطاب المتمكِّنين ، سلطانِ الأولياء والعارفين ، مُحيي الحقِّ والشريعة والدِّين ، المُشرَّفُ جهاراً بتقبيل يد جدّه سيِّد المُرسلين[٤] ، مصباحِ

---

(١) الرحبة : مدينة بين بغداد والرقة .

(٢) الهُمَامية : بلدة من نواحي واسط ، بينها وبين خوزستان . بها نهر يأخذ من دجلة . منسوبة إلى هُمام الدولة الأسدي . معجم البلدان .

(٣) أم عَبيدة قرية قرب واسط .

(٤) انظر المقدمة صفحة ١٤ـ١٥ .

المعرفة المُنير ، مولانا ، وشيخنا ، ومرشدنا إلى الله تعالى السيد أحمد الرِّفاعي الحسيني الحسني الأنصاري الكبير رضي الله عنه وعنَّا به ، ونفعنا والمسلمين بعلومه ، فهو روحٌ من روحِ القدس ، وحالٌ من حال حَضْرةِ الأُنس ، يدلُّ على الطريق ، ويأخذُ للتمسُّك بالعهد الوثيق ، ويلزمُ بالاستقامة ، ويُفرغُ في القلب التزامَ منهج أهل السلامة .

وإنّي قد قرأته في أربعين مَجلساً بعد الإجازة به على سيّدي ومولايَ ، القطب الفردِ الأوحد السيِّد شمس الدين أحمد المستعجل ابن الرِّفاعي رضي الله عنه ، في رُواق أم عَبيدة .

وهو قال : قرأته في أربعين مجلساً بعد الإجازة به على جدّي لأُمي السيدِ القطب العارف بالله تعالى نجمِ الدين أحمد ابن الرِّفاعي رضي الله عنه .

وهو قال : قرأته في أربعين مجلساً بعد الإجازة به على أخي وسيِّدي ومولاي ، القطبِ الأعظم أبي إسحاق السيد إبراهيم الأعزب رضي الله عنه .

وهو قال : سمعته في أربعين مجلساً من لسان جدّي القطبِ الغوث الأكبر ، سلطانِ الأولياء والعارفين ، سيِّدنا السيد أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه ونفعنا بعلومه ، وقد استجزتُه به ، فأجاز .

وسمعته أيضاً من جامعه الشيخ العارف بالله الفقيه أبي شجاع بن مُنجح الشافعي رضي الله عنه ، انتهى .

[إجازة الكتاب] :

وقد أجازني بقراءته الشيخُ الفقيه عفيفُ الدين أبو طالب المقرىء الصُّوفي .

وهو قال : أجازني بقراءته الشيخُ العارف العالم الشريف شرفُ الدِّين

أبو طالب ابن عبد السَّميع العباسي الهاشمي .

وهو قال : قد أجازني بقراءته القاضي الشيخ الصالح الفقيه الجليلُ جامعه أبو شجاع ابن مُنجح الشافعي الواسطي .

وهو قال : قد أجاز بقراءته بعد جمعهِ كما تلقَّيناه في جمٍّ غفيرٍ من ناثر دُرَرِهِ الشريفة ، وناظمِ أساليبه المنيفة ، سيدنا ومولانا وسندنا القطب الغوث الأعظم ، حجّة الله على أوليائه العارفين ، السيد أحمد محيي الدين الكبير الرِّفاعي الحسيني رضي الله عنه ، ونفعنا به .

[إجازات أُخر] :

ولنا من طريق الشيخ عفيف الدين الإذنُ بقراءة كتاب « البرهان المؤيد »[1] الذي جمعه من كلام سيدنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، الشريفُ العلاّمة شرفُ الدين بن عبد السميع العباسي رحمه الله ، عن الشريف شرف الدين ، عن صاحبه الإمام الرِّفاعي رضي الله عنه .

ولنا من هذا الطريق الإذن بقراءة « الحِكَم الأحمدية » بسندنا عن الشيخ عفيف الدين ، عن الشيخ شرف الدين ، عن أبيه الشريف عبد السميع الهاشمي الواسطي ، عن ناسج برودها وناظم عقودها سيدنا الإمام السيد أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه ، وعنهم أجمعين .

وهذا نصُّ ما تلقّيناه عن مشايخنا رحمهم الله من كتاب « حالة أهل الحقيقة مع الله » .

* * *

---

(١) البرهان المؤيد لصاحب مدّ اليد وهو جملة من المواعظ ألقاها في مجالس معدودة جمعها تلميذه شرف الدين بن عبد السميع الهاشمي الواسطي . وقد طبع الكتاب أكثر من مرّة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال شيخنا وسيِّدُنا شيخُ الطوائف ، أبو العلمين ، وارثُ رسول الثقلين ، القطبُ الغوث ، الجامع الحجَّة ، العارف القدوة ، إمام الأولياء السيد أحمد محيي الدين أبو العباس الكبير الرِّفاعي الحسيني ابن السيد أبي الحسن علي ابن السيد يحيى ابن السيد الثابت ابن السيد الحازم ابن السيد أحمد ابن السيد علي ابن السيد الحسن ابن السيد المهدي ابن السيد أبي القاسم محمد ابن السيد الحسن ابن السيد الحسين ابن السيد أحمد ابن السيد مُوسى الثاني ابن السيد إبراهيم المُرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن زبدة السادة الأئمة وعُمدة قادة الأمة ، الذي امتُحن بأنواع البلاء ، أمير المؤمنين أبي عبد الله الإمام الحسين الشهيد بكربلاء ، ابن إمام أئمة الأولياء ، وقائد أزِمَّةِ الأصفياء ذي السوابق الكبرى ، والمفاخر والمناقب الوفرى ، بابِ مدينة العلوم والحكم ، السيد الذي كلُّ مقامٍ له ممنوح ، المُشبَّه بكبار الأنبياء كآدم وإبراهيم ونوح ، الذي قَدْرُه كاسمه حسنٌ وعلي ، أمير المؤمنين أبي الحسن علي ، رضوان الله عليه وعليهم أجمعين :

الحمد لله حمداً نصلُ به إلى كشف الحجاب ، ونُعَدُّ به من الأحباب ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ونشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه وصفيه ، وخيرته من خلقه ، بعثه الله بالنورِ الساطع ،

والبيان اللامع ، والسيف القاطع ، فبلَّغَ الرّسالة ، وأدّى الأمانة ، وأوضح السنة ، وأسس الشريعة ، ونصحَ الأمة ، وعبد الله حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، فهذه جملٌ نذكر فيها حالة أهل الحقيقة مع الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، وذلك لترتاضَ النفوس ، ولتتروَّحَ القلوب بنسبةِ ما ألفت إليه ، وإلا فمنبعنا وقتيٌّ ، وثريدنا طريٌّ ، من مائدة النبيِّ ، بالتنزيل الإلهي ما فيه قديد .

* * *

الحديث الأول

حدّثنا الشيخ الإمام المُقرئ القاضي الثقة عليُّ أبو الفضل الواسطي بمدرسته في واسط ، قال : أنبأنا أبو علي الحسين بن علي بن المهذّب ، قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر القَطيعي ، قال أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدَّثني أبي ، قال : حدَّثنا قُتيبة بن سعيد بن اللَّيث بن سعد ، عن ابن الهاد ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن عامر بن سعد ، عن العباس بن عبد المطلب ، أنه سمعَ رَسول الله ﷺ يقول :

« ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبًا ، وبالإسْلام دِيناً ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نبياً »(١) .

وهذا الذَّوق المُنبعثُ عن هذا الرِّضا ؛ هو المعرفةُ بالله تعالى ، والمعرفةُ نورٌ أسكنَهُ الله تعالى قلبَ من أحبَّه من عباده ، ولا شيءَ أجلُّ وأعظمُ من ذلك النُّور ، وحقيقةُ المعرفة حياة القلب بالمُحيي ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٠٨/١ ، ومسلم ٦٢/١ (٥٦) في الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن ، وإن ارتكب المعاصي الكبائر .

وقوله ﷺ : « من رضي » : قال صاحب التحرير رحمه الله : معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ، ولم أطلب معه غيره . فمعنى الحديث : لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع في غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس : ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

فمن ماتت نفسُه ، بعدتْ عنه دنياه ، ومن ماتَ قلبُه بَعُدَ عنه مولاه .

* وسُئل ابن السمَّاك[١] : متى يعرف العبدُ أنه على حقيقة المعرفة؟ قال : إذا شاهد الحقَّ بعين اعتباره ، فانياً عن كلِّ من سواه .

* وقيل : المعرفةُ فقدانُ رؤية ما سواه ، بحيث يَصيرُ ما دون الله تعالى عنده أصغرَ من خردلةٍ . قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

* من نظرَ إلى الله تعالى لم ينظر لا إلى الدنيا ، ولا إلى العُقبى ، وشمسُ قلبِ العارف أضوأُ من شمس النهار ، وأَبهجُ منها في مطلع الأنوار .

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أَحبَّكَ لَيلاً فَاسْتَنَارَتْ فَمَا لَدَيْهَا غُرُوبُ
إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيلاً وَشُمُوسُ القُلُوبِ لَيسَتْ تَغِيبُ

* قال ذو النُّون[٢] : اطِّلاعُ الحقِّ سبحانه على الأسرار بمواصلة

---

(١) ابن السماك : محمد بن صبيح من أئمة الزهاد ، ورؤوس العبّاد ، انتفع بوعظه كثير من نجباء الإسلام . أسند الحديث عن عدة من التابعين . مات بالكوفة سنة ١٨٣ . انظر ترجمته مع مصادرها في « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » للمناوي بتحقيقنا ١/ ٤٣٣ .

(٢) ذو النون المصري ، ثوبان بن إبراهيم الإخميمي ، أبو الفياض أو الفيض ، أحد الزهاد العباد المشهورين ، من أهل مصر ، نوبي الأصل من الموالي . كانت له فصاحة وحكمة وشعر ، وهو أول من تكلّم بمصر في ترتيب الأحوال والمقامات ، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم ، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة ، فاستحضره إليه ، وسمع كلامه ، ثم أطلقه ، فعاد إلى مصر ، وتوفي بجيزتها سنة (٢٤٥) هـ . الأعلام .

المدد ، كاطّلاع الشمس على الأرض بإشراق الأنوار ، فعليكم بتصفية القلوب ؛ فإنها مواضعُ نظره ، ومواطنُ سرّه ؛ فإنَّ من عرف الله لا يختار غيره حبيباً سواه .

وفي الخبر : « إنَّ الله تعالى خلقَ الخلق في ظُلمةٍ ، ثم ألقى عليهم شيئاً من نوره ، فمن أصابَه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلَّ وغوى » . وهو نورٌ يخرجُ من سُرادق المنَّةِ ، فيقع في القلب ، فيستنير به الفؤاد ، ويبلغُ شعاعُه إلى حُجُبِ الجبروت ، ولا يحجبه عن الحقّ الجبروت ولا الملكوت ، فيصير العبدُ في جميع أفعاله وأقواله وحركاته وإرادته في حياته ومماته صائراً إلى النور ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

إنْ كُنتَ لَسْتَ مَعي فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعي ... قَلْبي يَراكَ وإنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَري

* قال يحيى بن معاذ[1] : المعرفةُ قربُ القلب إلى القريب ، ومُراقبةُ الرُّوحِ للحبيب ، والانفرادُ عن الكلِّ بالملك المجيب .

* وقال ذو النون : هي تخلية السرِّ عن كلِّ إرادة ، وتركُ ما عليه العادة ، وسكونُ القلب إلى الله بلا علاقة .

* وقال بعضهم : هيئتُها جنون ، وصورتُها جهلٌ ، ومعناها حيرة .

فإنَّ العارف يشغله علمُ الله تعالى عن جميعِ الأسباب ، فإذا نظرَ إليه الخلقُ استجهلوه ، ويكون أبداً في ميدان العظمة ، وَلِهاً بين الخلق ، فإذا رأوه استجنُّوه ، ويكون بكلّيته فانياً بحبِّ جلال عظمته تعالى ، مشغولاً

---

(١) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، أبو زكريا : واعظ ، زاهد ، لم يكن له نظير في وقته . من أهل الري . أقام ببلخ ، ومات في نيسابور سنة (٢٥٨) هـ . الأعلام .

عمّن سواه ، فإذا أبصروه استدهشوه ، ولا يقدرُ أحدُ يخبر عن المعرفة بالله تعالى ؛ فإنّها منه بدتْ ، وإليه تعود ، فالعارفُ فانٍ تحت اطّلاع الحقّ تعالى ، باقٍ على بساط الحقّ بلا نفسٍ ولا سبب ، فهو ميتٌ حيٌّ ، وحيٌّ ميت ، ومحجوبٌ مكشوف ، ومكشوفٌ محجوب ، تراه وَالِهاً على باب أمره ، هائماً في ميدان برّه ، متدلّلاً تحت جميل سِتره ، فانياً تحت سُلطان حكمه ، باقياً على بساط لطفه .

العارفون صارت أَنفسُهم فانيةً تحت بقائه وسلطانه عن كلِّ حولٍ وقوَّة ، تراهم باقين بحوله وقوّته ، مُتلاشين عن كونهم وأسبابهم تحت جلالِ ألوهيّته ، مُلوكاً به دون مملكته ، فقرُهم به ، وغناهم به ، وعزُّهم به ، وذُلُّهم به .

* يُروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود ، اعرفني ، واعرفْ نفسك . فتفكّر داود ، فقال : يا إلهي ، عرفتُك بالفردانية والقدرة والبقاء ، وعرفتُ نفسي بالعجزِ والفناء . فقال : الآن عرفتني .

* وروي في الخبر : لو عرفتم الله تعالى حقَّ معرفته لعلمتم العلمَ الذي ليس بعده جهل ، ولزالتِ الجبالُ بدعائكم .

مع أنه لا ينتهي أحدٌ ولا يبلغ منتهى معرفته . إن الله تعالى أعظمُ من أن يَنتهي أحدٌ إلى منتهى معرفته .

* وقال الإمام جعفر الصادق[1] عليه الرضوان والسلام : لا يعرفُ اللهَ حقَّ معرفته من التفتَ منه إلى غيره .

---

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي ، أبو عبد الله الملقب بالصادق ، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين . وله منزلة رفيعة في العلم ، أخذ عنه جماعة منهم : الإمامان أبو حنيفة ، ومالك ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط . له أخبار مع الخلفاء من بنيْ العباس ، وكان جريئاً عليهم ، صدّاعاً بالحق . مولده ووفاته بالمدينة سنة (١٤٨) هـ . الأعلام .

المعرفةُ هي طيران القلب في سُرادق الأُنس ، والألفة جولان في حُجُب الجلال والقدرة .

وهذه حالةُ من صُمّت أذناه عن البَطالات ، وعميتْ عيناه عن النظرِ إلى الشهوات ، وخرس لسانُه عن التكلُّم بالتُرَّهات .

* وقيل لأبي يزيد[1] : ترى الخلق ؟ قال : به أراهم .

* وسئل محمد بن واسع[2] : هل عرفتَ ربَّك؟ فسكتَ ساعةً ، ثم قال : من عرفَ الله تعالى قلَّ كلامُه ، ودامَ تحيُّرُه ، فني عن صُور الأعمال ، وتحيَّر مع الاتصال ، مُتقرّباً في جميع الأحوال ، مُنقطعاً عن الحالِ إلى وليِّ الحال ؛ فإنَّ الأُمورَ بحقائقها لا بالحسّ وصورها .

* قال أبو يزيد : ليس على تحقيقٍ بالمعرفة من رضي بالحالِ دون وليِّ الحال ، فإن من عرفَ اللهَ كلَّ لسانُه ، ودهش عقلُه ، العارفُ إنْ تكلَّمَ بحاله هلك ، وإن سكتَ احترق .

* قال أبو بكر الواسطي[3] : المعرفة على وجهين ؛ معرفة الإيقان ،

---

(1) أبو يزيد ، طيفور بن عيسى أبو يزيد ، ويقال بايزيد (١٨٨ـ٢٦١) زاهد مشهور ، له أخبار كثيرة ، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر البسطامي نسبة إلى بِسطام بلدة بين خراسان والعراق ، أصله منها ، ووفاته فيها . وربما كان أول من قال بمذهب الفناء . ويعرف أتباعه بالطيفورية ، أو البسطامية . الأعلام .

(2) محمد بن واسع بن جابر الأزدي ، أبو بكر : فقيه ورع ، من الزهاد . من أهل البصرة . عرض عليه قضاؤها فأبى . وهو من ثقات أهل الحديث . ولمّا صافَّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم ، سأل عن محمد بن واسع ، فقيل : هو ذاك في الميمنة ينضنض بأصبعه نحو السماء ، قال : تلك الأصبع أحب إليَّ من ألف سيف . مات سنة (١٢٣) هـ . الأعلام .

(3) أبو بكر الواسطي ، محمد بن موسى : من كبار أتباع الجنيد ، فرغاني الأصل ، كان رفيع المقدار ، وكانت جماعته الذين يحضرون ورده كل يوم خمسة آلاف ، ولم يتكلم أحد مثله في أصول التصوف . مات بمرو بعد العشرين وثلاث مئة . انظر ترجمته ومصادرها في « الكواكب الدرية في طبقات السادة الصوفية » بتحقيقنا ٢/ ١٥٩ .

ومعرفة الإيمان ؛ فمعرفة الإيمان شهادةُ اللّسان بتوحيدِ الملك الديّان ، والإقرار بصدق ما في القرآن . وأمّا معرفةُ الإيقان فهي دوامُ مُشاهدة الفرد الديّان بالجنان .

* وقال بعضُهم : هي على ضربين :

الأول : هو أن يعرفَ أنَّ النعمةَ من الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ، فيقوم بشكره ، فيستزيد به النِّعمة من الله بدليل قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

والثاني : رؤيةُ المُنعِم من غير أن يلتفتَ إلى النِّعمةِ ، فيزيد شوقُه إلى المُنعِم ، ويقوم بحقِّ معرفته ومحبَّته ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

* وقال ذو النون المصري : هي على ثلاثةِ أوجهٍ :

أوَّلُها : معرفةُ التوحيد ، وهي لعامَّةِ المؤمنين .

والثاني : معرفة الحُجَّة والبيان ؛ وهي للعُلماء والبُلغاء والحكماء .

والثالث : معرفة صفات الفَردانية ؛ وهي لأهل ولاية الله تعالى ، وأصفيائه الذين أظهر اللهُ لهم ما لم يُظهر لمن دونهم ، وأعطاهم من الكرامات ما لم يجز أن يوصف ذلك بين يدي من لا يكون أهلاً له ؛ خصَّهم اللهُ من بين الخلائق ، واصطفاهم لنفسه ، واختارهم له ، فحياتُهم رحمةٌ ، ومماتهم غبطة ، طوبى لهم .

* وقال غيره : هي على وجهين :

معرفة التوحيد : وهو إثباتُ وحدانية الواحد القهار .

ومعرفة المزيد : وهي التي لا سبيلَ لأحدٍ إليها .

أقول : هي كشجرةٍ لها ثلاثةُ أغصان ؛ توحيدٌ ، وتجريدٌ ، وتفريد : فالتوحيد بمعنى الإقرار ؛ والتجريدُ بمعنى الإخلاص ، والتفريد بمعنى الانقطاع إليه بالكليّة في كلِّ حال .

وأوّلُ مدارج المعرفة التوحيد ؛ وهو قطعُ الأنداد ، والتجريد ؛ وهو قطعُ الأسباب ، والتفريد وهو بمعنى الاتصال بلا سيرٍ ، ولا عينٍ ، ولا دون .

ولها خمسةُ طرائق :

أوّلها : الخشيةُ في السرّ والعلانية .

والثانية : الانقيادُ له في العبودية .

والثالثة : الانقطاعُ إليه بالكليّة .

والرابعة : الإخلاص له بالقول والفعل والنيّة .

والخامسة : المُراقبة في كلّ خطرةٍ ولحظة .

* وحُكي عن عبد الباري قال : خرجتُ مع أخي ذي النون ، فإذا نحن بصبيان يرمونَ واحداً بالحجارة ، فقال لهم أخي : ما تُريدون منه؟ قالوا : هذا رجلٌ مجنون ؛ ومع ذلك يزعُم أنّه يرى الله تعالى . قال : فدنونا منه ، فإذا هو شابٌّ وسيم ، ظهر عليه سيما العارفين ، فسلّمنا عليه ، وقُلنا : إنّهم يزعمون أنّك تدّعي رؤيةَ الله تعالى . فقال : إليك عنّي يا بطّال ، لو فقدتُه أقلّ من طرفة عين لمتُّ من ساعتي . وأنشأ يقول :

طَلَبُ الحَبِيبِ مِنَ الحَبِيبِ رِضَاهُ ... وَمُنى الحَبِيبِ مِنَ الحَبِيبِ لِقَاهُ
أبـداً يُـلاحِظُـهُ بِعَيْنَـيْ قَلْبِـهِ ... وَالقَلْـبُ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَيَـرَاهُ
يَرْضَى الحَبِيبُ مِنَ الحَبِيبِ بِقُرْبِهِ ... دُونَ العِبَـادِ فَمَـا يُـرِيـدُ سِـوَاهُ

فقلت له : أمجنون أنت؟ فقال : أمّا عند أهلِ الأرض فنعم ؛ وأمّا عند أهلِ السماء فلا . قلت : فكيف حالُكَ مع المولى؟ فقال : منذ عرفتُهُ ما جفوته . فقلت : منذ كم عرفته؟ قال : منذ جعلَ اسمي في المجانين .

* * *

الحديث الثاني

أخبرنا شيخنا الشيخ الإمام المقرىء ، القاضي أبو الفضل علي الواسطي بمدرسته بواسط ؛ قال : أنبأنا الشريفُ النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي ، قراءةً عليه ، ونحن نسمع ، قال : أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد ، قال : أنبأنا أبو علي الحسين بن صفوان ، قال : أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ، قال : أنبأنا الهيثم بن خارجة ، قال : أنبأنا بقيَّةُ بن الوليد ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، قال : حدّثني حمزة بن جندب ، عن أبي يعلى شدَّاد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« الكيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهُ وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ »[1] .

فالعملُ بسرِّ هذا الحديث هو المعرفة .

نعم ، إنَّ المعرفةَ من العبدِ ، والتعريفُ من الرَّبِّ تعالى ؛ وهي أشرفُ وأعظمُ الهدايا التي يَهديها إلى عباده ، فإنَّ الله تعالى إذا أرادَ أنْ يختارَ عبداً من عبيده ، ويفضّلهُ على من سواه من خلقه ، ويُطلعَ في سرِّه شمسَ المعرفة ، ينظرُ إليه بعينِ الفضل والرحمة ، ويفتحُ له أبوابَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦١) في صفة القيامة ، باب رقم (٢٦) ، ورواه أيضاً أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم . وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم الغساني ، وهو ضعيف ، ومدار الحديث عليه . ومع ذلك فقد قال الترمذي : هذا حديث حسن .

انظر جامع الأصول ١١/ ١٣ .

الهداية ، ثم يُكرمه بالانتباه ، ويوقظه من نومةِ الغافلين ، ويُنعمُ ويمنُّ عليه بشرح القلب ، ويُذهبُ عنه موتَ القلبِ بالفهم[1] ، ويُذهِبُ عنه الوهم ، ويُكرمه بالحياة والخوف واليقين ، ويُذهبُ عنه الشكَّ ، وجراءة الأمن ، فإذا اجتمعت في العبد هذه الخصال أشرقَ فؤادُه بنورٍ ، فيرى ما دون حُجُب الجبروت ، وتشتاقُ إليه الجنان ، ويخمدُ منه لهبات النيران ، ولو أنَّ المعرفةَ نُقشتْ على شيءٍ ما نظرَ إليها أحدٌ إلاّ مات من حُسنها وجمالها . لكلِّ أحدٍ رأسُ مالٍ ، وهي رأسُ مال المؤمن .

* وقال رجلٌ لذي النون : إنّي لأُحبُّك . فقال : إن كنتَ عرفتَ الله فحسبُك الله ، وإن لم تعرفه فاطلبْ من يعرفه حتى يدلَّكَ عليه .

* وعندي أن المعرفة كشجرةٍ يَغرسها مَلِكٌ في بستانه ، ثمينةٌ جواهرُها ، مثمرةٌ أغصانُها ، حلوةٌ ثمارها ، طريفةٌ أوراقُها ، رفيعةٌ فروعها ، نقيَّةٌ أرضُها ، عذبٌ ماؤها ، طيِّبٌ أريجها ، صاحبُها مشفقٌ عليها لعزَّتها ، مسرورٌ بحسن زهرتها ، يدفعُ عنها الآفات ، ويمنعُ عنها البليّات .

وكذلك شجرةُ المعرفة التي يغرسها الله تعالى في بستانِ قلبِ عبده المؤمن ، فإنَّه يتعهَّدُها بكرمه ، ويُرسل إليها كلَّ ساعةٍ سحائبَ المنَّة من خزائن الرحمة ، فيمطر عليها قطراتِ الكرامة ، برعدِ القُدرة ، وبُرُق المشيئة ، ليُطهِّرَها من غبار رؤية العبودية ، ثم يُرسل عليها نسيمَ لطائف الرأفة ، من حُجُب العناية ؛ ليتمَّ لها شرفُ الولاية بالصيانة والوقاية ، فالعارفُ أبداً يطوفُ بسرِّه تحت ظلالها ، ويشمُّ من رياحينها ، ويقطعُ

---

(١) أي يفهمُ أنَّ ما عند الله لا يُنال إلاّ بطاعته ، ومتى فهمَ هذا ذهبَ عنه الوهم ، وهو ترك العمل الصالح ، والإصرار على المعصية اعتماداً على أنّ الله ﴿غفور رحيم﴾ ، ﴿عفو كريم﴾ . قال الحسن : إنَّ قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ، وما لهم حسنة ، يقول أحدهم : إني أُحسنُ الظنَّ بربي . وكَذَبَ ، لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ [فصلت : ٢٣] (الأستاذ خياطة) .

منها بمنجل الأدبِ ما فسدَ من ثمارها ، وحلَّ فيها من الخبثِ والآفة ، فإذا طالَ مقامُ سرِّ العارف تحتها ، ودامَ جولانُهُ حولها ، هاجَ أن يتلذَّذَ بثمارها ، فيمدُّ إليها يدَ الصفاء ، ويَجتني ثمارَها بأنامل الحرمة ، ثم يأكلُها بفمِ الاشتياق ، حتى تغلبه نارُ الاستغراق ، فيضرب يد الانبساط إلى بحر الوداد ، ويشربُ منه شربةً يَسكرُ بها عن كلِّ ما سوى الحقِّ سكرةً لا يفيق منها إلا عند المُعاينة ، ثم يطيرُ بجناح الهمَّةِ إلى ما لا تُدركه أوهامُ الخلائق .

* وقيل للواسطي : أيُّ الطعام أشهى؟ قال : لقمةٌ من ذكرِ الله تعالى ، تُرفعُ بيد اليقين من مائدةِ الخُلد ، عند حُسنِ الظنِّ بالله تعالى .

* قال النسّاج[(١)] : يخرجُ أكثرُ أهلِ الدنيا من الدنيا ولم يَذوقوا طيِّباتها المقصودة . قيل : وما هي؟ قال : سرورُ المعرفة ، وحلاوةُ المنَّة ، ولذائذُ القربة ، وأنس المحبة .

* وقال محمد بن واسع : حقٌّ لمن أعزَّه الله بمعرفته ، أن لا يذل نفسَه لغيره ، وحقٌّ لمن والاه الله بولايته ، أن يقومَ بحقِّه ، وحقٌّ لمن أكرمه الله بصحبته ، أن لا يميلَ إلى غيره ، ولا يعملَ بهوى نفسه .

* وقال أبو يزيد : إن في الليل شراباً لقلوب العارفين ، تطيرُ به قلوبُهم حبّا لله ، وشوقاً إليه ، ألا إنَّ الناظرين إليه ـ لا إلى غيره ـ ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة .

أقول : وهذا الشَّرابُ هو التحيُّرُ ، وهو على ضربين : تحيُّرُ وحشةٍ ، وتحيُّرُ دهشةٍ ، فتحيُّرُ الوحشة للمَطرودين ، وتحيُّرُ الدَّهشةِ للعارفين المُشتاقين .

يا دليلَ المُتحيِّرين زدْني تحيُّراً .

---

(١) خير النساج (٢٠٢ـ٣٢٢) من سامراء ، سكن بغداد ، كان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تاب في مجلسه الشبليُّ والخوّاص . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي بتحقيقنا ١/ ٥٩٥ .

الحديث الثالث

أخبرنا العبدُ الصالح الثقة ، الشيخُ أبو محمد أحمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن جعفر الآمدي الواسطي ، قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن علي ابن كاتب الوقف بواسط ، قال : أنبأنا أبو الحسن محمد بن علي الرُّؤاسي إملاءً بجامع واسط ، قال : أنبأنا أبو القاسم عبيد الله بن تميم ، قال : أنبأنا أحمد بن إبراهيم الإمام ، قال : أنبأنا عليُّ بن حرب بن زيد بن الحباب ، قال : أنبأنا علي بن مسعدة الباهلي ، قال : أنبأنا قتادة ، أنه سمعَ أنسَ بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ :

« الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ ، والإِيمَانُ فِي القَلْبِ ، والتقْوى هَا هُنا » . يقولها ثلاثاً ، ويُشيرُ بيده إلى صدره ﷺ[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ١٣٤ ، وأبو يعلى في مسنده ٥/ ٣٠١ (٢٩٢٣) ، والبزار في كشف الأستار (٢٠) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٢ : . . . . ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة ، وقد وثقه ابن حبان ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو حاتم ، وابن معين ، وضعفه آخرون .

قال المناوي في فيض القدير ٣/ ١٧٨ : واعلم أن الإسلام والإيمان طال فيما بينهما من النسب والكلام . والحقُّ أنهما متلازما المفهوم ، فلا ينفكُّ أحدهما عن الآخر ، فلا يوجد شرعاً إيمان بدون إسلام ، ولا عكسه ، فإن الإسلام يطلق على الأعمال ، كما يطلق على الانقياد لغة وشرعاً ، وإن الإيمان يطلق عليهما شرعاً باعتبار أنه متعلق بهما ، فهما على وزن الفقير والمسكين ، فإذا انفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، ودلَّ بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، وإن قرن بينهما فهما متغايران باعتبار أصل مفهوميهما .

والتقوى التي تقرُّ في القلب ، فتُحْكِمُ فيه الإيمانَ ، هي روحُ المعرفة .

أيْ سادة ، إنَّ الله تعالى جعل لكلِّ شيءٍ قدراً ، ولكلِّ قدرٍ حدًّا ، ولكلِّ حدٍّ سبباً ، ولكلِّ سببٍ أجلاً ، ولكلِّ أجلٍ كتاباً ، ولكلِّ كتاب أمراً ، ولكلِّ أمرٍ معنىً ، ولكلِّ معنىً صدقاً ، ولكلِّ صدقٍ حقًّا ، ولكلِّ حقٍّ حقيقة ، ولكلِّ حقيقة أهلاً ، ولكلِّ أهلٍ علامة ، فبالعلامةِ يُعرفُ المحقُّ من المُبطل ، وكلُّ قلب أقعده على بساط تحقيق المعرفة وقع بسيماء المعرفة على وجهه ، ويظهر أثرُها في حركاته وأفعاله وأقواله ، كما قال الله تعالى : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وقال ﷺ : « من أسرَّ سريرةً ألبسَهُ اللهُ رداءَها ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر »[1] .

* وقيل ليحيى بن معاذ : ما بالُ العارفين أحسنُ وجوهاً ، وأكثرُ هيبةً من غيرهم؟ فقال : لأنَّهم خلَوْا بالله مُستأنسين ، وقربوا إلى الله متوجِّهين ، وفزعوا إليه متوالهين ، فكساهم اللهُ بنورِ معرفته ، فيه يَنطقون ، وله يَعملون ، ومنه يَطلبون ، وإليه يَرغبون ، أولئك خواصُّ الله السابقون ، سعيهم في طاعةِ الله من غير علاقة ، ويَنصحون العامَّةَ من غير طمع ، مُشتاقون مُنيبون إلى الله تعالى ، قلوبُهم له وجلةٌ ، نفوسهم وحشية ، وقلوبهم عَرشية ، وعقولُهم مَغشية ، وأرواحهم ياسينية ، كلُّهم معصومٌ بقلبه عن فتنة الناس ، وذِكْرُ الله يَحميه من شرِّ الوسواس ، صدرُه

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن عثمان بلفظ : « ما من عبد يسرُّ سريرة إلا ردّاه الله رداءها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » ورواه أحمد ، وابن أبي الدنيا ، والطبراني ، وأبو نعيم عن أبي سعيد بلفظ : « لو أن أحدكم عمل في صخرةٍ صماء لا باب لها ولا كوة ، لأخرج الله عمله كائناً ما كان » . قال النجم : وسنده حسن . كشف الخفا ٢/٢٩٦ (٢٣٧٥) . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٨٣٦ في الزهد ، باب فيمن أسر سريرة حسنة : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه حامد بن آدم ، وهو كذاب .

مشروح ، وجسمُه مطروح ، وقلبُه مجروح ، وبابُ الملكوت له مَفتوح ، قلبه مثلُ القنديل ، وجوارحُهُ خاضعةٌ كالمنديل ، لسانُه مشغولٌ بتلاوة القرآن ، ولونُهُ مصفرٌ من خوف الهجران ، ونفسُه ذائبةٌ في خدمة الرحمن ، وقلبه زاهرٌ بنور الإيمان ، نفسُه مشغولةٌ بالطلب ، وروحُهُ مَشغولةٌ بقرب الرَّبِّ ، على لسانه وصفُ الربوبية ، وعلى أركانه خدمةُ الديمومية ، وعلى نفسه أثرُ العبودية ، وفي قلبه هيبةُ الفردانية ، وفي سرِّه الطَّربُ بالألُوهية ، وفي روحه شغفُ الوجدانية ، أفواههم إليه ضاحكة ، وأعينُهم نحوه طامحة ، وقلوبُهم به متعلّقة ، وهمومهم إليه واصلةٌ ، وأسرارهم إليه ناظرة ، رموا ذنوبَهم في بحر التوبة ، وطرحوا طاعاتِهم في بحر المِنَّة ، وضمائرَهم في بحر العظمة ، ومُرادَهم في بحر الصفوة ، وهممَهم في بحر المحبَّة .

في ميدانِ خدمته يتقلَّبون ، وتحت ظلال كرمه يتنفَّسون ، وفي رياضِ رحمته يَرتعون ، ومن رياحين امتنانه يشمّون ، يَنظرون إلى الدنيا بعين الاعتبار ، وإلى الآخرة بعين الانتظار ، وإلى أنفسهم بعين الاحتقار ، وإلى طاعتهم بعين الاعتذار لا الاستكثار ، وإلى الغفران بعين الافتقار ، وإلى المعرفة بعين الاستبشار ، وإلى المعروف سبحانه بعين الافتخار . يَرمون أنفسهم إلى البلوى ، وأرواحَهم إلى العقبى ، وقلوبَهم إلى النجوى ، وأسرارهم إلى المولى .

أنفسُهم تاركةٌ للدنيا ، وأرواحهم للعقبى ، وقلوبُهم مُستأنسةٌ بالذكرى ، وأسرارهم بحبِّ المولى ، قلوبُهم معدنُ التعظيم والهيبة ، وألسنتُهم معادنُ الحمد والمدحة ، وأرواحهم مواطنُ الشوق والمحبَّة ، وأنفسهم مقهورةٌ تحت سلطان العقل والفطنة ، أكثرُ همَّتهم التفكير والعبرة ، وأكثرُ كلامهم الثناء والمدحة ، عملُهم الطاعة والخدمة ، ونظرهم إلى لطائف صنع ربِّ العزَّة .

أحدهم تراه مُصفراً من خوف فراقه ، ذائبَ الأطراف من هيبة جلاله ،

طويلَ الانتظارِ شوقاً إلى لقائه ، سلك طريق المصطفى ، ورمى الدُّنيا خلفَ القفا ، وأذاقَ الهوى طعمَ الجفا ، وقام على قدم صدقِ الوفا .

حالُهُ في الدنيا غريب ، وقلبُه في صدره غريب ، وسرُّه في نفسه غريب ، فلا يستريحُ من غمّ الغُربة ووحشتها ، ما لم يصل إلى الحبيب ، فأمرُه عجيب ، والمولى له طبيب ، كلامُه وجداني ، وقلبُه فرداني ، وعقله ربَّاني ، وهمُّهُ صمداني ، وعيشه روحاني ، وعملُه نوراني ، وحديثه سماوي ، جعل الله قلبَه موضعَ سرِّه وموطن نظره ، وزيَّنه بحليِّ ربوبيته ، وأدخله دارَ الإمارة من سلطانه ، يدور بالفؤاد حول عزَّته ، ويرتعُ في روضات قدسه ، ويَطيرُ بجناح المعرفة في سُرادقات غيبه ، ويجولُ في ميادين قدرته ، وحُجُبِ جبروته ، لو رآه الجاهلُ بشأنه ماتَ فزعاً بعد معرفته له من ساعته ، علامتُه في الدنيا أن يكونَ البلاءُ عنده عسلاً ، والأحزانُ رُطباً ، وفي الآخرة كلُّ واحدٍ يقول : نفسي ، نفسي . وهو يقول : ربِّي ، ربِّي ، مُرادي ، مرادي .

العارفُ علامته أربعةٌ : حبُّه الجليل ، وتركه الكثير والقليل ، واتباعه التنزيل ، وخوفه من التحويل .

العابد ذو نَصَبٍ ، والخائف ذو هَرَبٍ ، والمحبُّ ذو شغب ، والعارف ذو طرب .

* * *

الحديث الرابع

أخبرنا شيخنا الولي التقي الثقة المقرئ القاضي أبو الفضل علي الواسطي القُرشي بمدرسته في واسط ، قال : أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحدَّاد ، قال : أنبأنا علي أبو طاهر الحسن ابن الوزير أبي القاسم علي بن صدقة بن علي ، قال : أنبأنا أبو المطهّر سعد بن عبد الله الأصبهاني ، قال : أنبأنا أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن فارس ، قال : أنبأنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، قال : أنبأنا أبو داود الحضري ، قال : أنبأنا ابنُ الربيع ، عن نُعَيم بن حَنْظلة ، عن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« ذُو الوَجْهَينِ في الدُّنيا ذُو لِسَانَينِ في النَّار »[1] .

ولهذا صرفَ العارفون وجوهَهم إلى الله تعالى ، فلن ترى للعارفِ وجهتين أصلاً ، ومن هذا السرّ أُمروا بعدم الجمع بين أُستاذين ، وقالوا : إذا وجِدَ الأكملُ الأفضلُ في طريق الله تعالى الأصحُ اتِّباعاً لرسول الله ﷺ ، فعلى المريد أن يتمسَّكَ به ، بل على من كان يزعمُ

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (٤٨٧٣) في الأدب ، باب في ذي الوجهين ، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٦٤٤) ، والدارمي في سننه ٢/ ٣١٢ ، والبخاري في الأدب المفرد (١٣١٠) ، وأبو يعلى في مسنده (١٦٣٧) ، والطبراني في الأوسط ٦/ ١٥٢ (٦٢٧٤) بلفظ : « من كان ذا وجهين في الدنيا كان له لسانان من نارٍ يوم القيامة » . وابن حبان ١٣/ ٦٨ (٥٧٥٦) .

المشيخَة أن يلتحق به هو وأولاده في الطريق ، وهذا ضربٌ من أعظم أضراب المعرفة بالله .

أيْ سادة ، اعلموا أنَّ العارفين على أصنافٍ مختلفة ، ومناهجَ مُتفاوتة ، ومراتبَ متلوّنة ، وأنواع متفرّقة ، ومنازلَ متنوّعة : فمنهم من عرفَ الله بالقدرِ فخافه ، ومنهم من عرفه بالفضل فأحسن الظنَّ به ، ومنهم من عرفه بالمُراقبة فاعتقدَ الصدق ، ومنهم من عرفه بالعظمةِ فاعتقدَ الخشيةَ ، ومنهم من عرفه بالكِفاية فاعتقدَ الافتقار إليه ، ومنهم من عرفه بالفردانية فاعتقد الصفوة ، ومنهم من عرفه به فاعتقد الوصلة .

فَوِجْدَان الخوف على قدرِ عِرفانِ القدرة ، وَوِجْدَان حسنِ الظنّ على قدر عرفان الفضل ، ووجدان الصدق على قدر عرفان المراقبة ، ووجدان الخشية على قدر عرفان العظمة ، ووجدان الافتقار على قدر عرفان الكفاية ، ووجدان الصفوة على قدر عرفان الفردانية ، ووجدان الوصلة على قدر عرفان الربِّ تعالى .

وكذلك أهلُ السموات في العبادة على مقامات ، فمقامُ بعضِهم الحياءُ والحرمة ، ومقام بعضهم القُربةُ والمؤانسة ، ومقام بعضهم رؤية المنَّةِ ، ومقام بعضهم المُراقبة ، ومقامُ بعضهم الهيبة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ [الصافات : ١٦٤] .

فأهل المعرفة عامَّتهُم يعرفونه على سبيل الخبر في التوحيد ، عن الصادق الأمين ، سيدنا وسيِّدِ العالمين محمد ﷺ ، فصدَّقوه بقلوبهم ، وعملوا بأبدانهم ، إلاّ أنّهم دنَّسوا أنفسَهم بالذنوب والمعاصي ، فعاشوا في الدنيا على الجهل والتقصير ، فهم على خطرٍ عظيم ، إلاّ أنْ يرحَمهم أرحمُ الراحمين .

وأُناسٌ فوقهم يعرفونه بالدلائل ، وهم أهل النظر والعقل والفكر ، أيقنوا بالتوحيد ، من قِبَلِ الدلائل والآيات وآثار الربوبية ، استدلّوا

بالشاهد على الغائب ، واستيقنوا صحة الدلالة ، فهم على طريقٍ حسنٍ إلاّ أنَّهم عاشوا مَحجوبين عن الله برؤية دلائلهم .

وخواصُّ أهل المعرفة من أُولي اليقين ، عرفوه به سبحانه ، فوقفوا متمكنين مع معرفتهم ، لا تخطفهم الأدلة ، ولا تصرفهم العلّةُ ، دليلهم رسول الله ﷺ ، وإمامهم القرآن ، ونورُهم يسعى بين يديهم .

فمن عرفه تعالى بالخبر ، كمثل إخوة يوسف ، إذ عرفوا لونه ، وغفلوا عنه ، حتى افتضحوا بين يديه ، حيث قالوا : ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ [يوسف : ٧٧] .

ومن عرفه بالدلائل كمثل يعقوب ، إذ عرف أنَّ يوسف يُعدُّ في الأحياء ، فازداد حُزناً وبكاء ، واحتملَ ما احتمل من أنواع البلاء ، حتى ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾ [يوسف : ٨٤] ، علماً منه بحياته ، وشوقاً إلى لقائه ، حتى قال : ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وقال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ ﴾ [يوسف : ٩٤] ، حتى قال من غفل عنه : ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] ، وقالوا : ﴿ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : ٨٥] .

ومثل من عرفه به ، كبنيامين حين أخذَه يوسف لنفسه ، فقال : يا أخي ، أَمشاهدتي تريد ، أم الرجوعَ إلى أبيك؟ قال : بل مشاهدتك أُريد . قال : فإنْ أردتني فاصبر على محنتي ، قال : نعم ، أحتملُ لأجلك كلَّ بلوى ، أليسَ أَني أبقى معك ولا أُفارقك ، ثم أَخرجَ الصُّواعَ[1] . من وعاءه ، ونسبَهُ إلى السرقة ، حتى عابه أهلُ مصر على ذلك ، ولاموه ، وشتمه إخوته ، وهو في ذلك كلِّه مسرورٌ ضاحكٌ في سره ، ولم يخفْ من لومةَ اللائمين ، فهذا مثل من عرفه من أهل اليقين .

---

(١) الصُّواع والصَّواع : إناء كان يشرب منه الملك . وقيل إنه كان من فضة مموَّهاً بالذهب ، فكان يكال به . انظر اللسان (صوع) .

* وقال شيخُ الطائفة الإمام الحسنُ البصري[1] رضي الله عنه : أهلُ المعرفة في الدنيا على ثلاث منازل :

١ـ رجلٌ لقي العبادةَ فعانقها وخلطَ بها لحمَه ودمه ، وفزعَ إليها قلبُه ، وعلم أنَّ الله تعالى رازقُه وكافيه ، فوثق بوعده ، فلم يشغل نفسَه بشيءٍ من أمور الدنيا ، جعلَ السماء سقفه ، والأرضَ بساطه ، ولا يُبالي على يُسرٍ أصبحَ أم على عُسرٍ ، أمسى يعبدُ الله تعالى حتى يأتيه اليقين ، فهذا الضربُ في الدنيا أعزُّ من الكبريت الأحمر .

٢ـ ورجلٌ آخر لم يصبر كما صبرَ الأول ، فطلب كسرةً من حِلِّها ؛ يُقيمُ بها صُلبَه ، وخرقةً يُواري بها عورته ، وبيتاً يسكنه ، وزوجةً يستعفُّ بها ، وهو مع ذلك شديدُ الخوف ، عظيمُ الرَّجاء ، فهو على طريقٍ حسنٍ .

٣ـ وأمَّا الثالث فإنَّه لا يُصدِّقُ اللهَ بقوله ، فيبني القصرَ المشيد ، ويركبُ المركب الفَرِه ، ويستخدمُ الخدمَ ، فليس له في الآخرة من خَلاَقٍ[2] ، إلا أن يرحَمه أرحمُ الراحمين .

* رأيتُ في بعض الأخبار : أن عيسى ابن مريم عليه السلام مرَّ بنفرٍ من الناس ، قد نحلتْ أبدانُهم ، وتغيَّرت ألوانُهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم

---

(١) الحسن البصري : الحسن بن يسار ، أبو سعيد (٢١ـ١١٠ هـ) تابعي ، كان إمام أهل زمانه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة ، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب ، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية ، وسكن البصرة ، وعظمت هيبته في القلوب ، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، لا يخاف في الله لومة لائم . قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة . وكان غاية في الفصاحة ، تتصبب الحكمة من فيه ، وله مع الحجاج مواقف . وله كلمات سائرة . انظر الأعلام ٢/٢٢٦ .

(٢) الخلاق : الحظ والنصيب .

ما أرى؟ قالوا : الخوفُ من النار . فقال : حقٌّ على الله أن يُؤَمِّنَ الخائف . ثم بلغ إلى نفرٍ آخر ، فإذا أبدانُهم أشدُّ نحولاً ، وألوانُهم أشدُّ تغيّراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم؟ قالوا : الشوقُ إلى الجنان . فقال : حقٌّ على الله أن يُعطيكم ما ترجون . ثم مرَّ حتى بلغ نفراً ثالثاً فإذا أبدانُهم أشدُّ نحولاً ، وألوانُهم أشدُّ تغيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا : الحبُّ لله ، والشوقُ إليه . فقال لهم عيسى عليه السلام : أنتم المقرَّبون ، ثلاث مرات .

فأهلُ المعرفة ثلاثةُ أَصناف ، صنفٌ يمشون على قدمِ الافتقار والاضطرار ، وصنفٌ يمشون على قدمِ الاعتبار والانكسار ، وصنفٌ يمشون على قدمِ الافتخار والاستبشار ، قال الله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

والناس في مشهد المعرفة على مَرتبتين : إما في يقظةِ المعرفة ، فهم في تربيةِ الولاية ، فينظرون الكرامة ، وإما في نومِ الفضلة ، فهم في تربية العداوة ، فهم ينظرون الإماتة ، إلاّ أنْ يرحمَهم أرحَمُ الراحمين .

فسبحان من خصَّ من عبيده من شاء وأعطاهم ، ثم دعاهم إلى نفسه بفضله حيث قال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر : ٥٤] ، فأجابوه ، وأنابوا إليه ، فهم على أصنافٍ شتى ، فالتائبون يمشون برِجل النَّدامةِ على قدمِ الحياء ، والزّاهدون يمشون برِجل التوكُّل على قدم الرِّضا ، والخائفون يمشون برِجل الهيبة على قدمِ الوفاء ، والمحبُّون يمشون برِجل الشوق على قدمِ الصفاء ، والعارفون يَمشون برِجل المُشاهدة على قدمِ الفناء .

فالمعرفة طعامٌ أطعمه الله من شاءَ من عباده ، فمنهم من يذوقه ذوقاً ، ومنهم من يأكل منه بلاغاً ، ومنهم من يأكل منه كفافاً ، ومنهم من يأكل منه شبعاً .

والناسُ في المعرفة على منازلَ ، فمنهم من يكون منزلُه منها كشِعبٍ ،

ومنهم من يكون كقريةٍ ، ومنهم من يكون كمِصْرٍ ، ومنهم من يكون منزله منها كالدُّنيا والآخرة .

* رُوِيَ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : « إذا كان يوم القيامة ، نادى مُنادٍ : أخرجوا من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه مِثقالُ حبَّةٍ من خَردلٍ من الإحسان » .

* وقد قال عليه أفضلُ الصلاة والسلام : « الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراه ، فإن لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراك »[1] .

وما ذلك إلاَّ حقيقةُ المعرفة ، فيقولُ لهم الرَّبُّ تعالى : أنتم عبيدي حقًّا ، فقد طالَ شوقُكم إليَّ ، وشوقي إليكم ، السلامُ عليكم عبيدي ، فها أنا حبيبكم ، فبعزَّتي ما خلقتُ الجنَّةَ إلاَّ من أجلكم ، فلكم اليومَ ما شئتم .

* وحُكي أنَّ مالكَ بن دينار[2] ، وثابتاً البُنَاني[3] رحمهما الله ، دخلا على رابعةَ البَصريَّة[4] ، فقالتْ لمالك : أخبرني ، لمَ تعبدُ ربَّك؟ قال :

---

(١) رواه البخاري في الإيمان ، باب سؤال جبريل النَّبي ﷺ ١/١٠٦ ، ١١٥ ، ومسلم (٩ و ١٠) في الإيمان ، باب الإسلام والإيمان والإحسان ، وأبو داود (٤٦٩٨) في السنة ، باب في القدر ، والنسائي ٨/ ١٠ في الإيمان ، باب صفة الإيمان والإسلام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى ثقة من رواة الحديث ، كان ورعاً يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة ، توفي في البصرة سنة (١٣١ هـ) . الأعلام .

(٣) ثابت بن أسلم البُناني : المحدث الورع التقي قال الغزالي : كان ثابت من أولياء الله ، وكان أعبد أهل زمانه ، يصوم الدهر ، ويقوم الليل أجمع ، ولا يمرُّ بمسجدٍ إلا دخله وصلى فيه ركعتين . توفي سنة (١٢٣ هـ) . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٢٤٤ .

(٤) رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها . لها أخبار في العبادة والنسك ، ولها شعر حسن ، توفيت بالقدس سنة (١٣٥ هـ) . الأعلام .

شوقاً إلى الجنان . فقالت لثابت : وأنتَ يا غلام؟ فقال : خوفاً من النيران . فقالت : أنتَ يا مالك مثلُ أَجيرِ السوء ، لا يعملُ إلاّ طَمَعاً ، وأنت يا ثابت مثلُ عبدِ السوء ، تعملُ خوفاً من الضرب . فقالا : وأنتِ يا رابعة . فقالت : حبًا لله تعالى ، وشوقاً إليه .

* وحُكي أنَّ ذا النون المصري رضي الله عنه كان يعظُ النَّاس ذات يوم ، وهم يبكون ، وفيهم شابٌّ يضحك ، فقال له : مالَكَ يا فتى؟ فقامَ ، يُنشد ، ويقول :

كلُّهمْ يَعبُدونَ من خَوْفِ نار ... ويَروْنَ النَّجاةَ حظًّا جَزِيلا
أو بأنْ يَسْكُنوا الجِنانَ فَيُضْحُوا ... في رياضٍ عُيونُها سَلْسَبيلا
ليسَ في الخُلْدِ والجِنَانِ هَوائي ... أنا لا أَبْتَغي بِحُبِّي بَدِيلا

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث الخامس

أخبرنا شيخُنا الصالح الثقة العارف بالله القاضي أبو الفضل عليُّ الواسطي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزَّاز ، قال : أنبأنا أبو إسحاق بن عمر بن أحمد البرمكي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن محمد البزَّاز ، قال : أنبأنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مُسْلم البصري ، قال : أنبأنا أبو عبد الله الأنصاري ، قال : حدَّثنا حميد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« انصُرْ أخاك ظالماً كان أو مَظْلوماً » قال : أنصره مَظْلوماً ، فكيف أنصُرُهُ ظالماً؟ قال : « تمنعُهُ من الظُّلم ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إيَّاهُ »[1] .

أقول هذا بشأن أخيك ، فكيف بك بشأنك؟ أخيفوا نفوسكم ، وامنعوها ، وازجروها .

أَيْ سادة ، للعارف أربعُ أجنحةٍ : الخوف ، والرَّجاء ، والمحبَّة ، والشوق ، فلا هو بجناحِ الخوف يَستريحُ من الهرب ، ولا بجناحِ الرَّجاء يَستريحُ من الطلب ، ولا بجناح المحبَّةِ يَستريحُ من الطرب ، ولا بجناح الشوق يستريح من الشَّغْبِ .

والله تعالى بيَّنَ في كتابه نعتَهم بقوله : ﴿ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] .

---

(١) رواه البخاري ٥/ ٧٠ في المظالم ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وفي الإكراه ، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ، والترمذي (٢٢٥٦) في الفتن ، باب رقم (٦٨) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ . . . . ﴾ [النور : ٣٧] .

وذلك لأنَّ عملَ العارف خالصٌ للمولى ، وقولهُ مُستأنسٌ بالذكرى ، ونفسَه صابرةٌ في البلوى ، وسرَه دائمُ النجوى ، وفكرَه بالأُفقِ الأعلى ، فمرَّةً يتفكَّر في نِعَم ربِّه ، ومرَّةً يجولُ حول سُرادقات قدسه ، فحينئذٍ يصيرُ حرًّا عبداً ، وعبداً حرًّا ، وغنياً فقيراً ، وفقيراً غنياً ، هكذا يُعِدُّ ما أمكنه طَرداً وعكساً من الألفاظ ، مثل : الموجود والمعروف ، والعزيز والمسرور ، والقريب والمحمود ، والناطق والساكت ، والمقبول والخائف ، والشاهد والغائب ، والباكي والضاحك ، وذلك لأنَّ ضحكه وسروره في حزنه ، وحزنَهُ في سروره ، وعزَّهُ مختلطٌ بذلّه ، وذُلّه مُختلطٌ بعزِّه ؛ وخوفَه ممزوجٌ برجائه ، ورجاءه ممزوجٌ بخوفه ، لا خوفَ يذهب برجائه ، ولا رجاءَ يذهبُ بخوفه ، وهو بنفسه يعيشُ مع الناس ، وبقلبه مع الله تعالى ، لا تغلبُ معاملةُ نفسه مع الناس معاملةَ قلبه مع الله تعالى ، عزيزٌ ذليل ، فقيرٌ غني ، كما قال أبو يزيد رضي الله عنه في مُناجاته : إلهي .

كُلَّما قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدِي   قَيَّدوني وَأَوْثَقوا المِسمارا

وكان يسيلُ الدَّمعُ من عينيه عند هذه الكلمة .

وليس كلُّ من يُرى عليه أثرُ الزُّهد فهو زاهد ، وكذلك أَثرُ الرَّغبةِ ، والحماقةِ ، والجنون ، والبطالة ، والغفلة .

إن الله تعالى كلَّما نظرَ إلى قلب عبدٍ من عبيده بالفضل والرَّحمة كشفَ عنه حجابَ الغفلة ، وأظهرَ له لطائفَ القُدرة ، فعند ذلك لا بدَّ له من إحدى ثلاث : إمّا أن يصيرَ حكيماً يتَّصلُ به الخلق إلى الله ، وإمّا أن يَكِلَّ لسانُه ، فيصيرُ مَدهوشاً مَبهوتاً ، وإمّا أن يصيرَ مَستوراً في حُجُبه ، محفوظاً في قبضته ، حتى لا يَراه غيرُه ، لشدَّة غيرته عليه .

فسبحانَ من حجب أهلَ معرفته عن جميع خلقه ، حجبهم عن أبناء

الدنيا بأستار الآخرة ، وعن أبناءِ الآخرة بأستار الدنيا ، وذلك لأنَّ أهلَ المعرفة عرائسُ الله تعالى في أرضه ، واللهُ مَحْرَمهُم ، لا مَحْرَمَ لهم غيره ، فهم عند الله مخدورون(١) .

* وقد رُوي أنَّ الله تعالى أَوحى إلى داود عليه السلام : يا داود ، أوليائي في قبابٍ ، لا يَعرفُهم إلا أوليائي ، فطوبى لأَوليائي ، ثم طوبى لأحبائي .

* يُقال : لو بدتْ ذرَّةٌ من نور النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، لاحترق ما بين العرش إلى الثرى .

* قيل لرابعة : ما كمالُ حالِ العارف؟ قالت : احتراقُهُ بحبِّه لربِّه .

وعلامتُه : أن يكون مُستغنياً بالمعطي عن العَطاء ، وبالمكوّن عن الكون ، مُستغرقاً في بحارِ سرورِ وجدانه ، ساكناً بقلبه معه ، مع تركِ كلِّ اختيارٍ لنفسه ، ولا يجزعُ عند الشدائدِ والبلوى لرؤيته ، ويعلمُ أنَّ الله تعالى أقربُ إليه من كلِّ شيءٍ ، وأرحمُ عليه من كلِّ أحدٍ ، وأعزُّ وأكبرُ من كلِّ شيءٍ ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ خَلَفاً ما خلا الله تعالى .

لِكُلِّ شَيءٍ عَدِمْتَهُ خَلَفُ ... وما لِفَقْدِ الحَبيبِ مِنْ خَلَفِ

وإنَّما يَعرفُ العارفُ إذا ميَّزَ الخواطرَ النفسية من الخواطر الروحية ، والإرادةَ الدنياوية من الأُخروية ، والهِمَمَ العلوية من السُّفلية ، فمن رُزِقَ التوفيقَ على حفظِ حدود صدقِ وفاء العبودية ، والقيام بشروطها ، ووَجَدَ السبيلَ إلى طريقِ حفظ تحقيقها ، ثم قامَ بذكره وذكرِ ذكرِه ، ثم شَكَرَهُ وشكرَ شكرَه ، فَيصيرُ مع النفس بلا نفسٍ ، ومع الروحِ بلا روحٍ ، ومع الخَلْقِ بلا خلق .

* كما قال الإمام ابنُ عباس رضي الله عنهما : بلغنا أنَّ عيسى ويحيى

---

(١) مخدورون : مستورون .

عليهما الصَّلاةُ والسلام بينما كانا يسيران في بعض الطُّرق ، فصدم يحيى امرأةً ، فقال له عيسى : يا ابن خالتي ، لقد أصبتَ اليومَ ذنباً عظيماً . قال : وما هو؟ قال : امرأة صدمتها . قال يحيى : واللهِ، ما شعرت بها . فقال عيسى : سبحانَ الله ، نفسُك معي ، فأين قلبُك وروحك؟ فقال : عند الله ، يا عيسى ، لو سكن قلبي إلى جبريل ، أو إلى أحدٍ غيرِ الله طرفةَ عين ، لظننتُ أنّي ما عرفتُ اللهَ حقَّ معرفته .

* وقيل : المعرفةُ خمسةُ أحرفٍ ، فمن وجدَ في نفسه معناها فليعلمْ أنّه من أهلها : بالميم مَلَكَ نفسَه ، وبالعين عَبَدَ اللهَ على صدق الوفاء ، وبالرَّاء رَغِبَ إلى الله بالكليّة ، وبالفاء فوَّضَ أمرَه إلى الله ، وبالهاء هَرَبَ من كلِّ ما دونَ الله إلى الله .

فكلُّ عارفٍ يملكُ نفسَه بقدر معرفته بكبريائه تعالى ، وعظمته ، ويعبدُ ربَّه على قدر معرفته بربوبيَّتِهِ ويرغبُ إليه على قدر معرفته بفضله وامتنانه ، ويُفوّضُ أمرَه إليه على قدر معرفته بقدرته ، ويهربُ إليه على قدر معرفته بمُلكه وسلطانه ، فهو عارف .

* * *

الحديث السادس

حدَّثنا الشريفُ محمدُ بن عبد السَّميع العباسي الهاشمي الواسطي ، قال : أخبرنا الحاجبُ أبو شجاع محمد بن الحسين ، قال أنبأنا النقيبُ أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزَّبيبي الهاشمي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الجبَّار السكري ، قال : أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفَّار ، قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن منصور الرَّمادي ، قال : أنبأنا عبد الرزَّاق بن همَّام ، قال : أنبأنا مَعْمَر عن الزُّهريِّ ، عن رجلٍ سمَّاه ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« يُستجابُ لأحدِكم ما لم يعجلْ ، فيقول : دَعوتُ فلم يُستجبْ لي »(١) .

والعجلةُ هنا من غلبةِ الاشتغال بالقصدِ دونَ خالقه ، وهذا من نقصانِ المعرفةِ ؛ فإنَّ العارفَ لا يشغلهُ شيءٌ عن ربِّه .

وسنذكرُ من أحوال العارفين أشياءَ بقصدِ التبرُّك بذكرهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [مريم : ٤١] .

---

(١) رواه البخاري ١١/ ١١٩ في الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل ، ومسلم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، والموطأ ١/ ٢١٣ في القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، والترمذي (٣٦٠٢) و (٣٦٠٣) في الدعوات ، باب رقم (١٤٥) ، وأبو داود رقم (١٤٨٤) في الصلاة ، باب الدعاء .

وقال سبحانه : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ ﴾ [يوسف : ٣] .

وفي الخبر : « اذكروا الصالحين ، عند ذِكْرِ الصالحين تنزلُ الرحمة »[١] .

فلولا ذلك لما كان يَنبغي لنا أن نشتغلَ بذكرِ غيرِ الله تعالى ، ومع ذلك فإنَّ الله تعالى معنا ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد : ٤] .

* حُكي أنَّ عبد الواحد بن زيد[٢] رحمه الله قال : قصدتُ بيتَ المقدس ، فأَضللتُ طريقي ، فإذا بامرأةٍ أَقبلت إليَّ ، فقلت لها : يا غريبة ، أنت ضالَّة؟ قالت : كيف يكونُ غريباً من يَعرفه؟! وكيف يكون ضالاً من يحبُّه؟! ثم قالت : خذ رأسَ عصاي ، وتقدَّمَ بين يدي مشياً . فأخذتُ رأسَ عصاها ، ومشيتُ بين يديها ، سبعةَ أَقدامٍ أَقلَّ أو أكثر ، فإذا أنا في مسجدِ بيت المقدس ، فدلكتُ عيني ، قلت : لعلَّ هذا غلطٌ منّي . فقالت : يا هذا ، سيرُك سيرُ الزاهدين ، وسيري سيرُ العارفين ، فالزَّاهد يسير ، والعارفُ يطير ، وأنَّى يلحق السيَّارُ الطيارَ . ثم غابت ، فلم أرها بعدها .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لا أصل له ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : ليس له أصل في المرفوع ، وإنما هو من قول سفيان بن عيينة ، لكن قال ابن الصلاح في علوم الحديث : روينا عن أبي عمر ، وإسماعيل بن مجيد أنه ساير أبا جعفر أحمدَ بن حمدان ، وكانا عبدين صالحين ، فقال له : بأيِّ نيةٍ أكتبُ الحديث ؟ فقال : ألستم تَرَوْنَ أن عند ذكر الصالحين تنزَّلُ الرحمة ؟ فقال : نعم ، قال : فرسول الله ﷺ رئيسُ الصالحين انتهى . ولم ينبِّهْ على ذلك العراقي في نُكته عليه ، قال القاري : لكنَّ اللفظ إن كان تروون بواوين من الرِّواية فيدلُّ في الجملة على أنه حديث ، وله أصل ، وإن كانَ ترون من الرُّؤية مجهولاً أو معلوماً فلا دلالة فيه انتهى . وقال الزَّمخشري في خطبة رسالة في فضائل العشرة : ورد في صحيح الآثار المسندة عن العلماء الكبار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » انتهى والله أعلم . كشف الخفا ٢/ ٩١ (١٧٧٢) .

(٢) عبد الواحد بن زيد البصري العابد الزاهد ، صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة أسند الحديث ، وروى عن جماعة من الأعيان ، وهو متروك الحديث ، مات سنة (١٧٧ هـ) . انظر ترجمته مع مصادرها في الكواكب الدرية للمناوي ١/ ٣٦٠ .

* قال أبو عمران الواسطي رحمه الله : كنتُ راكباً البحر ، إذِ انكسرتِ السفينةُ ، وبقيت أنا وامرأتي ، فولدتْ ولداً ، فأرادت الماء ، فرفعتُ رأسي إلى السماء ، فإذا رجلٌ جالسٌ على الهواء ، وفي يده رَكوةٌ من ياقوتةٍ حمراء ، في سِلسلةٍ من ذهب ، وقال : خذ . فسألتُهُ عن ذلك ، فقال : تركتُ هواي ، فأجلسني في الهواء .

* وحُكِي أنَّ عبد الواحد بن زيد قال : قلتُ لأبي عاصم الربعي[١] : كيف صنعتَ حين طلَبَكَ الحجَّاجُ[٢] ؟ قال : كنتُ في بيتي ، فوقفوا على البابِ ليدخلَ عليَّ الرَّسولُ ، فصرتُ مَدهوشاً ، فإذا بيدٍ أخذتْ بيدي ، وجرَّتني قدماً أو أكثرَ ، فنظرتُ فإذا أنا على جبل أَبي قُبَيْس[٣] .

* وحُكِي أنَّ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه قال : مررتُ براعٍ ، فقلت له : هل عندك شربةٌ من الماء ، أو من اللَّبن؟ قال : أيُّهما أحبُّ إليك؟ قلت : الماء . قال : فضربَ بعصاه حجراً صلداً لا صدعَ فيه ، فانبجسَ منه الماء ، فشربتُ منه ، وهو أَبردُ من الثلج ، وأحلى من العسل ، وبقيتُ متعجّباً ، فقال الراعي : لا تتعجبْ ، فإنَّ العَبد إذا أطاعَ الله أطاعَهُ كلُّ شيءٍ .

* وكانت لرابعة البصرية سلَّةٌ معلَّقةٌ في بيتها ، فكلَّما أرادتِ الطعام ،

---

(١) أبو عاصم البصري عارف ، إمام ، عامل . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الكواكب الدرية ١/ ٢٢٢ .

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي ، أبو محمد (٤٠ـ٩٥ هـ) قائد داهية سفاك خطيب ، ولد ونشأ في الطائف ، وانتقل للشام ، وعمل شرطياً ثم ما زال يظهر حتى قلَّده عبد الملك بن مروان أمر عسكره ، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير ، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير ، وقتل عبد الله وفرّق جموعه ، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه ، فانصرف إلى بغداد في ثمانية رجال على النجائب ، فقمع الثورة ، وثبتت له الإمارة عشرين سنة . بنى مدينة واسط ، ومات . الأعلام .

(٣) أبو قُبيس جبل في مكة ، ولمّا طلبه الحجاج كان في البصرة .

ضربتْ بيدها إلى السلة ، فوجدتْ فيها أيَّ الطعامِ شاءت .

* وقال شيخُ الطائفة الحسنُ رضي الله عنه : خرجَ سلمان الفارسي رضي الله عنه من المَدائن[1] ، ومعه ضيفٌ ، فإذا بظباءِ تسيرُ في الصحراء ، وطيورٌ تطيرُ في الهواء ، فقال سلمان : ليأتني ظبيٌ وطيرٌ سمينان ، فقد جاءني ضيفٌ أُحبُّ إكرامَه . فجاء كلاهما ، فقال الرَّجل : سبحان الذي سخَّر لك الطيرَ في الهواء . قال : أو تتعجَّبُ من هذا؟ هل رأيتَ عبداً أطاعَ الله فعصاه الله؟

* قال عبد الواحد بن زيد : بينما أنا وأيوب السَّختياني[2] نسيرُ في طريق الشام فإذا بأسودَ أقبلَ إلينا ، يحمل كارةَ حطبٍ ، فقلت : يا أسود ، من ربُّك؟ قال : ألمثلي تقولُ هذا؟! فرفعَ رأسه إلى السماء ، وقال : إلهي ، حوّلْ هذا الحطبَ ذهباً . فإذا هو ذهبٌ ، ثم قال : أرأيتم هذا؟ قلنا : نعم . قال : اللَّهُمَّ ردَّه حطباً . فصار كما كان أولاً ، ثم قال : سلوا ، فإنَّ العارفين لا تَفنى عجائبُهم . فقال أيوب : بقيتُ خجلاً من العبد ، واستحييتُ منه حياءً ما استحييتُ مثله قبلَ ذلك من أحدٍ قطُّ ، ثم قلت : أمعكَ شيءٌ من الطعام؟ قال : فأشار ، فإذا بين أيدينا جامٌ فيه عسلٌ ، أشَدُّ بياضاً من الثلج ، وأطيبُ ريحاً من المسك ، قال : كلوا ، فوالله الذي لا إله إلاّ هو ليس هذا من بطنِ النَّحل . فأكلنا ، فما رأينا شيئاً أحلى منه ، فتعجَّبنا ، فقال : ليس بعارفٍ من تعجَّبَ من الآيات ، ومن تعجَّبَ فهو بعيدٌ من الله ، ومن عَبَدَهُ على رؤية الآيات فهو جاهل بالله .

رحم الله ذلك الأسود ، ما أعرَفه بالله!

---

(١) المدائن : مدينة فارسية ، وإنما سمتها العرب المدائن لأنها كانت سبع مدائن قريبة من بعضها . تبعد عن بغداد سبعة فراسخ . انظر معجم البلدان .

(٢) أيوب بن كيسان السختياني (٦٦ـ١٣١ هـ) . سيد فقهاء عصره ، تابعي من النساك الزهاد ، من حفاظ الحديث ، كان ثبتاً ثقةً . الأعلام .

* وقد كنتُ حاجّاً ، وأردت التلبية ، فأخذت منديلاً لي فغسلته ، وقطعته نصفين ، ثم اتَّزرتُ بنصف ، وارتديتُ بنصفٍ آخر لحاجة ، فإذا بهاتفٍ يهتف : انظر ما بين يديك . فنظرتُ ، فإذا الباديةُ فضَّةٌ كلُّها ، فغمضتُ عيني ، ومضيت ، وقلتُ : اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من كلّ إرادةٍ سواك .

* وحُكِي أنَّ رجلاً من العارفين فرغَ من أعمال الحجِّ وأركانه ، ثم أخَذَ يُحرم مرَّةً أُخرى ، وقال : لبَّيكَ اللهم لبَّيك . فقيل له : يا هذا ، إنَّ وقت الحج والتلبية قد مَضى . فقال : قد أحرمتُ من الوطن إلى زيارة البيت ، والآن أحرمتُ من البيتِ إلى صاحب البيت . فقيل : هنيئاً لمن أحرم عن غيره .

* وحُكي أنَّ هرمَ بن حيَّان[1] . رحمه الله ، قال : كنتُ أسيرُ على شاطىء الدجلة ، فإذا أنا برجلٍ أقبلَ إليَّ ، وعليه سيما العارفين ، فسلَّمتُ عليه ، فقلت له : كيف حالُكَ وشأنك؟ فقال : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٨] يا هرم بن حيان ، اشتغلْ بما يَعنيك . فقلت : رحمكَ الله ، من أين عرفتَ اسمي ، واسم أبي ، وما رأيتُكَ قبل اليوم؟ فقال : أمَا عرفت أنَّ العارفين يَتعارفُ بعضُهم بعضاً بنورِ المعرفة؟ قال : فتعجَّبتُ من حُسن فصاحته ، وتحيَّرتُ من هيبته .

* وقال ذو النون رضي الله عنه : بينما أنا أسير فإذا أنا بقريةٍ ، والنَّاسُ يصيحون ، فدنوتُ ، فإذا أسودُ يَسخرون به ، فرفعَ رأسه إليَّ ، وقال : يا ذا النون ، اعرفْ قدرَ الله ، ولا تمنَّ على الله ، فإنَّ الحبيبَ لا يمنُّ على

---

(١) هرم بن حيان الأزدي قائد زاهد ، من كبار النساك ، من التابعين ، كان أمير عبد القيس في الفتوح ، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان بأرض فارس فتح مدينة بوشهر سنة ١٨ هـ . وكان من سكان البصرة . عدّه ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية ، من كبار التابعين . وسماه الجاحظ في النساك الزهاد من أهل البيان . مات في إحدى غزواته بعد سنة ٢٦ هـ . الأعلام .

الحبيب . فسألتُ عن حاله ، قيل : إنَّه مجنون ، لا يُجالس الناس ، ولا يأكلُ في أربعين يوماً إلاّ أكلةً واحدة . ثم نظرَ إلى السماء ، وقال : يا غايةَ همم العارفين ، إنْ عرفتُكَ فبمواهبك ، وإن شكرتُكَ فبعصمتك .

* وقال ذو النون أيضاً : بينما أنا أسيرُ على شاطىء النِّيل فإذا بجاريةٍ مُنطلقةٍ في النيل ، وقد اضطربتْ أمواجُه ، وتقول : إلهي ، ترى ما تفعلُ بي؟ فقلت : يا جارية ، أَتشكين منه ، وهو صاحبُ كلِّ برٍّ وفاجر؟! فقالت : يا ذا النون ، أنت الذي إذا شكرتَ شكرتَ منه ، وإذا سخطتَ سخطت عليه(١) . قلت : يا جارية ، من أين عرفت اسمي ، وما رأيتني؟ فقالت : عرفتُكَ بنور معرفة الجبار . فقلت لها : أَتجدين وحشةً للوحدة؟ قالت : لا والذي نوَّرَ قلبي بنورِ معرفته ، ما سكنَ قلبي قطُّ إلى غيره ، فإنه مُؤنسُ الأبرار في الخلوات ، وصاحبُ الغُرباء في الفلوات .

* وقال جدُّ والدتي العارفُ الواسطي رحمه الله : بينما أنا أمشي في البادية ، إذ أعرابيٌّ جالسٌ مُنفرداً ، فدنوتُ منه ، وسلَّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السلام ، وأبى أن أُكلِّمَهُ ، فقال : اشتغلْ بذكر الله ، فإنَّ ذكرَ الله شفاءُ القلوب . ثم قال : كيف يتفرَّغُ ابنُ آدم من ذكره وخدمته ، والموتُ في أثَره؟ واللهُ ناظرٌ إليه؟ ثم بكى ، وبكيتُ معه ، فقلتُ له : ما لي أَراكَ فريداً وحيداً؟ قال : ما أنا بوحيدٍ واللهُ معي ، وما أنا بفريدٍ والله مؤانسي . ثم قامَ ، ومضى مسرعاً ، وهو يقول : سيِّدي ، أكثرُ خلقك مَشغولون عنك بغيرك ، وأنت عوضٌ عن جميعِ ما فات ، يا صاحبَ كلِّ غريب ، ويا مُؤنسَ كلِّ وحيد ، ويا مأوى كلِّ فريد . وجعل يمرُّ ، وأنا أتبعه ، ثم أقبلَ إليَّ ، وقال : ارجع عافاك الله إلى من هو خيرٌ لك مني ، ولا تشغلني عمَّن هو خيرٌ لي منك . ثم غابَ عن بصري .

* وحُكي أنَّ عبد الواحد بن زيد قال : مررتُ براهبٍ ، فسألتُهُ : منذ

---

(١) أي : إذا سخطت من قضائه وقدره سخطت على الله جلّ وعزّ .

كم أنتَ في هذا المكان؟ فقال : منذ أربعِ وعشرين سنة . قلت : من أَنيسُكَ؟ قال : الفردُ الصمد . قلت : مِنَ المخلوقين ؟ قال : الوحش ، قلت : فما طعامُك؟ قال : ذكرُ الله . قلت : من المأكول؟ قال : ثمارُ هذه الأشجار ، ونباتُ الأرض . فقلتُ : أما تشتاقُ إلى أحدٍ؟ قال : نعم ، إلى حبيبِ قلوبِ العارفين . قلتُ : إلى المخلوقين؟ قال : من كان شوقُه إلى الله ، فكيف يشتاقُ إلى غيره؟ قلت : فلِمَ اعتزلتَ عن الخلق؟ قال : لأنَّهم سُرَّاقُ العقول ، وقطَّاعُ طريقِ الهُدى . قلت : ومتى يَعرفُ العبدُ طريقَ الهدى؟ قال : إذا هربَ إلى ربِّه من كلِّ ما سواه ، واشتغلَ بذكره عن كلِّ من سواه .

* قال هرم بن حيَّان : رأيتُ أُويس بن عامر[(١)] ، فسلَّمتُ عليه ، فقال : وعليك السلام يا هرم بن حيَّان . فقلت : كيفَ عرفت اسمي ، واسمَ أبي؟ قال : عرفتْ روحي روحَك بنور معرفة ربِّي . قلت : إنِّي أُحبُّك في الله . قال : ما أَظنُّ أنَّ أحداً يُحبُّ غيرَ الله ، فكيف يحبُّ غيرَ الله لله؟ قلتُ : أُريد الصُّحبةَ معك ، والأُنسَ بك . قال : ما ظننتُ عارفاً يَستوحشُ عن الله حتى يستأنسَ بغيره . قلت : أَوصني ، قال : أُوصيك بالله سبحانه ، فإنَّه عوضٌ عن كلِّ ما فاتك .

* وقال ذو النون المِصري : كنتُ أَسيرُ في بعض المفاوز ، فإذا أنا برجلٍ مُتَّزرٍ بحشيش ، مرتدٍ بحشيش ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السلام ، ثم قال : من أين الفتى؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين؟ قلت : أطلبُ الأُنسَ بالمولى . قال : اتركِ الدُّنيا والعقبى ، يَصحَّ لك الطلبُ . قلت : هذا كلامٌ صحيح ، صحِّحهُ لي . قال : أَتتَّهمنا فيما نقول؟ وقد أُعطينا

---

(١) أويس بن عامر القرني : خير التابعين وسيِّد العباد والأولياء ، أسلم زمن رسول الله ﷺ ، ولم يرَ الرسول ﷺ اشتغالاً بأمه . طلب كبارُ الصحابة منه الاستغفار له . اختلف في موته زماناً ومكاناً . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الكواكب الدرية ١/ ٢١٠ .

خيراً مما نقول ، وهو المعرفة . قلت : ما أتّهمك ، ولكني أُريد أن تَزيدني نوراً على نور . فقال : يا ذا النون ، انظر فوقك . فإذا السَّماءُ والأَرضُ كأنهما ذهبٌ يتوقَّدُ ، ويتلألأ ، قال : اغضضْ بصرك . فصارتا كما كانتا ، فقلتُ : كيف السَّبيلُ إلى هذا؟ قال : تفرَّدْ بالفرد إن كنتَ له عبداً .

* وقال محمد المَقدسي رحمه الله : دخلتُ دارَ المجانين يوماً بالشام ، فرأيت فيها شابًا على رقبته غِلٌّ ، وعلى رِجليه قيد ، مَشدودٌ بالسِّلسلة ، فلمَّا وقعَ بصرهُ عليَّ ، قال لي : يا محمد ، أترى ما فعلَ بي؟ وأشار بطرفه نحو السماء ، ثم قال : جعلتُكَ رسولاً إليه أن تقول له : لو جعلتَ السمواتِ غِلاً على عنقي ، والأَرضين قيداً على رجلي ، ما التفتُّ منكَ إلى غيرك طرفةَ عينٍ . ثم أنشأ يقول :

علـــى بُعْـــدِكَ لا يَصْبِــرُ مَـــنْ عـــادَتُـــهُ القُـــرْبُ
ولا يَقْـــوَى علـــى قَطْعِـــكَ مَـــنْ تَيَّمَـــهُ الحُـــبُّ
إذا لَـــمْ تَـــرَكَ العَيْـــنُ فَـــقَـــدْ أبْصَـــرَكَ القَلْـــبُ

* * *

الحديث السابع

حدثنا شيخنا المقرئ الإمام الصالح القاضي أبو الفضل علي الواسطي القرشي رضي الله عنه ، قال : قرأتُ أنا وسديدُ الدَّولة محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم بن عبد القاهر بن زيد بن رفاعة الشيباني ويُعرف بابن الأنباري على أبي عبد الله بن أحمد بن عمر الحافظ ، قلنا : أنبأك أبو الحسين أحمد بن محمد؟ فأقرَّ به ، قال : أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الله الدقّاق ، عن يَحيى بن محمد ، عن إسحاق بن شاهين ، عن خالد بن عبد الله ، عن سهل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله تَعَالَى عزَّ وجلَّ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثاً ، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثاً ، يرضى لَكُمْ أَنْ تَعبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا ، وأن تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ ، ويَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وقالَ ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وإِضَاعَةَ المالِ »[1] .

وفي هذا الحديث الشريف من رقائق أحكام المعرفة بالله ما يكفي العارف عن غيره ، فإنَّ الأسرار المطويَّة فيه ، هي سلَّمُ المُصطفين الأخيار إلى الله تعالى .

أيْ سادة ، إنَّ لله تعالى عباداً اصطفاهم لمعرفته ، وخصَّهم بمحبَّته ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥) في الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل في غير حاجة ، وأحمد في مسنده (٧٩٨٤ ، ٨٨٦١ ، ٨٤٤٤) ومالك في الموطأ (٨١٣٤ ، ٨٥٠١ ، ٨٥٨١) .

واختارهم لصحبته ، واجتباهم لمؤانسته ، وقرَّبهم لمُناجاته ، وحرَّضهم على ذكره ، وأنطقهم بحكمته ، وأذاقهم من كأس محبَّته ، وفضَّلهم على جميع خلقه ، حتى لم يُريدوا به بدلاً ، ولا سواه كفيلاً ، ولا دونه ناصراً ومعيناً ووكيلاً ، ولقد سَبقوا مَنْ دونهم سبقاً لا بكثرة الأعمال ، ولكن بصحَّة الإرادات ، وحسنِ اليقين ، مع دقائق الورع ، والانقطاعِ بالقلب إليه ، وتصفيةِ السرِّ عن كلِّ ما دون الحقِّ ، فأذاقهم اللهُ طعمَ لُباب معرفته ، وأنزلهم في حَظيرة قدسه ، لا يَصبرون عن ذكره ، ولا يَشبعون من برِّه ، ولا يستريحون لغيره .

فيا طوبى لهم ، هم الأقلّوُن عدداً ، والأَعظمون خطراً ، بهم يحفظ الله محبَّته ، حتى يؤدُّونها إلى نظرائهم .

فيا طوبى لهم ، هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون ، والمُستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون ، والمشتاقون إلى ما هرب عنه الساهون ، هم الذين نظروا بأعين القلوب ، إلى حُجُب الغيوب ، وجالتْ أرواحُهم في الملكوت ، فهمَّتُهم في سرِّهم ، وسرُّهم عند ربِّهم ، به يَستمعون ، وبه ينظرون ، وبه يُريدون ، وبه يتحرَّكون ، قلوبُهم بحبِّها مستأنسةٌ بأُنسها .

* قال أبو يزيد رحمه الله : الناس يصيحون من إبليس ، وهو يَصيحُ مني . قيل : كيف هذا؟ والمُصطفى عليه السلام كان مأموراً بالصِّياح منه . في قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون : ٩٧] قال : لأن الله تعالى أمره في هذه الآية بالاعتصام به ، وتفويض الأمرِ إليه ، وفرَّقٌ بين الصياح من إبليس ، وبين الاعتصام بالله ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

* قال ذو النُّون : للعارف نارٌ ونورٌ ، نارُ الخشية ، ونورُ المعرفة ، فظاهرُهُ مُحترقٌ بنار الخشية ، وباطنه منوَّرٌ بنور المعرفة ، فالدنيا تَبكي بعين الفناء عليه ، والآخرةُ تَضحك بسنّ البقاء إليه ، فكيف يقدرُ الشيطانُ

أن يدنو منه ظاهراً وباطناً إلاّ كالبرق الخاطف ، أو كالريح العاصف؟

فإنْ أتاه عارضٌ من قِبَل العين ، أحرقتْه نار العبرة ، وإنْ أتاه من قِبَلِ النفس ، أحرقتْه نارُ الخدمة ، وإنْ أتاه من قِبَل العقل ، أحرقتْه نارُ الفكرة ، وإن أتاه من قِبَل القلب ، أحرقتْه نارُ الشوق والمحبَّة ، وإن أتاه من قِبَل السرِّ ، أحرقتْه نارُ القُرب والمُشاهدة ، فتارةً يَحرقُ قلبه بنار الخشية ، وتارةً يتشفّى بنور المعرفة ، فإذا امتزجتْ نارُ الخشية ، ونور المعرفة هاجت ريحُ اللُّطف من سُرادقات الأُنس والقربة ، فيظهر صفاءُ الحقِّ للعبد ، فتراها تلاشت الأنانية ، وبقيت الأُلوهية كما هو في الأزل .

* قال أبو سليمان[1] : يُفتح للعارفِ وهو نائمٌ على فراشه ما لا يُفتح لغيره وهو في صلاته .

* قال أبو يزيد رحمه الله : أدنى مقامات العارف أنْ يمرَّ على الماء ، ويطيرَ في الهواء ، وأعلاها أن يمرَّ على الدَّارين من غير أن يلتفتَ إلى من سواه .

* قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : دَوران العارفِ مع محبوبه على أربعةِ أوجهٍ : سرورُ المعرفة : وهو مَمزوجٌ برؤية حُسن العناية ، وحلاوةُ الخدمة : وهو مَمزوجٌ بذكر المنَّةِ ، وأُنسُ الصُّحبة : وهو ممزوج بلذائذ القربة ، وخوفُ المُفارقة : وهو ممزوجٌ بتحقيق كمال القدرة .

* وقال ذو النون : العارفُ بين البِرِّ والذِّكر ، لا اللهُ يملُّ من برِّه ، ولا العارفُ يشبعُ من ذكره .

* سُئل بعضُهم عن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم : ٤٣-٤٤] ، فقال : أضحكَ العارفين بسرورِ معرفته ، ثم

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني ، أبو سليمان زاهد مشهور ، من كبار المتصوفين من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد ، وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الشام ، وتوفي في بلده (٢١٥ هـ) . الأعلام .

أبكاهم من خوف مفارقته ؛ وأماتَ من شاءَ بسيفِ قطيعته ، وأحيى من شاءَ بروحِ وصلته ، ليعلم الخلائقُ أنّه فعَّالٌ لما يُريد .

* وقِيل لعائشة رضي الله عنها : كيف يُحاسَبُ المؤمنون العارفون؟ فقالت : ليس مع العارفين حسابٌ ، ولكنْ معهم عتاب .

* ورُوي أنَّ سليمان عليه الصلاة والسلام نظرَ إلى مملكته يوماً ، فأمر اللهُ تعالى الرِّيح حتى كشفَ عورتَهُ ، فقال للرِّيح : ردَّ عليَّ ثوبي . فقال الرِّيحُ : ردَّ قلبك إلى مكانه .

فطوبى لأهل المعرفة ، عرَّفَهم أنفسَهم قبل أن يَعرفوه ، وأكرمَهم قبل أن يَعرفوا الكرامة ، أُولئك أقوامٌ أنفسُهُم روحانية ، وقلوبُهم سماوية ، وهمومُهم مرضية ، وصدورُهم جزعة ، وقلوبهم خائفة ، وأَعينهم دامعة ، عَقَلوا فعلموا ، ووجدوا فرحلوا ، وانفتح لهم نورُ القلب .

لله قـــومٌ مُصطَفـــونَ لنفسِـــهِ   اختـارَهُـمْ مـن سـالِـفِ الأَزمـانِ

اختارَهُمْ من قَبْلِ فطرةِ خلقِهِمْ   فيهـــم وَدائـــعُ حِكمـــةٍ وبيـــانِ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

* * *

الحديث الثامن

أخبرنا الشيخ الصالح الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان ، قال : أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد بن علي المالكي ، قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي ، قال : أنبأنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ، قال : أنبأنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزُّهري ، عن مالك ، عن ابن شهاب الزُّهري ، عن سالم ، عن أبيه أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ على رجلٍ وهو يعظُ أخاه في الحياء ، فقال رسول الله ﷺ :

« الحياءُ مِنَ الإيمانِ »[(١)] .

والحياءُ الذي يشملُ الوجهَ من الناس أُنمُوذَجٌ عن الحياء الذي يَشملُ القلبَ من الله تعالى ، والحياءُ الشاملُ للوجه وللقلب هو من الإيمان بالله ، وهو طورُ العارفين بالله سبحانه وتعالى ، الذين جعل قلوبَهم عَيْبَةَ[(٢)] أسراره .

وكذلك فإنَّ قلوبَ العارفين خزائنُ الله في أرضه ، وضعَ فيها ودائعَ سرِّه ، ولطائفَ حكمته ، ودقائقَ محبَّته ، وأَنوارَ علمه ، وأمانةَ معرفته ،

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٦٩ في الإيمان ، باب الحياء من الإيمان ، ومسلم (٣٦) في الإيمان ، باب عدد شعب الإيمان ، والموطأ ٢/ ٩٠٥ في حسن الخلق ، باب ما جاء في الحياء ، والترمذي (٢٦١٨) في الإيمان ، باب ما جاء أن الحياء من الإيمان ، وأبو داود (٤٧٩٥) في الأدب ، باب في الحياء ، والنسائي ٨/ ١٢١ في الإيمان ، باب الحياء ، وابن ماجه (٥٨) في المقدمة ، باب في الإيمان .

(٢) عَيْبَة الرجل : بطانته ، وأهل سره ، وأمانته . متن اللغة (عيب) .

فكلامُهم هو الكشف عمّا يُشاهدُه القلب ، وإظهارُ علوم السرّ ، وبيانُ معاملةِ الضمير ، من تميز الانفصالِ عن الاتّصال ، وبيان الأسباب الشاغلة عن الحقّ ، من الأسباب الداعية إلى الحقّ ، أما الدّاعي إلى الخلق فالدنيا ، والنفس ، والخلق ، وأمّا الدّاعي إلى الحقّ فالعقلُ ، واليقينُ ، والمعرفة .

كما ورد : « من عرفَ نفسَه عرفَ ربَّه »(١) ، يعني من عرفَ ما لنفسِهِ ، عرفَ ما لربِّه .

وكلامهم يدورُ على خمسةِ أوجهٍ : به ، وله ، ومنه ، وإليه ، وعليه ، وليس في كلامهم أنا ، وأنّي ، ونحن ، ولي ، وبي ، لأنَّ ألفاظهم فردانية ، وحركاتهم صمدانية ، وأخلاقَهم ربّانية ، وإراداتهم وحدانية ، لا يعرفُ إشارتهم إلاّ من له قلبٌ حريق ، فيه خزائنُ الأسرار ، وجواهرُ القدس ، وسُرادقاتُ الأنوار ، وبحارُ الوداد ، ومفاتيحُ الغيب ، وأَوديةُ الشوق ، ورياضُ الأُنس ، فكلّما أبرزَ العارفُ لسانَ الحكمة من ينبوع المعرفةِ بإشارات استأنسَ بها قلوبُ المُريدين والمشتاقين .

* قال يحيى بن مُعاذ : القلوبُ كالقُدورِ ، ومغارفُها الأَلسنُ ، فكلُّ لسانٍ يَغرفُ لك ما في قلبه .

* وقيل لأبي بكر الواسطي : ما تقولُ في كلام أهلِ المعرفة؟ فقال : إنَّ مثل المعرفة كمثل سراجٍ في قنديل ، والقنديلُ معلَّقٌ في بيت ، فما دامَ السِّراجُ في البيت ، يكونُ البيتُ مُضيئاً ، وربّما يُفتحُ البابُ فيقعُ ضوءُ

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفا ٢/٢٦٢ : قال ابن تيمية : موضوع ، وقال النووي قبله : ليس بثابت ، وقال أبو المظفر ابن السمعاني في « القواطع » : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يُحكى عن يحيى بن معاذ ـ يعني من قوله ـ وقال ابن الغرس : لكن كتب الصوفية مشحونة به ، يسوقونه مساق الحديث . وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سمّاه : « القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه » . ا.هـ وسينسبه المؤلف إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه صفحة ١٣٣ . وانظر الكلام عنه ص ٨٦ .

السِّراج خارجَ البيت ، ويضيء ، كلامُ أهلِ المعرفة يقعُ ضياؤه على قلوب أهل النور ، فتصيرُ أعينهُم دامعةً ، وألسنتهم ذاكرة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ . . . . ﴾ [المائدة : ٨٣] ، مثلُ نفسِ العارفِ كمثل البيت ، ومثلُ قلبه كمثل القنديل ، دهنُه من اليقين ، وماؤه من الصِّدقِ ، وفتيلهُ من الإخلاص ، والزُّجاجةُ من الصَّفاء والرِّضا ، وعلائقه من العقل .

فالخوفُ نارٌ في نور ، والرَّجاء نورٌ في نارٍ ، والمعرفة نورٌ في نورٍ .

فالقنديلُ معلَّقٌ بباب الكوَّة ، إذا فتح العارف فاه بالحكمة التي في قلبه ، هاجَ في كوَّةٍ فمه نورٌ من الأنوار التي في قلبه ، فيقع ضياؤه على قلوب أهل النور ، فيتعلَّقُ النُّورُ بالنور ، وإنَّ بعضَ القولِ أشدُّ ضوءاً من النهار ، وبعضُها أشدُّ ظُلمةً من الليل .

وكلامُ أهل المعرفة كنزٌ من كنوز الربِّ سُبحانه ، معادنُهُ قلوبُ أهلِ المعرفة ، أمرهم اللهُ تعالى بالإنفاق منه على أهله في قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ . . . . ﴾ [النحل : ١٢٥] .

* قيل لبعض العارفين : أيُّ شيءٍ أضوءُ من الشمس؟ قال : المعرفة ، قيل : أيُّ شيءٍ أنفعُ من الماء؟ قال : كلامُ أهل المعرفة ، قيل : وأيُّ شيءٍ أطيبُ من المِسكِ؟ قال : وقتُ العارف ، قيل : وما حرفة العارف؟ قال : النظرُ إلى صنع الربوبية ، وأعلام لطائف القدرة .

* قيل لأبي سعيد البلخي : لِمَ كانَ كلامُ السَّلف أنفعَ من كلام الخلف؟ قال : لأنَّ مُرادَهم كان عزّ الإسلام ، ونجاة النفوس ، والشفقة على الإخوان ، ورضا الرَّحمن ، ومُرادنا عزُّ النَّفس ، وثناءُ الناس ، وطلب التنعُّم في الدنيا .

فالعبد إذا أطاع ربَّه ، رزقه نهلةً من عين المعرفة ، وأنطقَ بها لسانه ، وإذا ترك طاعته لم يسلبها ، ولكن أبقاها في قلبه ، ولم ينطقْ بها لسانه ،

ليكون ذلك حسرةً عليه ، وابتلاءً بأنواعِ المحن .

وما من مؤمِنَيْنِ يلتقيان فيذكران الله إلاّ ويزيد اللهُ تعالى في قلوبهما نورَ المعرفة ، قبل أن يتفرَّقا .

إنَّ الله تعالى أطلعَ أهلَ المعرفة على تلاطم أمواج بحارِ خواطر القلوب ، وأشرفَهم على خزائن الأسرار ، وبواطنِ العلوم التي لا يُحصى عددُها ، ولا يَنقطع مَددُها ، ولا يُدرَكُ قعرُها ، ولا يفنى عجائبها ، حتى يغوصوا بنورِ المعرفة في قعرِ بواطن إشاراتها المكنونة ، في معانيها المخزونة ، فيستخرجوا عجائبَ فوائد ، ولطائفَ زوائد ، وحقائقَ إشارات ، يحترقُ منها قلوبُ المحبّين ، ويَستأنسُ بها أرواحُ المُريدين ، وهي نورٌ من أنوار الهداية ، يَهتدي به العبد إلى طريق حُسن الرِّعاية ، إذا أدركه من الحقِّ التوفيقُ والعناية .

* قال يحيى بن معاذ : لقيتُ الحكماءَ ، فوجدتُ أكثرَهم مفاليس ، يَفتحون من كيسِ غيرهم .

* وكان لليث[1] المصري أخٌ ، وكان بالإسكندرية ، فلمّا قدمَ إليه ، قال : إني كنت مُقبلاً على ربِّي ، قال : فأينَ فوائدُ إقبالك على ربِّك؟ فسكتَ ، فقال الليث : العبدُ إذا أقبلَ على الله بصدقِ الوفاء ، يمدُّه اللهُ بفوائد لم تخطرْ على قلبِ بشرٍ .

* وكان يحيى بن معاذ يتكلَّمُ ذاتَ يومٍ ، فصاح رجلٌ في مجلسه ، ومزَّقَ ثوبه ، فقيل له : ما تقولُ فيه؟ قال : كلامُ أهلِ المعرفة ، كلَّما نبعَ من عين سرِّ الوحدانية ، قرعَ قلبَ المُحترق بنيران الشوق والمحبَّة ،

---

(١) الليث بن سعد الفهمي ، أبو الحارث (٩٤ـ١٧٥ هـ) إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً . قال ابن تغري بردي : كان كبير الديار المصرية ، ورئيسها ، وأمير من بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته . أصله من خراسان ، ومولده في قلقشندة ، ووفاته في القاهرة . وكان من الكرماء الأجواد . قال الإمام الشافعي : الليث أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به . الأعلام .

فتلاشت عن صاحبه صفاتُ الإنسانية ، كلامُ المتَّقين بمنزلةِ الوحي .

* وجرتْ كلمةٌ على لسان بعضهم ، فقيل له : من حدَّثك بهذا؟ قال : حدَّثني قلبي ، عن فكري ، عن سرِّي ، عن ربِّي .

فإسنادُ الحكمة وجودُها ، وهي ضالَّةُ المُريد ، حيثُما وجدها أخذها ، فلا يُبالي من أيِّ وعاءٍ خرجت ، وبأيِّ لسانٍ نطقت ، ومن أيِّ قلبٍ نقلت ، أو على أيِّ حائطٍ كُتبت ، أو من أيِّ كافرٍ سُمعت .

وقد ورد : « من أرادَ أن يُؤتيه اللهُ علماً من غير تَعلُّمٍ ، وهدىً من غير هِداية ، فليزهدْ في الدنيا »[1] .

وإنَّ للحكمة أهلاً وزماناً ، وقد مضى زَمنُها ، والأَكثرونَ من أهلها ، وليس علينا إلاّ أثر المصيبة ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

اطلبوا مَصابيح كلامِ العارفين قَبْلَ وفاتهم ؛ نعمة اعرفوا شرفها ، وكمال فضلها ، وإنَّما اختارَ لقمانُ الحكمةَ لشرفها ، هي برهانُ الصدِّيقين ، ونزهةُ المتَّقين ، وفردوسُ العارفين ، وميراث النبيّين والمُرسلين ، فاطلبوها قبل ذهابها .

مَصَابيحُ الأَنامِ بِكُلِّ أَرْضٍ هُمُ العُلَمَاءُ أَبناءُ الكِرَامِ
تَلألأَ عِلْمُهُمْ في كُلِّ وَادٍ كَنُورِ البَدْرِ لاحَ بِلا غَمَامِ

* * *

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (تفسير سورة البقرة ، الآية ٢٨١) وقال : أخرجه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي عن الحسن . قال العجلوني في كشف الخفا : قال القاري : لم يوجد له أصل كما في المختصر ، ومعناه صحيح مستفادٌ من قوله ﷺ : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » .

الحديث التاسع

أخبرنا العبد الصالح الثِّقة أبو غالب عبد الله بن منصور بجامع واسط ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين السُّلمي ، قال : أنبأنا أبو الحسن بن أبي الفتح الضرير العثماني ، قال : أنبأنا عمر بن محمد المقرىء ، قال : أنبأنا عبد الرحمن بن أحمد بن الحجّاج ، قال : أنبأنا أحمد بن محمد بن أبي الرجاء ، قال : أنبأنا وكيع بن الجرَّاح ، قال : حدَّثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« يُؤتى بالرَّجلِ يوم القيَامةِ فيُقالُ : اعْرضوا عَليهِ صِغارَ ذنُوبه ، ويُخفى عنهُ كِبارُها ؛ فيُقالُ لهُ : عمِلتَ كذا وكذا ، وعمِلتَ يومَ كذا كذا وكذا ، قالَ : وهو مُقرٌّ ، ليسَ يُنكرُ ؛ قال : وهو مُشفقٌ من الكبارِ أنْ يُجاءَ بها ؛ فإذا أرادَ اللهُ بهِ خيراً ؛ قال : أعطوهُ مَكانَ كُلِّ سيِّئةٍ حسنةً ؛ فيقولُ حينَ طمعَ : إنَّ لي ذُنوباً ما رأيتها ها هُنا » قال : فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضَحِكَ حتى بدتْ نواجذُه ، ثمَّ تلا : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾[1] [الفرقان : ٧٠] .

---

(١) رواه مسلم رقم ١٩٠ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم (٢٥٩٩) في صفة جهنم ، باب رقم ١٠ . ولفظه :

« إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه =

وهذا الإشفاق هو شيءٌ من أسرار اليقين بالله ، وحالٌ من سلطانه ، يفرغُهُ في قلوب أهل المعرفة به ، ولهذا الحديث الشريف شأنٌ جليل يُنبي عن كرمٍ إلهي فوق تعبير اللسان ، يَعرفه العارفون ، ويزلق به الغافلون ، ويزداد خوفاً من الله به الموفقون .

أي سادة ، من أراد أن يتكلَّمَ بلسان أهل المعرفة ، فينبغي أن يحفظَ أدب كلامه ، فلا يكشفُ دقائقه إلا عند أهله ، وأن لا يُحمِّل المُرِيد فوق طاقته ، ولا يمنعُ كلامَه من كان من أهله ، ويكون كلامُه مع أهل المعرفة بلسان أهل المعرفة ، ومع أهل الصفا بلسان الصفا ، ومع أهل المحبَّةِ بلسان المحبة ، ومع أهل الزُّهد بلسانهم ، ومع كلٍّ صنفٍ على قدر مراتبهم ومنازلهم ، وقَدْر عقولهم ، فإن الله تعالى جعلَ للعارف هذه الألسن .

نعم ، كلُّها تتلاشى عند ظهور سُلطان الحقِّ ، وينبغي ألاّ يُحدِّثَ بحديثٍ لا يبلغ عقلَ المستمع إليه ، فيكون ذلك فتنةً ؛ فإنَّ أكثرَ الناس جاهلون ، اشتغلوا بعلوم الظواهر ، وتركوا علمَ تصحيح الضمائر ، فلا يحتملون دقائقَ كلام العارفين ، لأنَّ كلماتهم لاهوتية ، وإشاراتهم قدسية ، وعباراتهم أزلية ، فلذلك ينبغي للمُستمع أن يكون معه السِّراجُ الأزلي ، والنُّور الدَّيمومي .

ويُقالُ : لسان الحال أفصحُ من لسان المقال ، فمن رَضي بالحالِ دون وليِّ الحالِ صار مَخذولاً عن الحال ، ومَحجوباً عن ذي الجلال ، وأيُّ دهشةٍ أشدُّ من دهشة العارفِ! إنْ تكلَّمَ عن حاله هلك ، وإنْ سكتَ احترق ، فمن وردَ قلبُه الحضرةَ كَلَّ لسانُهُ ، ومن غابَ قلبُه عن الحضرة كَثُرَ كلامُه .

= أن تعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب ، قد عملت أشياء لا أراها ها هنا » ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

* قال ذو النون رحمه الله : ما رأيتُ مُحدّثاً في قومٍ يُحدّثهم بغفلةٍ إلاّ كان ذلك قسوة .

* وقال بعضهم : سكوتُ العارف حكمةٌ ، وكلامُه نعمة .

* ويقال : ليس على تحقيقٍ في المعرفة مَنْ يُحدِّثُ بحديثِ المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف أبناء الدنيا؟ ما تكلّمتُ مع أحدٍ من الناس ، إلاّ ودعوتُهُ إلى الله ، ثم كلَّمتُهُ .

من لم يكن له حلاوةُ المعرفة ، ورؤيةُ المِنَّة ، وشكرُ النعمة ، ولذائذ القربة ، وخوفُ المُفارقة ، وأُنس الصُّحبة ، وإخلاصُ العبادة ، وسرور الهداية ، فليس له أنْ يتكلَّمَ بكلامِ أهل المعرفة ، وإنْ تكلَّمَ فلا يحملُ فوق الطاقة ، ولا يمنعُ أهلَ الحاجة ، ولا يُضيّع أهل الغفلة .

* وحُكي أنَّ رجلاً جاء إلى عارفٍ ، قال : حدّثني ، فقال : إن مثلي معك كرجلٍ وقع في القاذورات ، فذهبَ إلى العطار ، وقال : أين الطِّيبُ؟ فقال العطار : اذهب اشترِ الأُشنان ، واغسل نفسَك ولباسك ، ثم تعالَ فتطيَّبْ ، وكذلك أنت ، لطَّختَ نفسَك بأنجاس الذنوب ، فخذ أُشنانَ الحسرة ، وطينَ النَّدامة ، وماءَ التوبة والإنابة ، وطهّرْ ظواهرك في إجّانة الخوف والرجاء ، من أنجاس الجرم والجفاء ، ثم اذهب إلى حمام الزُّهد والتقى ، واغسل نفسَك بماءِ الصدق والصفا ، ثم ائتني حتى أُطيِّبَكَ بعطر معرفتي .

* قال بعض الناس لعارفٍ : إني لا أعرفُ كلامَكم ، قال : كلامُ الأخرس لا يَعرفه إلاّ أمُّه .

* ومن كلام عيسى عليه الصلاة والسلام : يا صاحبَ الحكمة ، كنْ كالطبيب الناصحِ ، يضعُ الدَّواءَ حيث ينفعُ ، ويمنع الدَّواءَ حيث يضرُّ ، لا تضعِ الحكمةَ في غير أهلها فتكون جاهلاً ، ولا تمنعْها من أهلها فتكون ظالماً ، ولا تكشفْ سرَّكَ عند كلِّ أحدٍ ، فتصير مُفتضحاً .

* وقال ذو النون رحمه الله : رأيت رجلاً أسودَ يَطوفُ حول البيت ، ويقول : أنت ، أنت ، أنت ، ولا يزيدُ على ذلك اللفظ شيئاً ، فقلت : يا عبد الله ، أَيُّ شيءٍ عنيت به؟ فأنشأ يقول :

بَيْنَ المُحبِّينَ سِرٌّ ليسَ يُفْشِيهِ   خَطٌّ ولا قَلَمٌ عنهُ فيَحْكيهِ
نارٌ تُقَابِلُهُ أُنسٌ يُمازِجُهُ   نورٌ يُخَبِّرُهُ عن بَعضِ ما فيهِ
شَوقِي إليهِ ولا أبغي لهُ بَدَلاً   هذي سَرائِرُ كِتمانٍ تُناجِيهِ

* * *

الحديث العاشر

أخبرنا الشيخ أبو طالب محمد بن علي ، عن أبي القاسم علي بن أحمد الرَّزاز ، قال : أنبأنا أبو الحسين محمد بن مخلد في سنة ثماني عشرة وأربع مئة ، قال : أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفَّار ، قال : أنبأنا الحسنُ بن عرفة العبدي ، قال : أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم ، عن سُليمان بن المُغيرة ، عن ثابت البُناني ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« آتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بَابَ الجنَّةِ ، فأَسْتَفْتِحُ ، فَيَقُولُ الخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ ، فيقول : بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ »[1] .

وقد علم أَهلُ العلم بالله أنَّ الجنَّةَ ـ التي هي بابُ الخير الإلهي الأَبدي ـ لا تُفتحُ إلاّ بفتح محمد ﷺ لها ، فهو الفاتحُ لكلِّ خيرٍ دنيوي وأُخروي ، والعلمُ بشأنه هو سرُّ العلم بالله تعالى ، فمن أرادَ أن يُفتحَ له أبوابُ الخير الدنيوي والأُخروي فعليه أنْ يتعلَّقَ بأذياله ، فإنَّ في نفحاتها علم المعرفة .

أَيْ سادة ، علم المعرفة ، هو العلمُ بالله تعالى ، وهو نورٌ من أَنوارِ ذي الجلال ، وخصلةٌ من أَشرفِ الخصال ، أكرم الله به قلوبَ العقلاء ، فزيَّنها بحسن جماله ، وعظيم شأنه ، وخصَّ به أهلَ ولايته ، ومحبَّته ، وفضَّله على سائر العلوم ، وأَكثرُ الناس عن شرفه غافلون ، وبلطائفه

---

(١) رواه مسلم ١/ ١٨٨ (١٩٧) في الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة .

جاهلون ، وعن عظيمِ خَطَرِه ساهون ، وعن غوامضِ معانيه لاهون ، فلا يدركُهُ إلاّ أربابُ القلوب الموفَّقون .

وهذا العلم أساسٌ بنيت عليه سائر العلوم ، به يُنال خيرُ الدَّارَينِ ، وعزُّ المنزلين ، وبه يَعرف العبدُ عيوبَ نفسه ، ومننَ ربِّه ، وجلالَ ربوبيته ، وكمالَ قدرته ، به يطيرُ سرُّ العبد بجناح المعرفة في سُرادقات لطائف القدرة ، ويجولُ حول مُنتهى العزَّة ، ويَرتعُ في روضات القدس ، فلا تتمُّ العلومُ كلُّها دون امتزاج شيءٍ منه بها ، ولا تَفسدُ الأعمالُ إلاّ بفقده ، ولم تَسكنْ إليه إلاّ قلوبٌ نظرَ الله إليها بالرأفة والرحمة ، وأَمطر عليها أَمطارَ الفَهم والبلاغة ، وطيَّبَها برياحين اليقين والفطنة ، وجعلها موضعَ العقلِ والفِراسة ، وطهَّرَها من أدناسِ الجهالة والغفلة ، ونوَّرَها بمصابيح العلم والحكمة .

قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وكلُّ عارفٍ يخشى الله تعالى ويتَّقيهْ على مِقدار علمه بالله عزَّ وجلَّ ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

بنوره يَعرفُ وساوس الشيطان الدافعة إلى المعاصي والزّلات ، ويحذَرُ به آفات الإرادات ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

* وفي الخبر : إنَّ من العلم كهيئة المَكنون المخزون ، لا يَعرفُها إلاّ أهلُ العلم بالله ، ولا ينكرها إلاّ أهلُ الغِرَّة .

* وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ ، فقال : أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال : « العلم بالله » .

* ورُويَ أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا ربُّ ، أَيُّ العباد أَكثرُ حسنةً ، وأَرفعُ درجةً عندك؟ قال : أعلمهم بي .

* وقال الإمام الجليل سيِّدُنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكرَّمَ اللهُ وجهه : أعلمُ النَّاسِ بالله أشَدُّهم تعظيماً لحرمة لا إله إلا الله .

* قال أبو الدرداء[1] رضي الله عنه : من ازدادَ بالله علماً ازدادَ وجلاً .

* ورُوي : أنَّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أنْ يا داود ، تَعلَّمِ العلمَ النافع ، قال : إلهي ، وما العلمُ النافع؟ قال : أن تعرفَ جلالي ، وعظمتي ، وكبريائي ، وكمال قدرتي على كلِّ شيءٍ ، فإنَّ هذا الذي يقرِّبكَ إليَّ ، وإني لا أعذرُ بالجهالة من لقيني .

* وقيل لمحمد بن الفضل السمرقندي[2] : ما العلمُ بالله؟ قال : أن ترى قضاءَهُ في الخلق مبرماً ، والضرَّ والنَّفع والعزَّ والذُّلَّ منه ، وترى نفسك لله ، والأشياءَ كلَّها في قبضته ، وألاّ تختارَ لنفسك غيرَ اختياره ، وتعملَ لله خالصاً .

يا بُني ، اجتهد في تعلُّمِ علمِ السرِّ ، فإنَّ بركته كثيرةٌ ، أكثرُ مما تظنُّ .

يا بُني ، من تعلَّم علمَ العلانية دون علمِ السرِّ هلك ، وهو لا يشعرُ .

يا بُني ، إن أردتَ أن يُكرمَكَ اللهُ بعلمِ السرِّ فعليك ببغضِ الدُّنيا ، واعرف حُرمةَ الصالحين ، واحكم أمركَ للموت ، قال الله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] ، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء : ١١٣] ، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] ، إلاّ أنَّه قال في موضعٍ آخرَ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، فرُبَّ رجلٍ كثير

---

(١) عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي ، أبو الدرداء : صحابي ، من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ، ثم انقطع للعبادة ، ولمّا ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك ، وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب ، وهو أول قاضٍ بها . وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النَّبي ﷺ . مات سنة (٣٢ هـ) . الأعلام .

(٢) محمد بن الفضل بن العباس ، أبو عبد الله البلخي : صوفي شهير ، من أجلّة مشايخ خراسان أخرج منْ بلخ فدخل سمرقند ، ومات بها سنة (٣١٩ هـ) . الأعلام .

الرِّوايات جاهلٌ بالله ، إنَّ علمَ المعرفةِ فضلٌ من الله ، يُؤتيه من اصطفاه من خلقه ، واجتباه لصحبته .

* جاء في الخبر : العلمُ علمان ، علمٌ باللِّسان ، وهو حجَّةُ الله على العباد ، وعلمُ القلب ، وهو العلمُ الأعلى ، لا يخشى العبدُ من الله إلاّ به .

* وقال ﷺ : « أَشدُّكم لله خشيةً أَعلمُكم بالله »[1] .

* وقال سفيان الثوري[2] . رحمه الله : العلماء ثلاثةٌ :

١ـ عالمٌ بأمر الله ، غيرُ عالمٍ بالله ، فذلك العالمُ الفاجر الذي لا يَصلحُ إلاّ للنَّار .

٢ـ وعالمٌ بالله ، غيرُ عالمٍ بأمره ، فذلك ناقصٌ .

٣ـ وعالمٌ بالله ، وبأمره به ، فهو العالمُ الكامل .

* قيل لبعض العارفين : ما سبيلُ معرفةِ الله؟ قال : ليس يُعرفُ بالأشياء ، بل تُعرفُ الأشياءُ به ، كما قال ذو النُّون : عرفتُ اللهَ باللهِ ، وعرفتُ ما دون الله بنورِ الله .

* وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إلهي ، لولا أنتَ كيف كنتُ أعرفُ من أنتَ ؟!

* ومثله عن رابعةَ العدوية ، قالت لذي النُّون : كيف عرفتَ الله؟ قال : رزقني الحياءَ ، وكساني المُراقبةَ ، فكلَّما هممتُ بمعصيةٍ ذكرتُ جلالَ الله فاستحييتُ منه .

---

(١) رواه الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ١/ ٤٢٢ .

(٢) سفيان بن سعيد الثوري ، من بني ثور من مضر أبو عبد الله (٩٧ـ١٦١ هـ) أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم ، فأبى ، وخرج من الكوفة سنة (١٤٤) فسكن مكة والمدينة ، ثم طلبه المهدي فتوارى ، وانتقل إلى البصرة ، فمات بها مستخفياً . وكان آية في الحفظ . الأعلام .

* مثل المعرفة كشجرةٍ لها ستَّةُ أغصانٍ ، أصلُها ثابتٌ في أرض اليقين والتصديق ، وفَرعُها قائمٌ بالإيمان والتوحيد :

فأولُ أغصانها : الخوفُ والرجاءُ مقرونان بغصنِ الفكرة .

والثاني : الصدقُ والوفاء مَقرونان بغصنِ الإخلاص .

والثالث : الخشية والبكاء مقرونان بغصنِ التَّقوى .

والرابع : القناعةُ والرِّضا مقرونان بغصنِ التوكّل .

والخامس : التَّعظيم والحياء مقرونان بغصنِ السَّكينة .

والسادسُ : الاستقامة والوفاء مقرونان بغصنِ الودِّ والمحبَّة .

ويتشَّعبُ من كلِّ غصنٍ مالا نهايةَ له في العددِ من أنواعِ الخير ، والصِّدقِ في المعاملة ، وأُنسِ الصحبة ، وفرائدِ القربة ، وصفاءِ الوقت ، وغيرِ ذلك ممَّا لا يصفه الواصفون .

وعلى كلِّ شعبةٍ من ثمارٍ شتّى ، لا يُشبهُ لونُ أَحدِها الآخرَ ، ولا طعمها ، تحتها أنوارُ التوفيق جاريةٌ من ينبوع الفضل والعناية ، والنَّاسُ في ذلك على تفاوتِ الدرجات ، وتباينِ الحالات :

فمنهم : من أَخذ بفرعها غافلٌ عن أَصلها ، محرومٌ من أغصانها ، مَحجوبٌ عن حلاوةِ ثمارها .

ومنهم : من تمسَّكَ بفروعها .

ومنهم : من أَخذ بأصلها .

ومنهم : من أخذها كلَّها ، من غير أن يلتفتَ إلى كلِّها ، لانفراده بوليِّه خالِقها ، ومن لم يكن له نورٌ من سراجِ التوفيق ، ولو جمع الكتبَ والأخبار والأحاديثَ كلَّها لا يَزدادُ إلاّ بُعداً ونفوراً ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة : ٥] .

* يقال : إن رجلاً جاء إلى الإمام عليٍّ رضي الله عنه ، فقال : علّمني من غرائب العلم . قال : ما فعلتَ في رأسِ العلم؟ قال : وما رأسُ العلم؟ قال : أَعرفتَ ربّكَ؟ قال : نعم . قال : ما فعلتَ في حقِّه؟ قال : ما شاءَ الله . قال : انطلق فأحكمْ هذا ، فإذا أحكمْتَهُ فأْتني أُعلّمْكَ غرائبَ العلم .

قيل : الفرق بين علمِ المعرفة وغيرِها كالفرقِ بين الحيِّ والميت .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث الحادي عشر

أَخبرنا شيخُنا الإمام المُقرِئُ الجليل الشيخ أبو الفضل علي الواسطي قدَّس الله روحه ، قال : أنبأنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد الواعظ ، قال : أنبأنا أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن الجُمحي ، قال : أنبأنا علي بن عبد العزيز ، عن ابنِ المُبارك ، عن حرملة بن عمران ، عن يزيدَ بن أبي حبيب ، عن أبي الخير ، عن عُقبة بن عامر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« المرءُ في ظلِّ صَدقَتهِ حتى يُقضى بين النَّاسِ » . أو قال : « يُحكمَ بينَ الناسِ »[1] .

هذا لكونه تركَ شيئاً قليلاً ممّا تُحبُّه نفسُه لربِّه ، فكيف إذا خرجَ عن نفسه بالكُلّيَّةِ؟

* رُوي : أنَّ اللهَ تبارك وتعالى أَوحى إلى داود عليه السلام : بشِّرِ المُذنبين بأنّي غفورٌ ، وأَنذرِ الصدِّيقين بأني غَيور .

* وروي أنَّ يوسف عليه الصلاة والسلام : لمّا أُلقي في الجُبِّ ، كان يقول : من لعبَ في خدمة مَولاه ، فغَيابةُ الجُبِّ مأواه .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٤٧ ، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨١ ، وأبو يعلى في مسنده ٣/ ٣٠٠ (١٧٦٦) وصححه الحاكم ١/ ٤١٦ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وتتمة الحديث :

قال يزيد بن أبي حبيب : فكان أبو الخير لا يخطئُه يومٌ لا يتصدَّقُ فيه بشيءٍ ولو بكعكةٍ ، ولو ببصلة .

وهنا كلمات من طرائف مُختصرات القوم ، تُنشّطُ بها هِممُ الموفَّقين ، يقول قائلُهم رضي الله عنهم :

حقٌّ لمن عرفَ المولى ، ألاّ يشكو من البَلوى .

إذا لم يعرفِ العبدُ المولى ، فكلُّ لسانٍ له دعوى .

ليسَ للعارفِ دعوى ، ولا للمُحبِّ شكوى .

إذا سبقتْ من الرَّبِّ العناية ، هُزمت من العبد الجِناية .

إذا سبقت العناية وجبتِ الولاية .

بالعناية تحصلُ الولاية ، والولاية تهدمُ الجناية .

ليس الشأنُ في الولاية ، لكن الشأنَ في العناية .

لم يدركِ الولاية من فاتته العناية .

المُصرُّ من أسرَّ السرَّ .

طَرَحَ الخلقَ وجودُ الحقِّ .

اطرح الدَّعوى تجدِ المعنى .

من كان له باطنٌ صحيح ، فجميعُ كلامه مليح .

لا تغترَّ بصفاء الأوقات ؛ فإنَّ تحتها فنونَ الآفات .

لا تغترَّ بصفاء العبودية ؛ فإنَّ فيها نسيانَ الربوبية .

خلِّ الدارين للطالبين ، واستأنسْ بربِّ العالمين .

استهدِ بالله فنعم الدليل ، وتوكَّلْ عليه فنعمَ الوكيل .

ما دام قلبُ العبد بغيرِ الله مُعلَّقاً ، كان بابُ الصفاء عنه مُغلقاً .

الأُنس بالله نورٌ ساطع ، والأُنس بالمخلوق همٌّ واقع .

معدنُ الأسرار قلوبُ الأبرار .

قلوبُ الأبرار حصون الأسرار .

القلبُ إذا ابتُلي بالمربوب ؛ عُزل عن ولاية المَحبوب .

خيرُ الرزق ما يكفي ، وخيرُ الذِّكرِ الخفي .

توكَّل تُكْفَ ، وسلْ تُعطَ .

ليس باللبيب من اختارَ على الحبيب .

بقدر ما تتعنّى تنال ما تتمنّى .

العبد إذا سخطَ عليه مولاه ، سخطَ عليه ما سِواه ، وإذا رضي عنه مولاه ، رضي عنه ما سواه .

عذرُ الحبيب عند الحبيب مَبرور ، وذنبُ الحبيب عند الحبيب مَغفور .

من أرادَ المولى ، فليتهيَّأ للبلوى .

هوِّن الدُّنيا وما فيها عليكَ واجعَلِ الحُزْنَ لما بينَ يديكَ

الموتُ جسرٌ مَهيب ، يُوصلُ الحبيبَ إلى الحبيب .

ينبغي أن يكونَ العبدُ مشغولاً بما يكون غداً عنه مسؤولاً .

اجعل التُّقى جليسَكَ ، والدُّعاءَ أنيسَكَ .

ألا كلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ[1]

الحبُّ يُحْرِق ، والشوقُ يُقلق .

هذا سرورُ الخبر ، فكيف سُرور النظر؟

كلُّ نعمةٍ دون الجنَّة فانية ، وكلُّ بلاءٍ دون النار عافية .

التوبةُ تطهرُ الحوبة[2] .

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة . انظر ديوانه صفحة ٢٥٦ ، وهو من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر . قال رسول الله ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد : ألا كل . . . . » .

(٢) الحوبة : الإثم . النهاية في غريب الحديث (حوب) .

الاعترافُ يهدمُ الاقتراف .

هب أنَّ الله قد عفا عن المُسيئين ، أليس قد فاتهم ثوابُ المحسنين؟

أعدَّ للسؤال جواباً ، وللجوابِ صواباً .

اطلب ما يُغنيك بتركِ ما لا يعنيك .

الرزق مقسوم ، والحَريصُ مَحروم .

العبدُ حرٌّ إذا قَنِع والحرُّ عبدٌ إذا طَمِع[1]

أخرجِ الطمعَ من قلبك ، تحلَّ القيدَ من رجلك .

قَدِّمْ إلى الحشرِ زادك ؛ فإنَّ إلى الله معادك .

الدُّنيا دنيَّةٌ ، وحبُّها خطيَّة .

الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة .

الدُّنيا كلُّها غرور ، والعُقبى كلُّها سرور .

الدنيا مَعْدَنُ الخطا ، والعُقبى معدنُ العطا .

الدنيا معدنُ الجفا ، والعُقبى مَعْدَنُ الوفا .

أساسُ التقوى تركُ الدُّنيا .

أخوفُ الناس آمنُهم .

ما أغفلك عمَّا خُلقتَ له! وما أعجزَكَ عمَّا أُمرت له!

منعَكَ طولُ الأمل عن ذكرِ الأجل .

لا تعصِ مولاكَ بطاعةِ هواك .

رأسُ الوفا تركُ الجفا .

إن أردتَ المَكارم ، فاجتنبِ المَحارم .

---

(١) البيت لبُنان الحمال . الكواكب الدرية ٢/ ٦١ .

قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يُطغيك .

المؤمنُ كثيرُ الفِعال ، قليلُ المقال ، والمُنافقُ قليلُ الفِعال ، كثيرُ المقال .

اتَّقِ الله إذا خلوت ، يَستجبْ لك إذا دعوت .

غَضبُ الله أشدُّ من ناره ، ورِضوانه أكبرُ من جنَّته .

دع التَّدبيرَ إلى الملك الخبير .

طلبُ الحلال ، أشدُّ من نقلِ الجبال .

كلُّ همٍّ وذكرٍ لغير الله ، فهو حِجابٌ بينك وبين الله .

لا تقعُ المؤانسةُ بين العبد وبين ربِّه ، حتى تقعَ الوحشة بينه وبين خَلقه .

لا يَصلُ العبدُ إلى الحقِّ ، حتى يعتزلَ عن صحبة الخلق .

حسبي من سُؤالي علمُه بحالي .

كـلُّ مَحبـوبٍ سـوى الله سَـرَفْ وعنـــاءٌ وبـــلاءٌ وتَلَـــفْ
وهُمـــومٌ وغُمـــومٌ وأَسَـــفْ ما خلا الرَّحمن ما عنهُ خلفْ

« ما رأيتُ مثل الجنَّةِ نامَ طالبُها ، ولا مثلَ النَّارِ نامَ هاربُها »[1] .

دُرْتُ حـــولَ المَشـــرِقَيْـــنِ ثـــمَّ دُرْتُ المَغـــرِبَيْـــنِ
فَـــوَجَـــدْتُ الأَمْـــرَ كُـــلاًّ لِمَليـــكِ الثَّقَلَيْـــنِ
حُبُّـــهُ مُنْيَـــةُ قلبـــي ذِكْـــرُهُ قُـــرَّةُ عَيْـــنِ

* * *

(1) أخرجه الترمذي (٢٦٠٤) في صفة جهنم ، باب رقم (١٠) عن أبي هريرة ، وإسناده ضعيف وقد أورده السيوطي في الجامع الصغير من رواية الطبراني في الأوسط عن أنس قال المناوي : قال الهيثمي : إسناد الطبراني هذا حسن .

الحديث الثاني عشر

أخبرنا الشيخ الجليل المقرىء العارف بالله خالي أبو بكر الأنصاري الواسطي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحُميدي ، قال : أنبأنا أبو القاسم منصور بن النعيمي ، قال : أنبأنا أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي ، قال : أنبأنا أبو يعلى حمزةُ بن عبد العزيز المهلَّبي ، قال : أنبأنا أبو حامد أحمد بن محمد بن بلال البزَّاز ، قال : أنبأنا عبد الرحمن بن بِشر بن الحكم ، قال : أنبأنا سُفيان بن عُيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن أبي قابوس ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ ، ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ »[1] .

هذا الحديث الشريف فيه من أسرارِ العلم بالله العجائب ، أمرَ به المصطفى ﷺ بالرَّحمة لمن في الأرض من المخلوقين ، لتحصل بذلك الرَّحمةُ للعبدِ من كلِّ مَنْ في السماء من العُلْويين ، فإنَّ السماء طريقُ تنزُّلِ الرَّحمات الربانية ، ومحلُّ أُنبوب الإفاضات الرحموتية ، ومقرُّ الملائكة الذين جعلهم الله وسائطَ أسراره بينه وبين خلقه ، فإذا أَلقى الرَّحمةَ في سرِّ مَلَكِ الرِّزق طابَ الرِّزق ، وإذا ألقاها في سرِّ كاتب الأعمال أنساه

(١) رواه الترمذي (١٩٢٥) في البر والصلة ، باب في رحمة الناس ، وأبو داود (٤٩٤١) في الأدب ، باب في الرحمة ، وهو حديث صحيح بشواهده . وانظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ .

السيئات ، وإذا ألقاها في سرِّ الرقيب أعانَ ورفق .

والرَّحمةُ حالُ العارف ، ومعراجُ قلبه إلى ربِّه ، وإنَّ عبادَ الله العارفين مظاهرُ لرحمةِ ربِّ العالمين في المخلوقين ، وهو سبحانه أرحمُ الراحمين .

أَيْ بُني ، إذا تحققتَ بالرَّحمةِ للمخلوقين رُحمت ، وإذا جالستَ العارفين نجحتَ ، وإذا سألتَ الحكماء الرَّبانيين تعلَّمتَ .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ لكلِّ شيءٍ مفتاحاً ، ومفتاحُ العلمِ السؤال ، فإنْ قدرَ المريدُ على أن يُجالس أهلَ المعرفة ، فيقتبسُ من علمهم ، وتحقيقِ رمزهم ، ولطائف إشاراتهم ، فبخٍ بخٍ ؛ فإنَّ شرفَ العلماء الربانيين أكبرُ من أن يُدركه أحدٌ غير الله ؛ لأنهم أحباءُ الله ، وأُمناءُ سرِّه ، فليغتنم حرمتَهم ، وليحرِّكْ خواطرهم بحسن السُّؤال ، فإنَّ أمواجَ خواطر العارفين لا تفنى عجائبُها ، وكفى بالمرءِ جهلاً إمساكهُ عن التعلم ، واستكفاؤه بما عنده ، وقد قال الله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣] .

وقال النبي ﷺ : « جالسوا الكبراء ، واسألوا العلماء »(١) .

* قال ذو النُّون : وُصِفَ لي رجلٌ بالمغرب ، فارتحلتُ إليه ، فوقفت عنده أربعين صباحاً ، فلم أجدْ وقتاً أَقتبسُ به من علمه شيئاً ؛ لكمال شغله بربِّه ، ولم أتركِ الحرمة ، فيوماً من الأيام نظرَ إليَّ ، فقال : من أين المُرتحل؟ فأخبرته ببعض حالي ، قال : لأيِّ شيءٍ جئتَ؟ قلتُ : لأقتبسَ من علمك ، قال : اتق الله ، واستعنْ به ، وتوكَّل عليه ؛ فإنَّه وليٌّ

---

(١) رواه الطبراني ، والعسكري عن أبي جعفر مرفوعاً . ورُوي عن أبي جحفة موقوفاً ، بلفظ : جالس الكبراء ، وخالط العلماء ، وخاللِ الحكماء ، ورواه في الجامع الصغير للطبراني عن أبي جحفة بلفظ : جالسوا الكبراء ، وسائلوا العلماء ، وخالطوا الحكماء . انظر كشف الخفا ١/ ٣٩٣ (١٠٥٩) .

حميد ، وسكت ، فقلت : زدني رحمك الله ؛ فإني رجلٌ غريب ، جئتك من بلدٍ بعيد ، لأسألكَ عن أشياءَ اختلجتْ في ضميري ، فقال : أمتعلِّمٌ ، أم عالمٌ ، أم مُناظر؟ فقلت : بل مُتعلِّمٌ مُحتاج ، قال : قف في درجة المتعلّمين ، واحفظِ الأدبَ ، ولا تتعدَّ ؛ فإنَّك إنْ تعدَّيت فسدَ عليك النَّفعُ ، العقلاءُ من العلماء ، والعارفون من الأصفياء ، الذين سلكوا سبيلَ الصدق ، وقطعوا أودية الحزن ، ذهبوا بخير الدَّارين . فقلت : رحمك الله ، متى يبلغُ العبدُ إلى ما وصفت؟ قال : إذا كان خارجاً من الأسباب . قلت : ومتى يكون العبدُ كذلك؟ قال : إذا خرجَ من الحول والقوَّة . قلت : وما نهايةُ العارف؟ قال : أنْ يَصيرَ بالكلّية كالمعدوم عند وجوده ، قلت : ومتى يبلغُ إلى مهيمنة الصديقين؟ قال : إذا عرفَ نفسه . قلت : متى يعرفُ نفسه؟ قال : إذا صار مُستغرقاً في أبحرِ المنَّةِ ، وخرج من أودية الأنانية ، وقامَ على قدمٍ ياسينية ، قلت : ومتى يبلغ العبدُ إلى ما وصفته؟ قال : إذا جلسَ على مركبِ الفردانية ، قلت : وما مركب الفردانية؟ قال : القيامُ بصدق العبودية . قلت : وما صدقُ العبودية؟ قال : العملُ لله تعالى ، والرِّضا بالقضا ، قلت : أوصني . قال : أُوصيك بالله ، قلت : زدني . قال : حسبك .

* قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله : رأيتُ رجلاً في بعض أسفاري ، وعليه ثوبٌ من الشَّعرِ ، فسلَّمتُ عليه ، قلتُ : رحمك الله ، أسألُكَ مسألةً؟ قال : أوجز ؛ فإنَّ الأيام تمضي ، والأنفاسَ تُعدُّ وتُحصى ، والرَّبُّ مطَّلعٌ يَسمع ويَرى . قلت : ما رأسُ التقوى؟ قال : الصبرُ مع الله تعالى . قلت : ما رأسُ الصبر؟ قال : التوكُّل على الله . قلت : وما رأسُ التوكُّل؟ قال : الانقطاع إلى الله . قلت : وما رأسُ الانقطاع؟ قال : الانفراد لله . قلت : وما رأسُ الانفراد؟ قال : التجريد عمَّا دون الله . قلت : ما ألَذُّ الأشياء؟ قال : الأنس بذكر الله . قلت : ما أَطيبُ الأشياء؟ قال : العيشُ مع الله ، قلت : ما أقربُ الأشياء؟ قال :

اللُّحوق بالله . قلتُ : أيُّ شيءٍ أوجعُ للقلب؟ قال : فراقُ الله . قلتُ : ما همَّةُ العارف؟ قال : لقاءُ الله . قلت : ما علامة المحبِّ؟ قال : حبُّ ذكر الله . قلت : ما الأُنس بالله؟ قال : استقامةُ السرِّ مع الله . قلتُ : ما رأسُ التفويض؟ قال : التَّسليمُ لأمر الله . قلت : وما رأسُ التسليم؟ قال : ذكرُ السؤال عند الله . قلت : ما أعظمُ السُّرور؟ قال : حُسنُ الظنِّ بالله . قلت : من أعظمُ الناس؟ قال : مَنْ استغنى بالله . قلت : من أقوى الناس؟ قال : من استقوى بالله . قلت : من المغبون؟ قال : من رضي بغير الله . قلت : ما المروءة؟ قال : تركُ النُّزولِ بدون الله . قلت : متى يكونُ العبدُ مُبعداً من الله؟ قال : إذا صارَ محجوباً عن الله . قلت : متى يكون العبد محجوباً عن الله؟ قال : إذا كان في قلبه همٌّ غيرُ الله . قلت : ومن الغمر(١)؟ قال : من أنفقَ عمرَه في غيرِ طاعة الله . قلت : ما الزُّهد في الدنيا؟ قال : تركُ كلِّ شيءٍ يَشغلُ عن الله . قلت : من المُقبل؟ قال : من أقبلَ على الله . قلتُ : ومن المُدبر؟ قال : من أدبر عن الله . قلت : ما القلبُ السليم؟ قال : الذي لم يكن فيه سوى الله . قلتُ : أخبرني من أين تأكل؟ قال : من خزائن الله . قلت : ما تَشتهي؟ قال : ما يَقضي الله . قلت : أوصني . قال : اعمل بطاعة الله ، وارضَ بقضاء الله ، واستأنسْ بذكر الله ، تكن من أصفياء الله .

* قال ذو النون المصري : كنتُ في بعض سياحتي ، فإذا بشيخٍ ، وفي وجهه سيما العارفين ، قلتُ : رحمك الله ، ما الطريقُ إليه؟ قال : لو عرفته لوجدتَ الطريقَ إليه . قلت : أوَهل يعبدُه من لا يعرفه؟ قال : أوَهل يَعصيه من يعرفه؟! قلتُ : أليس آدمُ عصاه مع كمال معرفته؟ قال : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه : ١١٥] . ثم قال : يا هذا ، دع الاختلاف والخلاف . قلت : أليس في اختلاف العلماء رحمة؟ قال : نعم ، إلا في

(١) الغمر بضم الغين وفتحها هو الغافل الذي لم يُجرّبِ الأمور .

تجريدِ التَّوحيد . قلت : وما تجريدُ التوحيد؟ قال : فقدانُ رؤية ما سواه لوحدانيته . قلت : وهل يكون العارفُ مسروراً؟ قال : وهل يكون العارف مَحزوناً؟! قلت : أليس من عرفَ الله طالَ همُّه؟ قال : بل من عرفَ الله زالَ همُّه . قلت : وهل تُغيِّرُ الدنيا قلوبَ العارفين؟ قال : وهل تُغيِّرُ العُقبى قلوبهم؟! قلت : أليس من عرفَ الله صار مستوحشاً من الخلق؟ قال : معاذَ الله أن يكونَ العارفُ مستوحشاً ، ولكن يكون مُهاجراً ومتجرّداً . قلت : وهل عرفه أحدٌ؟ قال : وهل جهله أحد؟! قلت : وهل يتأسَّفُ العارفُ على شيءٍ غير الله؟ قال : أوهل يعرف غيرَ الله يتأسَّفُ عليه؟! قلت : وهل يَشتاقُ العارف إلى ربِّه؟ قال : أوهل يكون غائباً عن العارف حتّى يَشتاقَ إليه؟! قلت : وما اسم الله الأعظم؟ قال : أن تقولَ الله . قلتُ : كثيراً ما قلتُ ، ولم يُداخلني الهيبة . قال : لأنّك تقولُ من حيثُ أنتَ لا من حيث هو . قلت : عِظني . قال : حسبك من المواعظ علمُكَ بأنَّه يَراك . فقمت من عنده ، وقلت : ما تأمر؟ قال : كفى باطّلاعه عليك في جميع أحوالك .

* سُئل يحيى بن معاذ الرَّزي : ما علامةُ القلب الصحيح؟ قال : الذي هو من هموم الدنيا مُستريح . قِيل : وما القوت؟ قال : ذكرُ حيٍّ لا يموت . قيل : وما صدق الإرادة؟ قال : تركُ ما عليه العادة . قيل : وما الشَّوق؟ قال : ملاحظةُ ما فوق . قيل : متى يتمُّ أمرُ العبد؟ قال : إذا سكنَ مع الله بلا همٍّ . قيل : وما علامة المُريد؟ قال : أن لا يشتغلَ بالعبيد . قيل : وما رأسُ الهدى؟ قال : صدقُ التُّقى . قيل : وما اللذَّة؟ قال : الموافقة . قيل : ومَنِ الغريب؟ قال : الذي ليس له من حبِّه نصيب . قيل : ومتى يبلغ العبدُ إلى ولاية مولاه؟ قال : إذا عزلَ عن قلبه كلَّ من سواه . قيل : وما الرَّاحة الكبرى؟ قال : التَّسليمُ للمولى . قيل : وما أَفضلُ الأعمال؟ قال : ذكرُ الله على كلِّ حال . قيل : وما الفاقةُ العظمى؟ قال : دوامُ الأُنس بالمولى . قيل : وما حجابُ القلوب؟ قال :

الاستكفاءُ بالمربوب . قيل : وما العيشُ الجميل؟ قال : العيش مع الجليل . قيل : وما حقيقةُ الوفاء؟ قال : الصدق والصفاء . قيل : ومن المُحبُّون؟ قال : العارفون . قيل : ومن العزيز؟ قال : من تعزَّزَ بالعزيز . قيل : ومن الشريف؟ قال : من أنس باللطيف . قيل : ومن الغمر؟ قال : من ضيَّعَ العمر . قيل : ما الدُّنيا؟ قال : ما شغلكَ عن المولى .

نعم ، معدنُ المعرفة القلبُ ، لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢] .

ومعدنُ المُشاهدة الفؤاد ، لقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم : ١١] .

ومعدنُ النُّور الصّدرُ ، لقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٢٢] .

وما ازدادَ حبّاً لله تعالى إلا ازدادَ حبّاً لرسوله ﷺ ، ولأوليائه .

الحديث الثالث عشر

أخبرنا الشيخ الجليل الوليُّ الأصيل ، فردُ الوقت أبو المكارم البازُ الأشهب ، خالي وسيِّدي منصور الرَّباني الأنصاري البطائحي رضي الله عنه برواقِهِ في نهر دقلى ، قال : حدَّثنا أبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني ، قال : أنبأنا أبو عمرو عثمان بن محمد العلاَّف ، قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن سليمان إملاءً ، قال : قرأ عليَّ يحيى بنُ جعفر بن أبي طالب وأنا أسمع ، قال : حدَّثنا محمد بن عبيد بن الأعمش ، عن شقيق ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجُلُ يُحبُّ القومَ ولا يلحقُ بهمْ . قال :

« المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ[1] » .

هذا الحديث الشريف مُلزِمٌ بمحبَّةِ العارفين ، مُبَشِّرٌ بالإلحاق بهم إذا صحَّتِ المحبَّةُ ، وهل الدِّينُ إلاّ الحبُّ في الله ، والبُغضُ في الله؟! وإنَّ من سرِّ الحبِّ الخالص أن يرفعَ العارفَ إلى مقامِ السرِّ والنَّجوى في المحاضرة عندَ سواه .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ العارفَ بأسرار المُريدين ، المتطلِّعَ على هممِ العارفين ، كلَّفَ العبادَ وفاءَ صدقِ العبودية ، ثم بيَّنَ لهم تحقيقَ

---

(١) رواه البخاري ١٠/ ٤٦٢ في الأدب ، باب علامة حب الله عزَّ وجلَّ ، ومسلم (٢٦٤١) في البر والصلة ، باب المرء مع من أحب ، عن أبي موسى . دون قوله : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يلحق بهم . ورواية الحديث تامة عن عبد الله بن مسعود رواه البخاري ١٠/ ٤٦٢ ، ومسلم (٢٦٤٠) . وسيذكر المؤلف ثانية صفحة ١٦٠ الحديث السابع والعشرون . عن عبد الله بن مسعود.

شرائطها ، كيلا يتجاوزوا حدَّ العبودية إلى حدِّ الربوبية ، وحدَّ الفقر إلى حدِّ الغنى ، قال تعالى : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ . . . ﴾ [فاطر : ١٥] ، وجعل لكلِّ شيءٍ سبباً ، فجعلَ سببَ المخرج من عبودية المخلوقين القيامَ بصدق العبودية ، قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ من عبوديَّة من سواه ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ المؤانسةَ والمحبَّة والشوقَ إليه ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

ومعنى آخر ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بحفظ السرِّ عن آفات الالتفات إلى ما سواه ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ من حجب الإبعاد ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ المشاهدة والوصلة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وكذلك جعل سببَ معرفة العبدِ ربّه معرفةَ العبد نفسه ، بشاهد : « من عرف نفسه » ، أي بالعبودية « عرف ربه »[1] بالربوبية ، و« من عرف نفسه » بالفناء « عرف ربَّه » بالبقاء ، و« من عرف نفسه » بالجفاء والخطأ ، « عرف ربه » بالوفاء والعطاء ، و« من عرف نفسه » بالافتقار ، قام لله على قدم الاضطرار ، ومن عرف نفسه لمولاه ، قَلَّتْ حوائجه إلى من سواه .

رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « من عرف الله قام بحقِّه » .

أي : من عرفَ الله بالهداية سلَّم نفسه إليه ، ومن عرف الله بالربوبية قامَ له بأشراط العبودية ، ومن عرف الله بالجزاء أوقع نفسَه في العناء ، ومن عرف الله بالكفاية اكتفى به عن كلِّ ما سواه .

❊ رُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ألاَ من عرفني أرادني وطلبني ، ومن طَلبني وجدني ، ومن وجدني لم يختر عليَّ حبيباً سواي .

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ٦٠ .

* قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله : من عرف اللهَ أحبَّه ، ومن أحبَّه أطاعه ، ومن أطاعه قطعَ عن قلبه كلَّ ما دونه ، ومن حُرِمَ المعرفةَ حُرِمَ حلاوة الطاعة ، ومن حُرِمَ حلاوة الطاعة حُرِمَ المؤانسةَ في الخلوة ، فلا يجدُ في المعاملة رؤيةَ المِنَّةِ ، ولا يعرف قدرَ الله على الحقيقة ، ويُغلبُ في الأحوال فيسقطُ عن استقامة السرِّ مع الحقِّ .

* وقال يوسفُ بن أسباط[1] رحمه الله : من عرفَ الله وفي قلبِهِ همٌّ سوى الله لم يسجدْ سجدةً خالصةً لله ، ومن عرفَ اللهَ ، ولم يستغنِ بالله فلا أغناه الله ، ومن قال : الله ، وفي قلبه شيءٌ سوى الله فلم يقلِ الله .

نعم ، من خاف الله في كلِّ شيءٍ آمنه الله من كلِّ شيء ، ومن أَنس بمولاه استوحشَ عن كلِّ ما سواه ، ومن اعتزَّ بذي العزِّ عَزَّ ، ومن اعتزَّ بغيره فلا فخرَ له ولا عِزَّ ، ومن انقطع عن الأسباب الشاغلةِ عن الله اتَّصل بالأسباب الشاغلة بالله ، ومن تركَ عروةَ العلاقات صارَ مُستأنساً به في جميع الأوقات ، ومن ذاقَ حلاوةَ ذِكر مولاه يجد الملالة عن ذكر ما سواه ، ومن كتمَ أسرارَ القلوب ظهرتْ له أسرارُ الغيوب ، ومن جعل الهمومَ همًّا واحداً كفاه الله الهموم ، ومن طلبَ رضا مولاه لا يُبالي بسخطِ ما سواه ، ومن اكتفى بمقامه حُجب عن إمامه ، ومن كان لله قريباً كان مع غيره غريباً ، ومن أرادَ عزَّ الدارين فلينقطع إلى من له مُلك الدارين ، ومن تركَ حسنَ الرِّعاية زَلَّ عن سبيل الهداية ، ومن أرادَ أن يشربَ من محبَّةِ الله شربةً فليشربْ من بغض غير الله جرعةً ، ومن استأنسَ بكلِّ شيءٍ استوحشَ من كلِّ شيء ، ومن سكنَ قلبُه إلى شيءٍ فليس من الله في شيء .

---

(١) يوسف بن أسباط : أحد مشايخ الطريق ، صاحب تعبد وتجرد وتنسك ، سمع الحديث ورواه ، وهو ثقة ، ولازم الثغور طويلاً يجاهد في سبيل الله . مات سنة (١٩٢ هـ) . انظر ترجمته ومصادرها في الكواكب الدرية في طبقات السادة الصوفية للمناوي ١/ ٤٨٩ .

* قال عليه الصلاة والسلام : « من أصبح وهمُّه غيرُ الله فليس من الله في شيء »[1] .

* قال الله تعالى في بعض الكتب : من أرادنا أردناه ، ومن أراد منّا أعطيناه ، ومن أحبَّنا أحببناه ، ومن اكتفى بنا عمَّا لنا كنا له وما لنا ، ألاَ من طلبني وجدني ، ومن طلبَ غيري لم يجدني .

قيل : ألاَ من طلبني بالتوبة وجدني بالمغفرة ، ومَنْ طلبني بشُكرِ النعمة وجدني بالزيادة ، ومن طلبني بالدُّعاء وجدني بالإجابة ، ومن طلبني بالتوكُّلِ وجدني بالكفاية ، ومن طلبني بالقربة وجدني بالمؤانسة ، ومن طلبني بالمحبَّة وجدني بالصلة ، ومن طلبني بالاشتياق وجدني باللِّقاء والرؤية .

* وقال بعضُهم : من كان لله كان اللهُ له ؛ أي : من كان في أمرِ الله كان اللهُ في أمره ؛ ومن كان في ذِكرِ الله كان الله في ذكره ، ومن كان في حبِّ الله كان اللهُ في حبِّه ، ومن كان في مَرضاة الله يكن اللهُ في مرضاته ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

* قال ﷺ : « من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كرهَ لقاءَ الله كره الله لقاءه »[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٧ عن عبد الله بن مسعود ، والخطيب في تاريخه ٣/ ١٣٢ عن حذيفة مرفوعاً وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٣٢ ، ورواه الطبراني في الأوسط ١/ ٢١٣ (٤٧٤) عن أبي ذر مرفوعاً ، قال المناوي في فيض القدير ٦/ ٦٧ : وفي رواية لابن النجار في تاريخه : « من أصبح وأكثر همه . . . » وهي تبين المراد هنا . وقوله : « فليس من الله في شيء » أي لا حظ له في قربه ومحبته ورضاه . انظر فيض القدير ٦/ ٦٧ .

(٢) رواه البخاري ١١/ ٣٠٨ في الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه . ومسلم (٢٦٨٣) في الذكر والدعاء ، باب من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ، والترمذي (١٠٦٦) في الجنائز ، باب ما جاء فيمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، والنسائي ٤/ ١٠ في الجنائز ، باب فيمن أحب لقاء الله .

* ومن حكم العارفين قول قائلهم :

من ابتُلي بمعاملة العبيد ، فليلبس لهم لباساً من حديد .

ومن رضي من الدنيا باليسير ، فقد استراحَ من شغلٍ كثير .

ومن أصبحَ على الدنيا حريصاً ، أصبح من الله بعيداً .

ومن هتكَ سترَ التُقى ، لم تَستره السموات العُلى .

ومن نظرَ في عواقب الأمور ، سَلِمَ من نوائب الدهور .

ومن لم يقنع بالقليل ، وقعَ في غمٍّ طويل .

ومن سلَّ سيفَ التُقى ، ضَربَ به عُنقَ الردى .

ومن كان مَسروراً ، لم يزل مغروراً .

ومن لم يحفظْ لسانَه ، فسدَ عليه شأنه .

ومن لم يعرف موضعَ ضرِّه ، لم يعرفْ موضعَ نفعه .

ومن أعرضَ عن صُحبة الفجّار ، عوَّضَهُ الله صحبة الأبرار .

ومن أخذ عزّاً بغير حقٍّ ، أورثه اللهُ ذلاً بحقٍّ .

ومن ضيَّع أيامَ حرثه ، ندمَ أيام حصاده .

ومن توكَّلَ على غيرِ الله ، يُعذِّبهُ اللهُ به .

ومن رضي بالله وكيلاً ، صار له بكلِّ خيرٍ دليلاً ، ووجد إلى كلِّ خيرٍ سبيلاً .

ومن عرفَ حلاوةَ النَّجوى ، لا يجدُ مَرارة البلوى .

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

* وقيل : ثلاثُ كلماتٍ كان الأخيارُ من المتقدّمين يُوصي بعضُهم بعضاً في كتبهم بهنَّ :

من عملَ لآخرته كفاه اللهُ أمرَ دنياه .

ومن أصلحَ سريرته أصلح اللهُ علانيته .

ومن أَصلح ما بينه وبين الله أصلحَ الله ما بينه وبين الناس .

* شعر :

إذا السّرُّ والإعلانُ في المُؤمِنِ استَوى رَأى العزَّ في الدَّارَيْنِ واستَوجَبَ الثَّنا

وإنْ خالفَ الإعلانُ سِرّاً فما لَهُ على فِعْلِهِ فَضْلٌ سِوى الكَدِّ والعَنَا

* آخر :

مَنْ اعْتزَّ بالمَولى فذاكَ جَليلُ ومَـنْ رَامَ عـزًّا مِـنْ سِـواهُ ذَليـلُ

فَلَـوْ أنَّ نَفسـاً مَـنْ بَـراهـا مَليكُهَـا قَضَـتْ وَطَـراً فـي سَجْـدَةٍ لَقَليـلُ

* * *

الحديث الرابع عشر

أخبرنا شيخُنا الشيخ أبو الفضل علي المقرىءُ القُرشي الواسطي رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ، قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفَّر الداودي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفِرَبْري ، قال أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري ، قال : حدّثنا يحيى بن زُرعة ، قال : حدَّثنا مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن علقمة بن وقاص ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال النَّبيُّ ﷺ :

« العملَ بالنيَّة ، وإنَّما لامرىءٍ مانوى ، فمنْ كانتْ هِجرتهُ إلى الله ورسولهِ فهجرتهُ إلى الله ورسولهِ ، ومن كانت هجرتُهُ إلى دُنيا يصيبُها ، أو إلى امراةٍ يَنْكِحها فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إليهِ »[1] .

---

(١) رواه البخاري ١/ ٧ ـ ١٥ في بدء الوحي ، وفي الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ، ولكل امرىء ما نوى ، وفي العتق ، باب الخطأ والنسيان ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفي النكاح ، باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى ، وفي الأيمان والنذور ، باب النية في الأيمان ، وفي الحيل ، باب ترك الحيل وأن لكل امرىء ما نوى ، ومسلم رقم (١٩٠٧) في الإمارة ، باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » . وأبو داود رقم (٢٢٠١) في الطلاق ، باب فيما عنى به الطلاق والنيات ، والترمذي رقم (١٦٤٧) في فضائل الجهاد ، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا ، والنسائي ١/ ٥٩ و٦٠ في الطهارة ، باب النية بالوضوء .

ومن هذا الطريق رَوى هذا الحديث سيِّدنا عمر الفاروق الجليل رضي الله عنه بنصٍّ :

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّما الأعمال بالنيات ، وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى ، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله . . . . . » إلى آخر الحديث .

وهو نصٌّ عليه مَدارُ الدِّين ، وأحكامُ العلم والعرفان واليقين ، وبه عُروجُ قلوبِ العارفين إلى حضرة قُدس ربِّ العالمين :

خُذْ طارفَ السيرِ بلا عائقٍ للـه لا تَقصِـدْ سـوى اللهِ
فكـلُّ مـا أَمَّلتَـهُ قَـائـمٌ بهجـرةِ القلـبِ إلـى اللهِ

أَيْ بُني ، أهلُ الحجاب يتعجَّبون من كلامِ أُولي الألباب ، وربَّما ينتهي التَّعجُّبُ بهم إلى طرفٍ من الإنكار ، لقوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم : ٥٩] ، أي تُنكرون كفعلهم .

* رُوي عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه ، قال : كان تحت الجدارِ الذي أخبر الله عنه بقوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨٢] ، لوحٌ من ذهبٍ ، والذَّهبُ مكتوب فيه : بسمِ اللهِ الرحمن الرحيمِ ، عجبتُ لمن أيقنَ بالموت كيفَ يَفرحُ؟! وعجبتُ لمن أيقنَ بالقدرِ كيف يَحزن؟! وعجبتُ لمن أَيقنَ بالنَّارِ كيف يَضحكُ؟! وعجبتُ لمن أيقنَ بزوالِ الدنيا وتقلُّبِها بأهلها كيف يَطمئنُ إليها؟! لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله[1] .

* قال وهب[2] رحمه الله : بينما كنتُ أَسير في أرضِ الرُّوم ، إذ سمعتُ صوتاً من شاهقِ الجبل يقول : إلهي ، عَجبتُ لمن عرفك ، كيف

---

(١) تفسير القرطبي ٣٨/١١ .

(٢) وهب بن منبه الأنباري الصنعاني ، أبو عبد الله (٣٤ـ١٤٤ هـ) مؤرخ كثير الإخبار عن الكتب القديمة ، يعد في التابعين ، ولد ومات بصنعاء ، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها انظر الأعلام .

يتعرَّضُ لسخطِكَ برضا غيرك؟! إلهي ، عجبتُ لمن عرفك ، كيف يَرجو غيرك؟! فاتَّبعتُ الصوت ، فإذا أنا بشيخٍ ساجدٍ ، يقول : سُبحانك ، سبحانك ، عجباً للخليقة ، كيف يُريدونَ بك بدلاً؟! سبحانك ، عجباً كيف يَشتغلون بخدمةِ غيرك؟! سبحانك ، عجباً للخليقة ، كيف يَشتاقون إلى غيرك؟! سبحانك ، سبحانك ، كيف يتلذَّذونَ بغيرك ، وبشيءٍ دونك؟! فمضيت ، وما أشغلتُهُ عمّا رأيت .

* قال أبو يزيد رحمه الله : عجبتُ لأهلِ الجنَّة كيف يتلذَّذون بدونه؟! أم كيفَ يَستأنسون بغيره؟! وعجبت ممَّن يَسكُن إلى حالٍ دون ولي الأحوال؟! والعجب لمن أقبل إلى الخلقِ ، والحقُّ يقول : إليَّ ، إليَّ .

* قال أبو عبد الله بن مقاتل[1] رحمه الله : عجبتُ لابن آدم ، اختاره الله لنفسه ، مع غناه عنه ، وهو يُعرضُ عنه ، مع فقره إليه! وعجبتُ لمن يشغلُ نفسَه بشيءٍ ، وهو يعلمُ أنه قد فُرِغَ منه! وعجبتُ ممَّن يأمرُ غيرَه بما لا يفعله ، ويغضبُ على غيره بما يفعله! وممَّن يَكرَهُ أن يُعصى وهو عاصٍ! وممَّن يُحبُّ أن يُطاع وهو غيرُ مُطيعٍ لربِّه! وممَّن يلومُ غيرَه على الظنِّ ، ولا يذُم نفسَه على اليقين!

* قال حاتم[2] الأصم رحمه الله : عجبتُ ممَّن يستحي من الخلق ، كيف لا يَستحي من الخالق؟! ولمن يَطلبُ رضا المربوبين ، كيف لا يَطلبُ رضا الربِّ؟! ولمن يُحبُّ أهلَ الطاعة ، وهو مُقبلٌ على المعصية؟! ولمن يعرف جلالَ اللهِ ، كيف يُعرضُ عنه؟! ولمن يأكلُ رزقَ ربِّه ، كيف يَشكرُ غيره؟! ولمن يَشتري المملوك بماله ، كيف لا يَشتري الأحرار بمعروفه ، وطيبِ كلامه؟!

---

(١) هو محمد بن مقاتل . انظر ترجمته صفحة (٩٩).

(٢) حاتم بن عنوان ، أبو عبد الله المعروف بالأصم : زاهد ، اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدوّن في الزهد والحكم ، من أهل بلخ ، زار بغداد ، واجتمع ، بأحمد ابن حنبل ، وشهد بعض معارك الفتوح . وكان يقال : حاتم الأصم لقمان هذه الأمة . « الأعلام » .

* وقال خُنيس بن عبد الله : عجبتُ من رجلٍ ليلَه قائم ، ونهاره صائم ، ويجتنبُ المَحارم ، ولا تَلقاه إلاّ باكياً حزيناً! ورجلٍ ليلةَ نائم ، ونهاره لاعبٌ ، ويَرتكبُ المحارم ، ولا تَلقاه أبداً إلاّ ضَاحكاً مستبشراً .

* وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : عجبتُ ممّن يتذلَّلُ للعبيد ، وهو يجدُ من سيِّده ما يريدُ! وعجبتُ لمن كان قوتُه رغيفاً ، يَعصي ربّاً لطيفاً! وعجبتُ لمن يخافُ على موت نفسِهِ ، ولا يَخافُ على موت قلبه! ولمن يَخافُ على فواتِ دُنياه ، كيف لا يَخاف على فوات دينه؟! .

* قال قائلهم[1] : إلهي ؛

عجبـــتُ منـــكَ ومنّـــي أَفنيتَنـــي بـــكَ عنّـــي
أدْنيتنـــي مِنْـــكَ حتَّـــى ظَنَنْتُـــتُ أنَّـــك أنّـــي

* قال يحيى بن معاذ : إلهي ، ذكرُ الجنّة موتٌ ، وذِكرُ النار موت ، فيا عجباً لنفسٍ تحيا بين موتين! أمّا الجنّةُ فلا صبرَ عنها ، وأمّا النارُ فلا صبرَ عليها .

* وقيل : ذكرُ الوصال موتٌ ، وذِكرُ الفراق موت ، كيف يحيا قلبٌ بين موتين؟

* موتُ العارفِ عجيب ؛ لأنَّ العارفَ بين سرورِ المعرفة ، وخوفِ الفرقة ، فكيفَ الموتُ مع سُرور المعرفة؟ أم كيف الحياةُ مع خوف الفرقة؟

عَجِبْتُ لمن يَقولُ ذَكرْتُ ربِّي وهل أَنسى فأَذكرُ مَنْ نَسيتُ

---

(١) البيتان للحسين بن منصور الحلاج : وهما في ديوانه صفحة ٣٠ ثلاثة أبيات :

عجبـــتُ منـــك ومنّـــي يـــا مُنيـــةَ المُتمنّـــي
أدنيتنـــي منـــك حتـــى ظننـــت أنَّـــك أنّـــي
وغبـــتُ فـــي الـــوَجـدِ حتى أفنيتنـــي بـــكَ عنّـــي

أَمـوتُ إذا ذكـرتُـكَ ثـم أَحيـا   ولـولا مـاءُ وصلِـكَ مـا حَيِيـتُ
فـأحيا بـالمُنى وأَمـوتُ شـوقـاً   فكـم أَحيـا عليـك وكـم أمـوتُ
شَربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ   فمـا نَفِـدَ الشَّـرابُ ومـا رَويـت

يا عجباً!

تغـرَّبَ أمـري عنـدَ كُـلِّ غَـريـب   فَصرتُ عَجيباً عندَ كُلِّ عَجيبِ

* * *

الحديث الخامس عشر

أخبرنا القاضي الإمام المقرىء الشيخُ علي أبو الفضل القرشي الواسطي بداره بواسط ، قال : أنبأنا أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري ، قال : أنبأنا أبو يعقوب ، قال : أنبأنا زاهد بن أحمد ، قال : أنبأنا محمد بن إبراهيم بن نيروز ، قال : حدّثنا المُطَّلب بن شُعيب بن عبد الله بن صالح ، قال : حدَّثنا الهِقْل بن زياد ، عن بكر بن خُنيس ، قال : حدَّثني عاصم بن عبد الله النَّخَعي ، عن أبي هارون العبدي ، قال : أتينا أبا سعيد الخدري رضي الله عنه ، فسألناه عن حديثِ رسول الله ﷺ ، فقال : مَرحباً بوصيَّةِ رسولِ الله ﷺ . قال :

« إنَّه سيأتيكم بعدي أُناسٌ من الآفاق يَسألونكم عن حَديثي ، وعن السُّنةِ فاستوصوا بهم خيراً » . فكان إذا رآنا قال : مَرحباً بوصيَّةِ رسول الله ﷺ[1] .

هذا الحديث الشريفُ يجذبُ العارفَ إلى طلب حديث المصطفى ﷺ وسُنَّتِهِ ، ليكونَ محلَّ نظره النبوي ، في بحبوحة التوصية السارية في عوالم الله تعالى ، وهل لُبابُ المعرفة بالله إلاّ الأخذُ بحديث رسول الله ﷺ ، والعمل بسُنَّته السَّنية؟! وهذا القامع للنفس .

---

(١) رواه ابن ماجه ١/ ٩١ (٢٤٩) في المقدمة ، باب الوصاة بطلبة العلم . عن أبي هارون العبدي قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري قال : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال لنا : « إن الناس لكم تبع ، وإنهم سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيراً » . ورواه أيضاً أبو داود الطيالسي (٢٩١) ، والديلمي في الفردوس ٢/ ٣٢١ (٣٤٥٥) .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ معرفةَ النفس أحدُ أُصول العبودية ، وقلَّ من يعرفها ، وعزَّ وجودُ من يتمنّى عرفانها ، وما خلقَ الله تعالى في الدَّارَيْنِ سجناً أضيقَ على العارف ، ولا أَوحشَ ، ولا أَنتنَ من النفس ، فمن عرفَها على التحقيق ، وخالفَ أمرها ، فكلُّ أرضٍ له ثغرٌ وطَرَسوس[1] ، ومن غفل عن معرفتها ، فهو في خطرٍ عظيم ، ولا يَسلمُ من شرِّها ؛ فإن من لا يعرفها كيفَ يقومُ بمخالفتها؟!

* قال أحمد بن حرب : إني لأشتهي أن أموتَ ولو ساعةً ، حتى أعرفَ نفسي وأُخالفها .

* قال محمد بن الفضل : من عرفَ نفسَه لا يتنفَّسُ نفساً إلاّ بدوام جهدها ، وكثرة عبادتها ، ولا يَغترُّ بصفاوة أوقاتها ، وحسنِ أحوالها ، ولطائف أنفاسها ، وصدقِ معاملتها ؛ لِمَا علمَ من غوامض آفاتها ومكرها ، وسوءِ طبعها ، وكمالِ شرِّها ، وإنّي تفكَّرتُ في جميع عمري ، ونظرتُ في شأن نفسي ، فما رضيتُ في عمري من نفسي طرفةَ عين .

* قال الأنطاكي[2] رحمه الله : من لم يعرفْ نفسَه فهو مغرور .

* قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : خالطتُ الناسَ سبعين سنة ، فما وجدتُ رجلاً إلاّ وهو راكبٌ هواه ، حتى أنه إن أخطأَ أحبَّ أن يُخطىءَ النَّاسُ كلُّهم ، ولأن يُضربَ ظهري بالسِّياط ، أَحبُّ إليَّ من أن يُقال : أخطأَ فلانٌ المسلم .

---

(١) طَرَسُوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، بها قبر المأمون بن الرشيد ، جاءها غازياً فأدركته منيته . وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين . انظر معجم البلدان ٤/ ٢٨ .

(٢) أحمد بن عاصم الأنطاكي : إمام زاهد ، عابد عالم ، من كبار المحدثين ، كان أبو سليمان الداراني يُسميه جاسوس القلوب لحدّة فراسته . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الكواكب الدرية ١/ ٥٣٠ .

* وقال إبراهيم التيمي : ما عرضتُ قولي على عملي إلاّ وجدتُه مَكذوباً .

* وكان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ، كثيراً ما يقول : اللَّهُمَّ ، إني أعوذ بك من شرِّ نفسي .

* قال ذو النون : من نظرَ بعينِ المعرفة إلى سُلطان ربِّه فني عنه سُلطانُ نفسه ، ومن نظر إلى عظمة ربِّه صغرتْ عنده عظمةُ نفسه ، وقُهرتْ تحت جلالِ هيبته .

* وقيل لمالك بن دينار حين ماتت زوجته أمُّ يحيى : لو تزوّجتَ يا أبا يحيى ، قال : لو استطعتُ لطلَّقتُ نفسي ، ولو أنَّ مُنادياً يُنادي بباب المسجد : ليخرج شرُّكم رجلاً ، فوالله ما سبقني أحدٌ إلى الباب إلاّ رجلٌ له فضلُ قوَّةٍ في السعي .

* وقال أبو يزيد : قلتُ : يا ربِّي ، كيفَ الوصول إليك؟ قال : يا أبا يزيد ، دعْ نفسك وتعال .

* لقي حكيمٌ حكيماً ، فقال : يا أخي ، إني لأُحبُّك في الله . فقال : يا أخي ، والله لو علمتَ منّي ما أعلمُ من نفسي لبغضتني الحالة .

وكان بكرُ بن عبد الله المُزني[1] ، ومُطرّفُ بن عبد الله[2] بالموقف ، فقال مُطرّف : اللَّهُمَّ ، لا تردَّهم لأجْلِي . وقال بكر : ما أشرف هذه المواضع وأرجاها لولا أنا فيهم ، اللَّهُمَّ ، لا تحبسِ المغفرةَ بشؤمي ، ولا تردَّهم لأجْلِي .

---

(١) بكر بن عبد الله المزني الزاهد الولي ، مجاب الدعوة ، وكانت قيمة ثيابه أربعة ، ومن خير المتعبدين المتنسكين . روى الحديث ، توفي سنة (١٠٨ هـ) . انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في الكواكب الدرية ١/ ٢٣٨ .

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري ، أبو عبد الله . زاهد من كبار التابعين له كلمات في الحكمة مأثورة وأخبار ، ثقة فيما رواه من الحديث ، ولد في حياة النبيِّ ﷺ ، ثم كانت إقامته ووفاته في البصرة سنة (٨٧ هـ) . « الأعلام » .

* وقال موسى بن القاسم : وقع عندنا زلزلةٌ ، وريحٌ حمراء ، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل[1] ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، ادع الله لنا ، فأنتَ إمامُنا . فقال : ليتني لا أكون سببَ هلاككم . فقال موسى بن القاسم : رأيتُ النَّبيَّ ﷺ تلك الليلةَ في المنام ، فقال : إن الله تعالى دفعَ عنكم بدعاءِ ابنِ مُقاتل .

* وكان عطاء السُّلمي يَبكي كلَّما هبَّتْ ريحٌ شديدة ، ويقول : هذه من أجلي يُصيب بها الخلائق ، لو ماتَ عطاء لاستراحَ الخلائقُ من بلائه .

* وكثيراً ما كان ينوحُ على نفسه ، ويقول : يا عطاء ، لعلَّكَ أولَ مَسحوبٍ إلى النار ، وأنت غافل .

* وكان الفضلُ واقفاً بعرفات ، فنظر إلى جميع الناس ، وقال : يا له من موقفٍ ، ما أشرفه ، لولا أنا فيهم . ثم بكى ، ورفع رأسه ، وأخذَ لحيته وقبض عليها ، وقال : يا سوأتاه على ما كان من نفسي ، فإنها مغرورة ، وبالثناء مسرورة ، وإنَّ من غاية بلاءِ النفس أن لو مات نصفُها لم يصلحِ النصف الآخر .

* وحُكي أنَّ أبا يزيد البسطامي قال : نظرت في حال عبادتي فرأيتُها مُختلطةَ ، ثم نظرتُ إلى نفسي وتركيبها ، فإذا هي مَنسوبةٌ إلى كلِّ بلاء ، ورأيتُها لا تخلو من الشِّرك ، وعلمتُ أنَّ الله تعالى لا يقبلُ الشِّركَ ، فقلت لها : يا مأوى كلِّ شرٍّ ، إلى كم يَدعوكِ اللهُ إلى توحيده ، ولا تَنظرين إليه ، فاشتدَّ على قلبي غمُّ هذا الإشراك ، فعمدتُ ، وأعددتُ لها كانونَ الصياغة ، ثم سعَّرتُ فيه نارَ الحقِّ ، ووضعتُ فيه كيرَ الليسية ، ونصبتُ سندان الوحدانية ، وضربتُها بمطرقةِ الأمر والنهي ، وطالَ بي العناء ، فلمَّا نظرتُ إليها وجدتُها مشركةَ ، فقلتُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، إنها

---

(١) محمد بن مقاتل المروزي ، شيخ البخاري بمكة ، روى عن ابن المبارك وطبقته . توفي سنة (٢٢٦ هـ) . انظر العبر ١/ ٢٩٧.

لا تنظفُ بالجفاء ، فلعلَّها تنظفُ بالرِّفقِ واللِّين والمُداراة ، فرددتُها إلى بستان ذِكرِ المنَّةِ ، ووضعتُ بين يديها رياحين رؤيةِ اللُّطف والكرامات ، وتروّحت بمراوح التَّحنُّنِ ، والبرِّ ، والإحسان ، وطالَ منّي العناء ، فلمَّا فتَّشتُها وجدتُها مشركةً ، فقلتُ لها : يا مأوى كلِّ شرٍّ وبلاء ، لا تَصلحي بالجفاءِ ولا بالرفق ، ثم رددتُها إلى قصَّار الأحذية ، ليضربَها على حجر الفردانية ، ويَغسلها بماءِ صفوة الصمدانية ، فلم يزل يَضربُها رجاءَ أنْ تنظف من الإشراك ، وطالَ منّي العناءُ ، فلمَّا نظرتُ إليها فإذا هي مشركةٌ ، فقلتُ : إنا لله ، لعلَّ صلاحَها من وجهٍ آخر ، ثم أنزلتُها بمنزلة امرأةٍ مُستحاضةٍ ، فلم أزل أنظُر إليها كالمتحيّر المضطر ، وأنظر إلى بلائها حتّى آيستُ منها ، وعلمتُ أن لا يتأتّى مُرادي منها ، فطلَّقتُها ثلاثَ تطليقات ، وتركتُها ، وصرتُ وحدي إلى ربِّي ، وناديته : يا عزيزي ، أدعوكَ دعاءَ من لم يبق له غيرُك بالعتق من عبوديَّةِ ما سواك ، فلمَّا علمَ الله تعالى صدقَ الدُّعاء منّي ، واليأسَ من نفسي ، كان أولُ إجابةِ الدُّعاء أنْ أنساني نفسي بالكليّة .

* قال أبو سليمان : لو أنَّ الخلقَ اجتمعوا على أن يَضعوني كإيضاعي عند نفسي لم يَقدروا على ذلك .

طوبى لعبدٍ أطلعه اللهُ على شرِّ النفس ، وعرفَ أصلَ خلقتها ، وأنواعَ عوارضها ، ومقتَها ومألفها ، وقَهرَها وحقرها ، واتَّهمها ووضعها .

* * *

الحديث السادس عشر

أخبرنا سيِّدُنا فردُ الوقت أبو المكارم البازُ الأشهب الشيخ منصور الرَّباني البَطائحي الأنصاري رضي الله عنه برواقه في بلدة نهر دقلى من واسط ، قال : أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد بن علي الفراء قراءةً عليه ، قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد بن موسى بن الصلت ، قال : حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ، قال : حدَّثنا عُبيد بن أَسباط ، عن أبي عن سفيان ، عن عبد الملك بن عُمير ، عن ربعي ، عن حُذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعدي أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، واهْتَدُوا بِهَدْيِ عمَّارٍ ، وتمسَّكوا بِعَهْدِ ابنِ أمِ عبدٍ »[1]

فقد أمرَ عليه الصلاة والسلام بتصحيح القدوةِ بالشيخين العظيمين ، سيدنا أبي بكر الصديق ، وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنهما ، وبالتَّحقق بالاهتداء بهدي عمار رضي الله عنه ؛ فإنه ماتَ على حبِّ الصهرِ العظيم ، الصنوِ الكريم ، سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه ، وأكَّد لزوم التَّمسك بالعهد ، كما كان مُحافظاً عليه ابنُ أمِّ عبد[2] رضي الله عنه ، وفي هذا

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، والترمذي في سننه ٣٨٠٤ في المناقب ، باب في مناقب عمار بن ياسر ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٧٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٢ ، ٨/ ١٥٣ ، وانظر مجمع الزوائد ٩/ ٥٣ .

(٢) ابن أم عبد: عبد الله بن مسعود . وهي أم عبد بنت عبد ودٍّ صحابية . انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٤٣١ طبعة مؤسسة الرسالة .

حكمة الجمعِ بين حبِّ الصَّحبِ والآل سرٌّ يُدركه العارفون الموفَّقون ، وقد جعلَ صحَّةَ المتابعة باتِّباع الشيخين رضي الله عنهما ، وحقيقة الاهتداء بهديه بموالاة الأمير رضي الله عنه ، وجمعَ بين النكتتين بلزوم التمسُّكِ بالعهد ، ومتى اقتدى العبدُ اهتدى ، ومتى اهتدى تمسَّكَ بعهد الله ، وهناك قد عرف ، وهل المعرفةُ بالله تعالى إلاّ هذا؟! فإنَّ من اهتدى بهدي محمدٍ ﷺ ، واقتدى به ، وتمسَّكَ بعهده ، أقبلَ على الله ، وأعرضَ عن غيره .

* جاء في الخبر أنَّ الله تعالى قال : يا دنيا ، اخدمي من خدمني ، واستخدمي من خدمك .

وليس من معالي الهمَّة الاشتغالُ بما فيه حظُّ النفس .

وفي نعتِ النَّبيِّ ﷺ بعلوّ همَّته الشريفة : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .

ولا يصلُ العبدُ إلى الله تعالى حتى يقطعَ مفاوزَ الدُّنيا وما فيها ، من زهراتها ولذَّاتها ، وراحاتها وشهواتها ، ويجاوزَ أوديةَ الخَلْقِ وما منهم ، من جميلِ معاشرتهم وثنائهم ومحمدتهم .

وإنَّ الله تعالى خلقَ جميعَ ذلك ابتلاءً لكلِّ من أرادَ أنِ يصيرَ مجرداً ، حتى إن التفتَ إلى شيءٍ منها صارَ مُفتضحاً في دعواه ، وغرقَ في أودية الحسبان والخسران ، فكم مُستدرجٍ بالنعم ، محجوب عن الخالق ، غافلٍ عن الصدق ، جاهلٍ بعرفان النَّفس ، يُصبح ويُمسي على الحسبان ، فيبدو له من ذي العرش ما لم يكن يَحتسب ، قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

وإنَّ من معالي الهمَّةِ ما قيل لأبي عبد الله : لو أعطاكَ اللهُ تعالى الدنيا بجميع ما فيها ، ماذا تفعل بها؟ فقال : لو أمكنني أن أجعلَها لقمةً ، وأضعها في فم كافرٍ لفعلت . قيل : و لِمَ؟ قال : لأنَّ الله تعالى يُبغضُ

الكافر والدنيا جميعاً ، فأفعلُ ذلك ليقعَ البَغيضُ إلى البغيضِ .

ثم حُكي من صدق ما ادَّعاهُ ، أنَّ سلطان هراة[1] . بعثَ إليه سبعةَ أوقارٍ من الحنطة ، وكان الشيخُ يومئذٍ بهراةَ مع أصحابه ، فأطعمَ الخادمُ منها أولياءَهُ ، فقال له أبو عبد الله : أطعمِ الباقي فقراءَ العامَّة . فقال : لا يُمكن ؛ الأبوابُ مُغلقة . فقال : اذهب به إلى المجوس الذين هم في جوارنا . قال الخادم : فخشيتُ عقوبةَ الله تعالى في تركِ أمره ، فأعطيتُه المجوسَ ، فجاؤوا بُكرةً إليه ، وقالوا : ما الحكمةُ في إعطائك إيَّانا ، ونحن مُخالفوك؟! فقال : الدنيا عدوُّ الله ، والكافرُ عدوُّ الله ، ولا يقربُ الحبيبُ من الحبيب حتى يُبعدَ من عدوِّه . قال : فأسلموا جميعاً على يديه .

* وحُكي أنَّ بعضَ المُريدين كان يَمشي في الباديةِ ، فحدَّثته نفسُه ببعض حاجاتها ، فإذا هو على شطِّ بئرٍ ، فرمى ركوتَه في البئرِ ليستقيَ الماء ، فخرجتْ له الرَّكوةُ مملوءةً من الذهب ، فرمى بها في البئر ، وقال : يا عزيزي ، لا أُريدُ غيرَكَ .

* قال عمَّار القرشي : كنتُ في البادية فأردتُ التَّلبية ، وكنت حاجاً ، فأخذتُ منديلَ شيخٍ لي ، فقددتُهُ نصفين ، واتَّزرتُ بنصفه ، وارتديتُ بالآخر ، فلم تزلْ نفسي تُنازعني ببعض الحاجة ، فإذا الباديةُ كلُّها فضةٌ ، فمضيتُ ، وقلتُ : يا إلهي ، إني أعوذ بك من كلِّ إرادةٍ سواك .

* قال عيسى عليه الصلاة والسلام : طُوبى لرجلٍ ذكرَ الله ، ولم يذكر إلاَّ الله ، وطوبى لرجلٍ خشي الله ، ولم يخشَ إلاَّ الله ، وطوبى لعبدٍ سأل الله ، ولم يسأل إلاَّ الله .

* وحُكي أنَّ الإمام ابن الإمام سيِّدَنا زينَ العابدين عليَّ بن

---

(١) هراة : مدينة عظيمة مشهورة ، من أمهات مدن خراسان . معجم البلدان .

الحسين[1] رضي الله عنهما ، قال : كنتُ عند أبي عبد الله الحسينِ عليه السلام أقرأُ في بعض الكتب ، وكان في يده سكينٌ ، فرأيتُ حرفاً خطأً ، فقلت : ناولني السِّكينَ ، لأُصلحَ هذا الحرف . فناولني فلمَّا قَضيتُ الحاجةَ رددتُهُ عليه ، فقال لي : يا عليُّ ، لا تَعُد إلى هذه مرةً أُخرى ؛ فتقع إلى ذلِّ السؤال ، وخساسةِ الهمَّةِ .

* ورُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال ذات يوم لثوبان[2] رضي الله عنه : « يا ثوبان ، لا تَسألِ الناس » . فكان ثوبان رُبَّما يَسقطُ السَّوطُ من يده ، فلا يقول لأحدٍ ناولني إيَّاه ، حتى ينزل ويرفعه .

* وسأل رجلٌ من سفيان رحمه الله كسرةً ، فأعطاه ديناراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنْ كان لا يَعرفُ هو قدرَ نفسه فلا أدعُ كرمَ نفسي ، وإنْ كان هذا تركَ الهمَّةَ فأنا لا أدَعُ الجود .

هممُ العارفين مُتَّصلةٌ بمحبَّةِ الرحمن ، وقلوبُهم ناظرةٌ إلى مواضع العزِّ من العزيز ، لا راحةَ لهم في دارِ الدُّنيا دون الخروج منها .

* وكان كثيراً ما يُرى حبيبٌ العجمي[3] رضي الله عنه يومَ التَّروية

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو الحسن ، زين العابدين (٣٨-٩٤ هـ) رابع الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية . أحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع ، يقال له علي الأصغر للتمييز بينه وبين أخيه علي الأكبر شهيد كربلاء (٦١ هـ) . ومولده ووفاته بالمدينة أحصي من كان يقوتهم سراً بعد موته فكانوا مئة بيت . « الأعلام » .

(٢) ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، صحابي مشهور ، أصله من السراة (بين مكة واليمن) اشتراه النَّبيُّ ﷺ ثم أعتقه ، فلم يزل يخدمه إلى أن مات ، فخرج ثوبان إلى الشام ومات في حمص سنة (٥٤ هـ) وله ١٢٨ حديثاً . « الأعلام » .

(٣) حبيب الفارسي العجمي زاهد متصوف ، شغله التعبُّدُ عن الرواية ، كان تاجراً ، فحضر مجلس الحسن ، فوعظه ، فخرج عما كان يملك ، وجدّ واجتهد . انظر ترجمته في الكواكب الدرية للمناوي ١/ ٢٦٣ و ٥٩٣ .

بالبصرة ، ويومَ عرفة بعرفات ، فقيل له في ذلك ، فقال : هو أقلُّ ما أطارَ إليه الهمَّةُ أهلَ الهمَّةِ .

* ودخل عليٌّ كرَّمَ الله وجهه مسجدَ رسول الله ﷺ ، فرأى أعرابياً في المسجد يقول : إلهي ، أريدُ منك شُويهةً . ورأى أبا بكر الصِّديقِ في زاويةٍ أُخرى يقول : إلهي ، أُريدك . فشتَّان ما بين الهمَّتين ، فكلٌّ يطيرُ بهمَّتِهِ ، فإذا بلغَ طيرانُهُ إلى غايةِ همَّته وقفَ ، فلم يجاوزْها .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، أي : على نيَّته وهمته .

* وقيل لأبي يزيد : سَمعنا أنَّك تمرُّ على الماء ، وتطيرُ في الهواء! فقال : المؤمن أعزُّ على الله من السماوات السبع ، فأيُّ عجب أن يَبلغَ مقامَ طيرٍ أو حوتٍ؟

قُرِىء بين يدي ابنِ المُبارك[1] ، قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [المؤمنون : ٦١] . فقال : ليس أنَّه يَسبقُ بدنٌ بدناً ، ولا عملٌ يَسبقُ عملاً ، ولكنْ همَّةٌ تَسبقُ همَّةً في جميع الخيرات والإرادات .

* قال بعضُ العارفين : مساكينُ أهلُ الغفلة ، يشتغلون بكثرةِ الأعمال ، ويعظِّمونها ويفتخرونَ بها ، ولو أنَّ أهلَ المعرفة عملوا أعمالَ أهل السماوات والأرض ، من الأزل إلى الأبد ، كان ذلك أصغرَ وأحقرَ في أعينهم ، من خردلةٍ في السماء والأرض .

* قال النَّبيُّ ﷺ : « لا تَستكثروا طاعتكم ، ولا تَستقلّوا ذنوبكم » .

---

(١) عبد الله بن المبارك الحنفي بالولاء التميمي المروزي ، أبو عبد الرحمن (١١٨ـ١٨١ هـ) الحافظ شيخ الإسلام والمجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ، ومات بهيت على الفرات ، منصرفاً من غزو الروم . له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه . « الأعلام » .

* ورُويَ أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام كان يمرُّ على شاطىء البحر ، فقال : إلهي ، قد اصطكَّتْ ركبتاي ، وانحنى ظهري ، حبيبي ، فما أنتَ صانعٌ بي؟ فأمر الله تعالى ضفدعاً أنْ يُجيبه ، فقال : يا ابن عمران ، أتمنُّ على ربِّك بعبادتك إيَّاه؟! وقد اصطفاكَ ، وكلَّمك ، وقرَّبَكَ ، وناجاك ، فوالذي خلقني وبراني ، إنِّي على صخرةٍ منذُ ثلاث مئة وستين سنةً ، أُسبِّحُهُ ليلاً ونهاراً ، لا أَفترُ منها لحظةً ، ومنذ ثلاثةِ أيام لم آكل ، وكلُّ ساعةٍ ترتعد فَرائصي من هيبته .

* وقال أبو سعيد بن أبي الخير[1] : كنتُ في البادية فنالني جوعٌ شديدٌ ، فطالبتني نفسي أنْ أَسألَ اللهَ طعاماً ، فقلتُ : ليس هذا من دأب المتوكّلين ، فطالبتني أنْ أَسأله اصطباراً ، فلمَّا هممتُ به ثانياً سمعتُ هاتفاً يقول :

أيجهلُ أنّنا منهُ قَريبٌ[2] وأنّا لا نُضيِّعُ مَنْ أتانا
يُريدُ أَبو سعيدٍ سؤالَ صَبرٍ كأنّا لا نَراهُ ولا يَرانا

* * *

---

(١) أحمد بن عيسى الخَرّاز ، أبو سعيد : من مشايخ الصوفية ، بغدادي . نسبة إلى خرز الجلود . قيل إنه أول من تكلّم في علوم الفناء والبقاء . له تصانيف في علوم القوم توفي سنة (٢٨٦ هـ) . « الأعلام » .

(٢) كذا في الأصل ، ورواية الكواكب الدرية ١/ ٥١٤

ويزعمُ أنّه منّا قريبٌ وأنّا لا نضيع من أتانا
ويسألنا القوى جهداً وصبراً كأنّا لا نراهُ ولا يَرانا

الحديث السابع عشر

أخبرنا شيخُنا القاضي العدلُ الثِّقة المقرىءُ الإمامُ الشيخ عليٌّ ، أبو الفضل القُرشي الواسطي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا أبو طالب محمد بن عليّ بن الفتح العشاري ، قال : أنبأنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص ، قال : أنبأنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد ، قال : أنبأنا مالك بن الخليل أبو غسان ، قال : أنبأنا ابنُ عدي ، عن أشعث ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين : أنَّ رسولَ الله ﷺ قال :

« يَدخُلُ الجنَّةَ منْ أُمتي سبعُونَ ألفاً بغيرِ حسابٍ ، هُم الذينَ لا يَكتَوونَ ، ولا يَسترْقونَ ، ولا يَتطيَّرونَ ، وعلى ربِّهمْ يَتوكَّلونَ »[1] .

جعلَ رسولُ الله ﷺ عدمَ التَّطيُّرِ المرتبةَ الثالثة ، بعد تركِ الاكتواء والاسترقاء ، وهذه مرتبةُ الخُلَّصِ من أهل الانمحاق عنهم ، وعن كونهم في مُراد الله تعالى .

رحمهم الله ما أقلَّهم في كلِّ عهدٍ ، فإنَّ رتبتَهم التَّحققُ بالتوكُّل على الله تعالى ، توكُّلاً تنطوي فيه الأسباب والمُرادات ، وأولئك هم العارفون بالله حقاً رضي الله عنهم .

يا هذا ، لو أنَّ العَالَم فريقان ، فريقٌ يُروّحني بمراوح من نَدٍّ[2] ،

---

(١) رواه مسلم (٢١٨) في الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب .

(٢) النَّدُّ : الطيب ، القاموس المحيط (ندد) .

وفريقٌ يقرضُ جسمي بمقارضَ من نار ، لا زاد هؤلاء عندي ، ولا نقصَ هؤلاء .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ من عرف الله حقَّ معرفته تلاشت همَّتُهُ تحت سرورِ وحدانيته ، ولا شيءَ من العرش إلى الثرى أعظمُ من سرورِ العارف بربِّه ، والجنَّةُ بكلِّ ما فيها في جنب سُروره بربِّه أصغرُ من خردلةٍ ، لِمَا علم أنَّه أكبرُ من كلِّ كبيرٍ ، وأعظمُ من كلِّ عظيمٍ ، فمن وجده فأيَّ شيءٍ لا يجد؟ وبأيِّ شيءٍ يَشتغلُ بعده؟ وهل رؤيةُ غيرِهِ إلاَّ من خساسةِ النَّفسِ ، ودناءةِ الهمَّةِ ، وقِلَّةِ المعرفة به؟ وهل يكونُ لباسٌ أجملَ من لباسِ الإسلام؟ أو تاجٌ أجلَّ من تاج المعرفة؟ أو بساطٌ أشرفَ من بساط الطاعة؟

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس : ٥٨] .

* قال إبراهيم بن أدهم[١] في بعض مُناجاته : إلهي ، إنَّك تعلمُ أنَّ الجنَّة وما فيها لا تزنُ عندي جناحَ بعوضة بعدما وهبتَ لي معرفتك ، وآنستني بك ، وفرَّغتني للتفكُّر في عظمتك ، ووعدتني النَّظرَ إلى وجهك .

نعم ، إنَّ أدنى منازل العارف أنَّ الله تعالى لو أدخلَه النَّارَ ، وأحاطَ به العذابَ ، لم يزدد قلبُه إلاَّ حبًا وأنساً به ، وشوقاً إليه .

* قال ابنُ سيرين[٢] : لو خُيِّرْتُ بين الجنة ، وركعتين ، تخيَّرتُ

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور ، التيمي البلخي ، أبو إسحاق : زاهد مشهور ، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ ، فتفقه ورحل إلى بغداد ، وجال العراق والشام والحجاز ، وأخذ عن كثير من العلماء ، وكان يعيش من العمل في الحصاد ، وحفظ البساتين والحمل والطحن ، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم ، وكان ينطق بالعربية الفصحى ولا يلحن ، وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ ، أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل . مات سنة (١٦١ هـ) . « الأعلام » .

(٢) محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء ، أبو بكر (٣٣ـ١١٠ هـ) إمام وقته في علوم الدين بالبصرة ، تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ووفاته في البصرة ، نشأ =

الركعتين ؛ لأنَّ في الركعتين رضاءَ الله تعالى ، والقربَ منه ، وفي الجنَّةِ هوى النفس ، ومحبَّةُ الناس .

* قيل : لما أُلقي الخليلُ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام في النار و﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] ، قال : حسبي ربّي ونعمَ الوكيل ، نعمَ المولى ونعمَ النَّصير . قال الله تعالى : ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

* ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إليه : يا إبراهيم ، أنت خليلي ، وأنا خليلُكَ ، فلا تشغلْ قلبك بدوني ، فتنقطع الخلَّةُ بينك وبيني ؛ لأنَّ الصادقَ في دعوى خِلتي : من أُحرقَ بالنار لم يتحوَّلْ قلبُه عنّي إلى غيري إجلالاً لحرمتي . وذكرَ اللهُ تعالى ذلك في كتابه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] . فعرف صدقَه في التَّسليم حتى أُلقي في النار .

* قال أبو عبد الله ابن مقاتل في مناجاته : إلهي ، لا تُدخلني في النار ؛ فإنها تصيرُ برداً عليَّ من حُبّي لك .

* قال أيوب السَّختياني : إنما يخافُ النارَ من نسي مولاه ، فيُقال لهم : ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ [السجدة : ١٤] ، مع ثواب عمله .

* قال أبو حفص : إني لأخافُ على معرفة قومٍ يكونُ على جباههم مكتوباً : عتقاء الله ، بعد إخراجهم منها ، يَسألون اللهَ رفعَ تلك العلامة عنهم ، ولو كنتُ أنا لسألتُهُ أن يكتبَ ذلك على جميع أعضائي ، ويكفيني فخري أنّي من عُتقائه .

= بزازاً ، في أذنه صمم ، تفقه وروى الحديث ، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، واستكتبه أنس بن مالك . ينسب له كتاب تعبير الرؤيا . وهو غير منتخب الكلام في تفسير الأحلام المطبوع المنسوب إليه أيضاً . وكان قد جعل على نفسه كلما اغتاب أحداً أن يتصدق بدينار . « الأعلام » .

وأنا أقول : إنَّما الحاصلُ للمُريد في الجنَّة من الجنَّة هو الرَّبُّ تعالى ، وقربه ، ونظره ، واستماعُ كلامه ، أما ترى امرأةَ فرعون إذ قالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، كما يُقال الجارُ ثم الدار .

* قال إبراهيم بن أدهم : إني لأستحي أن يكون غايةُ همّتي مخلوقاً ، وقد قال اللهُ تعالى لبعض أنبيائه : من أرادنا لم يرِدْ سوانا .

* قال بعضُ المشايخ : رأيتُ شاباً في المسجد الحرام ، قد أثَّرَ فيه الضرُّ والجوعُ ، فأدركتني الرَّحمة عليه ، وكان معي مئةُ دينار في صُرَّةٍ ، فدنوت منه ، وقلت : يا حبيبي ، اصرف هذا في بعضِ حوائجك . فلم يلتفتْ إليَّ ، فألححتُ عليه ، فقال : يا شيخ ، هذه حالةٌ لا أبيعها بالجنَّة وما فيها ، وهي دارُ الجلال ، ومعدنُ القرار والبقاء ، فكيف أَبيعها بثمنٍ بخسٍ؟!

* قال أبو موسى الدَّبيلي خادمُ أبي يزيد : سمعتُ شيخاً بِبسطامٍ يقول : رأيتُ في منامي كأنَّ الله تعالى يقول : كلُّكم تطلبون مني ، غير أبي يزيد فإنّه يطلبني ، ويُريدني ، وأنا أريده .

* قال أبو عبد الله : اتَّخذِ الله جليساً وأنيساً ، والزمْ خدمةَ مولاك تأتك الدُّنيا وهي راغمة ، وتَطلبْكَ الآخرةُ وهي عاشقة .

* وقال : يا طالب الدنيا ، دعِ الدنيا تطلبُكَ ، ويا طالب الآخرة ، أَوَلَمْ يكف بربِّك أنَّه على كلِّ شيءٍ قدير ؟!

* قال أبو سعيد الخرّاز : كنتُ بالموقف ، فهممتُ أن أسأل الله شيئاً ، فهتفَ بي هاتف : بعد الله تسألُ غيرَ الله!

* وكتبَ رجلٌ إلى أخٍ له : أمّا بعد ، فاضربْ بالدنيا وجهَ عُشَّاقها ، وبالآخرة وجهَ طلاّبها ، واستأنسْ بربِّ العالمين ، والسلام .

* قال أبو عبد الله النَّسّاج : لا تَستكثرِ الجنَّةَ للمؤمن ؛ فإنَّه قد وافى الله تعالى بما هو أكثرُ قدراً من الجنة وهو المعرفة .

* وصلّى رجلٌ من العارفين على جنازةٍ ، فكبّر خمساً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كبّرتُ أربعاً على الميت ، وواحدةً على الدّارين .

* وحُكيَ أنّه قُرِىء بين يدي أبي يزيد : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، قال : فأين من يُريد المولى؟

* وقال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب لأبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما : يا خليفةَ رسول الله ﷺ ، بماذا بلغتَ هذه المنزلةَ حتى سبقتنا؟ فقال : بخمسةِ أشياء : أولها : وجدتُ النّاس صنفين ، طالبَ دنيا ، وطالبَ عُقبى ، فكنتُ أنا طالبَ المَولى ، والثاني : منذ دخلتُ في الإسلام ما شبعتُ من طعامِ الدنيا ، والثالث : ما رَويتُ من شراب الدنيا ، والرابع : إذا استقبلني عملان عملٌ للدنيا والآخرُ للعُقبى ، اخترتُ عملَ الآخرةِ على عملِ الدنيا ، والخامس : صحبتُ النّبيَّ عليه الصلاة والسلام فأحسنتُ صحبتَه . فقال له عليٌّ : هنيئاً لك يا أبا بكر .

* * *

الحديث الثامن عشر

أخبرنا ابن العمِّ الوليُّ الصالح السيد سيفُ الدين عثمان ، قال : حدثني أبوك السيد عليُّ بن يحيى الرفاعي صاحبُ المشهد المنوَّر ببغداد ، قال : حدَّثني ابن عمّي السيدُ حسن بن عسلة ، قال : حدّثني النقيب الجليل السيد يحيى بن ثابت ، قال : حدّثني أبي السيِّد ثابت ، عن أبيه السيد عليٍّ الحازم أبي الفوارس ، عن أبيه [السيِّد أحمد][1] بن عليٍّ أبي الفضائل ، عن أبيه السيد رِفاعة الحسن المكّي نزيلِ إشبيلية ، عن أبيه السيد أبي القاسم محمد البغدادي نزيلِ مكَّةَ ، عن أبيه السيد الحسن القاسم أبي موسى الرئيس ، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضا المُحدّث القطيعي ، عن أبيه السيد أحمد الأكبر ، عن أبيه السيد موسى ، عن أبيه الأمير الكبير السيد إبراهيم المُرتضى ، عن أخيه الإمام الأعظم قبلةِ أهل الباطن عليِّ الرِّضا صاحبِ طوس ، عن أبيه الإمام الشهيد مُوسى الكاظم ، عن أبيه الإمام السعيد جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن أبيه الإمام زين العابدين عليٍّ السجاد ، عن أبيه الإمام المظلوم الشهيد السعيد الحسين صاحبِ كربلاء ، عن أبيه أمير المؤمنين يَعْسوب نحلِ الموحّدين الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه ، عن ابن عمِّه سيِّدِ المخلوقين ، حبيب ربِّ العالمين ، نبينا ورسولِنا محمد ﷺ أنَّه قال :

« أَدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي »[2] .

---

(١) ما بين معقوفين استدركه الأستاذ طاهر الكيالي الحمصي .

(٢) رواه العسكري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ بسند ضعيف =

هذا الحديث الشريف ملزمٌ بالتحقُّق بآدابه ﷺ ، فإنَّ من زلَّ عنها هوى ، ومن فارقها ضلَّ وغوى ، وبها تعرجُ هممُ المقرّبين ، وتُزهرُ أسرارُ العارفين ، ولا وجهَ يلتحقُ به العارف بربّه إلاّ طريقُ الأدب المحمَّدي ، وسُلَّمُ كلِّ هذا الذِّكرُ المُتواصل .

أيْ بُني ، اذكرِ الله تعالى ، واعلم أنَّ الله تعالى أعلى درجةَ الذِّكرِ ، وعظَّم رتبته ، ورفعَ شأنه ، وشرَّفه وفضَّله ، ثم قسمَهُ على اللِّسانِ والأركان والجَنان ، فينبغي أنْ يكونَ الذَّاكرُ على حذرٍ أنْ يلتفتَ إلى الذِّكر ، ويكون شريفَ الهمَّةِ والإرادة ، لطيفَ الفطنةِ في الإشارة ، صحيحَ النيَّة والإرادة ، لا يريدُ بذكره غيرَه ، ولا يَلتمسُ منه فراغَه عنه إلى ما دونه ؛ لأنَّ الوصولَ إلى الكلِّ تحت الرِّضا به عن غيره ، والحرمانَ من الكلِّ تحت الاشتغالِ بغيره .

ويجبُ على الذَّاكرِ أنْ يذكرَه على غايةٍ من التعظيم والحرمة ، لا على العادةِ والغفلة ، فيصيرُ بذلك محجوباً عن المَذكور ، عقوبةً لترك التَّعظيم والحرمةِ ؛ لأنَّ حفظَ الحرمةِ في الذِّكر خيرٌ من الذِّكر ، وما من عبدٍ ذكرَه على التَّحقيق إلاّ نَسيَ في جنبِ ذكره ما سواه ، وكان اللهُ له عوضاً من كلِّ شيءٍ .

وربَّما يُريدُ العارف أن يذكرَه ، فيهيج في سرِّه أمواجُ التعظيم والهيبة ، فيكلُّ لسانُهُ ، ويطيرُ فؤادُه من إجلال الوحدانية ، ثم يبدو له شعاعُ الشوق والمحبَّة من حُجب القلبِ والإلفة ، فتنتهي همَّتُهُ إلى سُرادقات الألوهية ، وميادين الرُّبوبية بإذن الله ، فحينئذ يُكشفُ له عمَّا سُتر عن غيره من

= جداً ، وإن اكتفى الحافظ ابن حجر في الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه ولكن معناه صحيح . قال ابن تيمية في مجموعة الرسائل ٢/ ٣٣٦ : معناه صحيح ولكن لا يعرف له إسناد ثابت إهـ . وأيده السخاوي ، والسيوطي في اللآلىء . وانظر كشف الخفا ١/ ٧٢ (١٦٤) .

عجائبِ غيبه ، ولطائفِ صنعه ، وكمال قدرته ، وأنوار قدسه ، فعند ذلك يَعرفُ العبدُ أنَّ الله تعالى يفعلُ ما يشاء ، بمن يشاء ، لمن يشاء ، متى شاء ، كيف شاء ، بيده المنُّ والعطاء والإرادة ، لا رادَّ لفضله ، ولا مُعقِّبَ لحكمه ، فيشغلُ به ، ويَصيرُ فانياً تحت بقائه .

وهذا معنى ما رُويَ في بعضِ الأخبار ، أنَّ الله تعالى قال في بعض الكتب : مَن يذكرني ولا يَنساني حرَّكتُ قلبَه لمحبَّتي ، حتى إذا تكلَّمَ تكلَّمَ لي ، وإذا سكتَ سكتَ لي .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

* وقال يحيى بن معاذ : الذِّكرُ أكبرُ من الجنَّةِ ، لأنَّ الذكر نصيبُ الله ، والجنَّةَ نصيبُ العبد ، وفي الذِّكرِ رضاءُ الله ، وفي الجنَّةِ رضاءُ العبيد .

* وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنَّ الله تعالى يتجلّى للذّاكرين عند الذِّكرِ ، وتلاوةِ القرآن ، ولا يرونه ؛ لأنَّه أعزُّ من أن يُرى ، وأظهرُ من أن يخفى ، فتفرَّدوا بالله سبحانه ، واستأنسوا بذكره ، وما نزلت بأحدٍ نازلة إلاّ وفي كتابِ الله لها دليلٌ من الهُدى والبيان .

* قال أبو عبد الله النسّاج : إن لله تعالى في الدُّنيا جنةً ، مَن دخلها كان آمناً ﴿ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ [الرعد : ٢٩] ، قيل : ما هي؟ قال : الأنس بذكره .

* قال الله تعالى في بعض كتبه : أوليائي وأحبائي ، تنعَّموا بذكري ، واستأنسوا بي ، فإنّي نعمَ الرَّبُّ لكم في الدنيا والآخرة .

* قيل لأبي بكر الواسطي : هل تشتهي طعاماً؟ قال : نعم . قيل : أيُّ شيءٍ؟ قال : لقمةً من ذكر الله ، بصفاء اليقين ، على مائدة المعرفة ، بأنامل حُسن الظنِّ بالله ، من جفنة الرِّضا عن الله سبحانه .

* ورُويَ أنَّ الله تعالى قال للخليل عليه الصلاة والسلام : أَتدري لِما اتَّخذتُكَ خليلاً؟ قال : لا . قال : لأنَّكَ لا تُغفلُ قلبَك عنّي ، وعلى كلِّ حالٍ لا أَراك تنساني .

لولا أنَّك أمرتَنا بذكرك ، فمن كان يَجترىءُ أن يذكرَك ، إجلالاً وإعظاماً لك سبحانك .

عجباً للذّاكرين ، كيف تثبتُ قلوبُهم في أبدانهم عند ذكر عظمتك؟!

* ورُويَ أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى ، إنّي لم أقبلْ صلاةً ولا ذكراً إلاّ ممن يتواضعُ لعظمتي ، ويلزمُ قلبه خوفي ، ويقطعُ عمرَه بذكري ، يا موسى ، إنَّ مثلَه في الناس كمثلِ الفردوس في الجنان ، لا يتغيَّرُ طعمُها ، ولا ييبسُ ورقُها ، فأجعل له عند الخوف أمناً ، وعند الظُّلمة نوراً ، وأُجيبُه قبلَ أن يدعوني ، وأُعطيه قبل أن يسألني .

* وروى كعبُ الأحبار[1] : أنَّ الله تعالى قال : من شغَله ذِكري عن مَسألتي أعطيته أفضلَ ممّا أُعطي سائلي .

* وقال عيسى ابنُ مريم عليه الصلاة والسلام : طُوبى لمن ذكرَ الله ولم يذكر إلاّ الله ، وطُوبى لمن يَخشى الله ولم يخشَ إلاّ الله .

* ورُويَ أنَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام لمَّا قال : ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٨٤] ، أوحى الله تعالى إليه : إلى متى تذكرُ يوسف؟

---

(١) كعب بن ماتع الحميري ، أبو إسحاق ، تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، وأسلم في زمن أبي بكر ، وقدم المدينة في دولة عمر ، فأخذ عنه الصحابة وغيرُهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وخرج إلى الشام ، فسكن حمص ، وتوفي فيها سنة (٣٢ هـ) عن مئة وأربع سنين . « الأعلام » .

أيوسفُ خلقَك أو رزقك ، أو أعطاك النبوة؟ فبعزَّتي ، لو كنتَ ذكرتني ، واشتغلتَ بي عن ذِكر غيري ، لفرَّجْتُ عنك من ساعتك ، فعلم يعقوب أنه مُخطىءٌ في ذِكره يوسف ، فأمسكَ لسانهُ عن ذكره .

* وقالت رابعةُ البَصرية رضي الله عنها : ما أَوحشَ السَّاعةَ التي لا أذكرك فيها! .

* وقال موسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم : إلهي ، أقريبٌ أنت فأُناجيك؟ أم بَعيدٌ فأُناديك؟ فقال الله تعالى : أنا جليسٌ لمن ذكرني ، وقريبٌ ممّن أَنِسَ بي ، أقربُ إليه من حبل الوريد .

* قيل لذي النون : متى يكونُ ذكرُ الله للعبد صافياً؟ قال : إذا كان به عارفاً ، وممَّن دونه متبرّئاً .

* قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : ذكرُ اللهِ طعامُ الرُّوح ، والثناءُ عليه شرابُ الروح ، والحياءُ منه لباسُ الرّوح ، وما تلذَّذَ المتلذِّذون بمثلِ ذِكره ، وما تنعَّمَ المتنعّمون بمثل أُنسه .

* إنَّ الله تعالى قال في بعض الكُتب : من ذَكرني في نفسه ذكرتُهُ في نفسي ، ومن ذَكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ ، ومن ذكرني من حيث هو ، ذكرتُه من حيث أنا .

* وقال : إنَّ الخلائقَ صاحوا من إبليس ، وإنَّ إبليس صاحَ من الذَّاكرين ، وتلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

* قال ابنُ عباس رضي الله عنهما : ما من مُؤمنٍ إلاّ وعلى قلبه شيطانٌ ، إذا ذكرَ اللهَ خنس ، وإذا نسي الله وسوس ، ذكرُ الله شفاءٌ لا يضرُّ معه داء ، وذكرُ الناس داءٌ لا ينفعُ معه دواء ، فاجعلْ ذكرَ الله قبلةَ همِّك ، وإضاءةَ مسجد فكرتك ، واعلمْ أنَّ حقيقةَ الاستئناس بذكرِ الحبيب هو نسيانُ غيره .

من شغله ذكرُ الله تعالى فَنيَ عن ذكر ما سواه ، وصارَ مَدهوشاً تحت لطائف صنعه ، وتلاشتْ كلّيتُهُ تحت جمالِ حُسن عنايته ، واستغرقَ في بحارِ ذِكر امتنانه .

للنَّاسِ عِيدان مَعدودانِ في سَنَةٍ ... وللمُريدِ جميعُ العصرِ أَعيادُ
فالذُّكرُ عادتُهُ والحمدُ راحتُهُ ... والقلبُ في مَلَكوتِ الرَّبِّ أَوَّادُ

* * *

الحديث التاسع عشر

أخبرنا الفقيه الصالح بُندار بن بَختيار الواسطي ، قال : أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد المهدي الهاشمي ، قال : أنبأنا أبو عثمان إسماعيل بن محمد ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الضَّبِّي ، قال : أنبأنا سُليمان بن أحمد ، قال : أنبأنا إدريس بن جعفر العطَّار ، قال : أنبأنا يزيدُ بن هارون بن محمد ، عن عَمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمر ، قال : دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ بيتي ، فقال :

« يا عبدَ اللهِ بنَ عُمرَ ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَكَلَّفُ قيامَ الليلِ وصيامَ النهار » . قلت : إني أفعلُ . فقال : « إنَّ من حَسْبَكَ أنْ تصومَ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيَّامٍ ، الحسَنةُ بِعشرِ أمثالِها ، فكأنَّكَ قد صُمتَ الدَّهرَ كلَّهُ »[1] .

---

(١) البخاري ٥/ ١٢٣ في الصوم : باب صوم الدهر ، وباب حق الضيف في الصوم ، وباب حق الجسم في الصوم ، وباب حق الأهل في الصوم ، وباب صوم يوم وإفطار يوم ، وباب صوم داود . وفي التهجُّدِ ، باب من نام عند السحر ، وباب ما يكره من ترك قيام العمل لمن كان يقومه ، وفي الأنبياء ، باب قول الله تعالى﴿وآتينا داود زبورا﴾ [الإسراء : ٥٥] وفي فضائل القرآن ، باب في كم يقرأ القرآن ، وفي النكاح ، باب لزوجك عليك حق ، وفي الأدب ، باب حق الضيف والاستئذان ، وباب من ألقي له وسادة . وأخرجه مسلم رقم (١١٥٩) في الصيام : باب النهي عن صوم الدهر . وأبو داود رقم (٢٤٢٥) في الصيام : باب في صوم الدهر . والنسائي ٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٥ في الصيام : باب صوم يوم وإفطار يوم وذكر الزيادة في الصيام والنقصان وصوم عشرة أيام من الشهر . والترمذي رقم (٧٧٠) في الصوم باب ما جاء في سرد الصوم .

ففي هذا الحديث الشريف أسرارٌ :

منها : البشارةُ بتواصل نورِ الأعمال بنورِ الأعمال من دون انقطاع ، وإنْ تباعدتِ الأوقات .

ومنها : مضاعفةُ ثواب العملِ لهذه الأمة « الحسنة بعشر أمثالها » ، لتُنشّطَ قلوبهم لعمل الخير .

ومنها : الأمر بعدم التكلّف ، الذي يُفضي بالعبد إلى السأم والملل .

ومنها : لزومُ التذكر ، حتى لا تطمَّ القلبَ الغفلة .

ومنها : الإيمان القطعي بوعدِ الله ، وحسن كرمه .

وكلُّ هذه الخصال خصالُ العارفين ، الذين انقطعوا عن كلِّ الهموم الدُّنيوية والأُخروية ، وصارَ همُّهم ربَّهم ، ومن كان همُّه ربَّه فلا همَّ له .

* قال يحيى بن معاذ في مُناجاته : إلهي ، إنْ عرفتك فأنتَ الذي قد هَديتني ، وإنْ طلبتُك فأنتَ الذي أردتني ، وإنْ أجبتك فأنتَ الذي اخترتني ، وإنْ أطعتُكَ فأنت الذي وفّقتني ، وإن أنبت إليك فأنت الذي آويتني .

وإنَّ الله تعالى لا يَكلُ العارفين إلى أنفسهم ، ولا إلى طاعاتهم ، ولا إلى ذكرهم بفضله ورحمته ، بل يَكلؤهم بأكاليلَ شفقته ، ويُمطرُ عليهم أمطار رحمته من سحائب فضله ، وعنايته .

* ورُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا ربُّ ، كيف لي أن أؤدّي شكرَ نعمِكَ ، ولكَ عليَّ في كلِّ شعرةٍ نعمتان؟ فقال له : يا موسى ، إذا عرفتَ أنَّك عاجزٌ عن شكري فقد شكرتني .

* وقيل : إنَّ الله تعالى أوحى إلى داودَ عليه الصلاة والسلام : اشكر نعمتي عليك . فقال : إلهي ، كيف لي أنْ أشكرك ، وشكري لك على النِّعمِ أعظمُ نعمةٍ عليَّ . فأوحى الله تعالى إليه : إذا علمتَ ذلك فأنتَ أشكرُ العبادِ لي .

* وقال محمد بن السَّمَّاك : اذكرْ من كان ذكرُه لك قبلَ ذكرك ، وحبُّه قبل حبِّك ، وما ذكرتَهُ إلا بذكرِهِ لكَ ، وما أحببتَهُ إلاّ بحبِّه لك .

* وقال أبو بكر الواسطي : من نسيَ ذِكرَ الله تعالى كان مُستدرجاً .

واعلم أنَّ أدنى أوصاف العارف عيشُ القلب مع الله بلا علاقةٍ ، وذلك من ذِكرِ الله إيّاه ، وذلكَ بيِّنٌ في قوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

* وقيل في قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣] ، أي : قليلٌ من يَرى منّتي عليه عند شُكره لي .

* ورُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال : إلهي ، كيف استطاعَ آدمُ أن يشكرَ نعمتك عليه ، إذ خلقتَهُ بيديك ، ونفختَ فيه من روحك ، وأسكنته جنَّتك ، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال الله : يا موسى ، علم آدمُ أنَّ ذلك مني فحمدني عليه .

فمن أطاعه فبتوفيقه أطاعه فله المِنَّةُ ، ومن عصاه فبمقدوره عصاه فله الحجَّةُ عليه ، فقد سبقَ فضلهُ لمن أطاعه قبل طاعته ، وقد سبقَ عدلُه لمن عصاه قبل معصيته إيّاه ، لأنَّه الفعَّال لما يريد .

* ورُوي أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال : إلهي ، لولا أنت كيف كنتُ أعرفُ من أنت[1]؟!

* وقيل لأبي عبد الله : ما لنا نحبُّ المدحَ والثناء؟ فقال : لنسيان امتنانِ الله عليكم ، وحسنِ عنايته التي سبقت منه لكم ، فمن نسي المنَّةَ ، وجحدَ النِّعمةَ ، قلبت له النِّعمةُ نقمةً .

يا بُني ، إنَّ الله تعالى أعطاك المعرفةَ ، ووفَّقك لطاعته من غير إحسانٍ سبق منك ، ومن غيرِ شفاعةٍ كانت لأجلك ، فينبغي أن تشتغلَ بذكره

---

(١) أي لولا أنت هديتني إلى معرفتك ما عرفتك .

وخدمته ، من غير طلبِ عوضٍ ومُكافأةٍ منه .

فأهلُ الذِّكر أصنافٌ مختلفة : فمنهم من يذكر على جهة منَّةِ الإسلام ، ومنهم على جهة السُّنَّةِ والجماعة ، ومنهم من يذكرُهُ على جهة مِنَّةِ ذِكره ، حتَّى يصيرَ قلبُه والهاً ، ولسانُه كليلاً ، وعقلُه هائماً ، ويصير في عظمته مَبهوتاً ، ويَتيهُ في كرمه ، ويَدهشُ في محبّته ، لما علم أنَّ الأعمال لا تقوم إلا به .

والذكر على وجهين : ذكرٌ يتولَّدُ منه الخوف والخشية ، وذكرٌ يتولَّدُ منه الشَّوقُ والمحبَّة : فأمّا ما ينتجُ الخوف والخشية ، فهو ذكرُ من يذكرُ الله مع نفسه ، ويرى ذكرَ الله له سببَ ذكرِ الله تعالى ، ويعلمُ أنَّه بذكرِ الله يصلُ إلى ذكره إيّاه .

وأمّا الآخر : فهو الذِّكرُ الذي تذكرُ ذكرَ الله له في الأزل ، حيث لم يكن موجوداً ، إلى أن يصير في الدنيا مفقوداً ، ثم إلى الأبد ، فوجدَ ذكرَ الله له سابقاً أزلياً ، خالداً أبدياً ، وذكرَه مُكدَّراً بالشهوات ، ممزوجاً بالغفلات ، فشتان بين من يدخلُ على الله برؤية ذِكره ، وبين من يدخلُ على الله برؤية فضله ومنَّته .

واعلمْ أنَّ ذكرَ العبدِ لله تعالى في إضافة ذكرِ الله تعالى للعبد ، كالغبار تحت الأمطار .

بذكرِكَ تُحيي مُهجتي يا مُؤمِّلي ... وذِكرُكَ لي من قبلِ ذِكري أكبرُ
مننتَ بِطَولٍ لا أقومُ بشُكره ... فأيُّ أياديكَ الجزيلة[1] أشكرُ

* * *

(١) أياديك الجزيلة : نعمك الكثيرة .

الحديث العشرون

أخبرنا الشيخ الحجّةُ الثقة العارفُ أبو بكر بن يحيى النجّاري الأنصاري الواسطي ، قال : أنبأنا أبو القاسم طلحة الكتّاني ، قال : أنبأنا أبو الحسين أحمد بن عثمان الآدمي ، قال : حدّثنا أحمد بن ماهان السمسار ، قال : أنبأنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن شعبة ، عن النعمان بن سالم ، قال : سمعتُ عمر بن أوس يُحدّثُ عتبةَ بن أبي سفيان ، عن أم حبيبة رضي الله عنها ، قالت : قالَ رسول الله ﷺ :

« من صلّى اثنتَي عشرةَ ركعةٍ تطوُّعاً كلَّ يومٍ غيرَ الفريضةِ بنى اللهُ لهُ بيتاً في الجنَّة »[1] .

هذا الحديث الشريف يحثُّ على مُلازمة النوافل ، فإنَّها من المقرّبات إلى الله تعالى ، وهي زادُ العارفين في طريقهم إليه سبحانه ، وشأن المتجرّدين لجنابه ، جلّتْ قدرته .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ من تجرَّدَ بسرِّه عن الكلِّ ، وتفرَّدَ بسرِّ السرِّ الفرد ، كُشِفَ له الغطاء ، واستبانت له البراهين عند مشاهدة نور الحقِّ سبحانه ، وهنالك يَسقيه اللهُ بكأس محبَّته ، حتى يُسكرَه به عن غيره ، ويزيلَ عنه التعبَ والنَّصبَ ، ويصيرَ سكونُه ذكراً ، وأنفاسُه تسبيحاً ، وكلامُه تقديساً ، ونومه صلاةً ، ولا يزالُ العبدُ يركبُ بسرِّه مركبَ المعرفة ، حتى

---

(١) رواه مسلم (٧٢٨) في صلاة المسافرين ، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن ، وبيان عددهن ، وأبو داود (١٢٥٠) في الصلاة ، باب تفريع أبواب التطوع وركعات السنة ، والترمذي (٤١٥) في الصلاة ، باب ما جاء فيمن صلى في يومٍ وليلةٍ ثنتي عشرة ركعة من السنة ، وماله فيه من الفضل . والنسائي ٣/ ٢٦١ في قيام الليل ، باب ثواب من صلى في اليوم والليلة ثنتي عشرة ركعة .

يتَّصلَ بالمعروف ، فإذا اتَّصل بالمعروف بقي معه إلى الأبد ، من غير أنْ يلتفتَ منه إلى ما سواه .

واعلم أنَّ مثلَ القلب كالقصر ، والمعرفةُ فيه كالسلطان ، والعقلُ أميرٌ على الأركان ، له تبعٌ وأعوان ، واللِّسان كالتَّرجمان ، والسرُّ من خزائن الرحمن ، ولا بدَّ لكلِّ واحدٍ منها من الاستقامة في مواضعه ، ودورانُ كلِّها على استقامة السرِّ مع الحقِّ ، فإذا استقامَ السرُّ استقامتِ المعرفة ، فيستقيم العقلُ ، وإذا استقامَ العقلُ ، استقامَ القلبُ ، وإذا استقامَ القلب ، استقامتِ النفس ، وإذا استقامتِ النَّفسُ استقامت الأحوال ، فالسرُّ منوَّرٌ بنور الجمال والجلال ، والعقلُ منوَّرٌ بنور اليقظة والاعتبار ، والقلبُ منوَّرٌ بنور الخشية والأفكار ، والنَّفسُ منوَّرةٌ بنور الرِّياضة والانزجار .

فالسرُّ بحرٌ من بحور العطايا ، وأمواجُ الهمَّةِ فيه لا يُحصى عددها ، ولا يَنقطعُ مَددها ، وأنَّ استقامةَ السرِّ مع الحقِّ هي الدَّوامُ على بساطِ المُشاهدة ، مع فقد رؤيةِ الاستقامة .

واعلم أنَّ صراطَ استقامة السرِّ أدقُّ من صراطِ الآخرة ، والمرورَ على جسرها أصعبُ من المرور على جسر الآخرة ، وأنَّ عالِمَ الأسرار غيورٌ ، لا يحبُّ أنْ يكونَ في قلب العبد حبٌّ أو ذكرٌ لغيره .

قال الله تعالى في بعض كتبه : إذا كان الغالبُ على عبدي الاشتغالُ بي جعلت لذَّتَه وهمَّته في محبَّتي ، ورفعتُ الحجابَ فيما بيني وبينه .

* ودخل رجلٌ على سريِّ السَّقَطي[1] رضي الله عنه ، قال له : أيُّ

---

(١) السَّريُّ بن المغلس السقطي ، أبو الحسن : من كبار المتصوفة ، بغدادي المولد والوفاة ، وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية ، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، وهو خال الجنيد وأستاذه . قال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علّة الموت . توفي سنة (٢٥٣ هـ) . « الأعلام » .

شيءٍ أقربُ إلى الله ، ليتقرَّبَ به العبدُ إلى الله ؟ فبكى السَّريُّ ، فقال : أمثلُكَ يسألُ عن هذا؟! إنَّ أفضلَ ما يتقرَّبُ به العبد إلى الله سبحانه أن يطَّلعَ اللهُ على قلبك ، وأنت لا تريدُ من الدارين غيره .

* وقال إبراهيم بن أدهم : غايةُ همَّتي ومُرادي من الله تعالى أن يجعلَ لي الميلَ إليه ، فلا أرى شيئاً دونه ، ولا أشتغل بأحدٍ سواه ، ثم لا أُبالي إلى التُّرابِ صيَّرني ، أم إلى العدمِ رجعني .

* وقيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : بأيِّ شيءٍ وجدتَ الخلَّةَ؟ فقال : بانقطاعي إلى ربّي ، واختياري إيّاه على ما سواه ، وبأني ما أكلتُ قطُّ إلاّ مع الضيف .

* وقالت رابعة البصرية : إلهي ، همَّتي ومُرادي في الدنيا من الدنيا ذكرُكَ ، وفي الآخرة من الآخرة رؤيتُكَ ، ثم افعل بينهما ما شئت .

* وقال أبو يزيد البِسطامي : رفعتُ السرَّ إلى مُواصلةِ الحقِّ ، فطارَ بأجنحة المعرفة بنورِ الفطنة ، في هواء الوحدانية ، فاستقبلته النَّفسُ ، وقالت : أين تذهب؟ أنا نفسُكَ ، لا بدَّ لك منّي ، فلم يلتفتِ السرُّ إليها ، ثم استقبله الخلقُ ، وقالوا : أين تذهب؟ نحن رفقاؤك وندماؤك ، ولا بدَّ لك منّا ، ومن معاونتنا إيّاك ، فلم يلتفت إليهم ، ثم استقبلته الجنَّةُ بكلِّ ما فيها ، وقالت : أين تذهب؟ فإني لك ، ولا بدَّ لك مني ، فلم يلتفت إليها ، ثم استقبلته العَطايا والمواهب والكرامات كذلك ، حتى جاوز المملكةَ ، وبلغَ سُرادقات الفردانية ، وجاوزَ الكلِّية والأنانية حتى وصلَ إلى الحقِّ ، وهو المطلوب .

* ورُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام ، قال في بعض مُناجاته : يا ربِّ ، عجبتُ ممَّن يَجدكَ ثم يرجعُ عنك . فقال الله تعالى : يا موسى ، إنَّ من وجدني لا يرجعُ عنّي ، وما رجعَ من رجعَ إلاّ عن الطريق .

* وقال أبو العباس بن عطاء : متى ظهرتْ على عبدٍ الآخرةُ ، فنيت في جنبها الدنيا ، وبقي العبدُ مع دارِ البقاء ، ومتى ظهرت على العبد مُشاهدةُ الحقِّ تعالى ، فني عنده ما دون الحقِّ ، وبقي العبدُ مع الحقِّ .

* وقال رجلٌ لأبي يزيد : بلغني أنَّ عندك اسمَ الله الأعظم ، أُحبُّ أن تعلّمني ذلك . فقال أبو يزيد : ليس لاسم الله حدٌّ محدود ، ولكنَّه فراغُ قلبك لوحدانيته ، وتركُ الالتفات منه إلى غيره ، فإذا كنتَ كذلك ، فخذ أيَّ اسم شئتَ تسيرُ به من المشرق إلى المغرب في ساعةٍ ، ثم تجيء .

* قال ذو النون : كنتُ حاجًا ، فإذا شابٌ يقول : إلهي ، قد اجتمعَ وفدُك ، وأنت أعلمُ ، فما أنت صانعٌ بهم؟ فسمعت صوتاً يقول : وفدي كثير ، وطلاّبي قليل .

* وسُئل بعضُهم : كم بين الحقِّ والعبد؟ قال : أربعةُ أقدام ، يرفعُ قدماً من الدنيا ، وقدماً من الخلق ، وقدماً من النفس ، وقدماً من الآخرة ، فإذا هو ثمَّ(١) .

* قال السَّريُّ : من قامَ على طاعةِ الله بغيرِ علاقةٍ ، سقاه اللهُ شربةً من عين محبَّته ، وبلَّغه إلى ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : ٥٥] .

* قال عليٌّ رضي الله عنه : العارفُ إذا خرجَ من الدنيا لم يجده السابق ، ولا الشهيدُ في القيامة ، ولا رضوانُ في الجنة ، ولا مَالكُ النار في النار . قيل : وأين يوجد؟ قال : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] ، إذا قامَ من قبره لا يقول : أين أهلي وولدي؟ ولا أين جبريل وميكائيل والجنة والثواب؟ ولكن يقول : أين حبيبي وأنيسي؟

قلوبُ العارفينَ لها عُيونٌ تَرى ما لا يراه النَّاظرونَا

---

(١) ثم : ظرف ، ومعناها هناك ، أي : فإذا فعل العبد ذلك كان مع الله تعالى على الدوام .

وأَلسنـــةٌ بســرٍّ قــد تُنــاجــي تــدقُّ عــن الكِــرامِ الكــاتبينــا
وأَجنحـــةٌ تَطيــرُ بغيــرِ ريــشٍ فتــأوي عنــد ربِّ العــالمينــا
فترعى في رياضِ القُدس طوراً وتشربُ من بحارِ المرسلينا[1]
عبــادٌ قــاصــدون إليــه حتّــى دَنــوا منــه وصَــاروا واصلينــا

* * *

(١) في روض الرياحين (٤٧٢) الحكاية (٤٣٥) : وتشرب من بحار العارفينا .

الحديث الحادي والعشرون

أخبرنا الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الملك بن الحسين بن مَيمون بن الحسين الحربوني الواسطي قدَّس اللهُ سره ، قال : أنبأنا الشيخ الثقة عبدُ الحق بن عبد الخالق بن أحمد ، أقول : وبهذا السَّندِ عن عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد ، بزيادةِ لفظةِ ابن يوسف بعد أحمد ، أجازنا كتابةً مولانا الخليفةُ المُفترض الطاعة في الأرض ، القائم لله بإحياء السُّنَّةِ والفرض أبو العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي الهاشمي أعزَّ الله به كلمةَ الدِّين والمسلمين ، وأيَّد باقتداره شريعةَ سيِّد المُرسلين ، عليه صلواتُ ربِّ العالمين ، وعبدُ الحق بن عبد الخالق بن أحمد بن يوسف المتقدِّمُ ذكره ، قال : أنبأنا أبو الحسن محمد بن مَرزوق بن عبد الرزَّاق قراءةً ، قال : أنبأنا عليُّ بن أحمد بن علي ، قال : أنبأنا عمّي الحسنُ بن علي ، قال محمد بن مرزوق : وقرأت على أبي نصر محمد بن سلمان ، أخبركم ذو النون بن محمد بن عامر فأقرَّ به ، قال : أنبأنا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد ، قال : حدّثنا محمد بن هارون ، قال : أنبأنا محمد بن العباس التنِّيسي ، قال : أنبأنا عمرو بن أبي سَلَمة ، قال : حدّثنا صدقةُ ، عن الأصبغ ، عن ابن حكيم ، عن أبيه ، عن جدِّه : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« صَنائعُ المعروف تقي مَصارعَ السُّوء ، وإنَّ صدقةَ السِّرِّ تُطفىء غضبَ الرَّبِّ ، وإن صِلةَ الرَّحم تزيدُ العمرَ ، وتنفي الفقرَ »[1] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ، وفي الأوسط ٧/ ٥٠ (٦٠٨٢) والعسكري ، وفي سنده =

وفي هذا الحديث الشريف من مكارمِ الأخلاق ما يُصعِّدُ همَّةَ العارف إلى حضرة ربِّه ، فإنَّ أُسَّ المعرفة بالله مكارمُ الأخلاق ، وأمَّا سوءُ الأخلاق فهو ـ والعياذ بالله ـ من انحجاب السرِّ عن الله تعالى .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ أعظم مصائب السرِّ حجابُه عن الله تعالى ، فكلُّ من حلَّت به هذه المُصيبة ، فقد تلاشتْ سائرُ مصائبه في جنبها ، فإنَّ المحبَّ سكران ، والسكرانُ لا يجدُ حالةَ سُكره وجعَ المُصيبة ، فإذا أفاقَ وجدَ الألم ، ومصيبةُ المحجوب عن الله لا تنجبرُ أبداً ، إلاّ بتجريد السرِّ عن كلِّ ما دون الله تعالى ، ولا وعيدَ في القرآن أَصعبُ من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين : ١٤] ، فكم من طاعةٍ حجبت صاحبَها عن المُطاع! وكم من نعمةٍ قطعت صاحبَها من المُنعم! وربَّ نائمٍ رُزقَ الانتباه بعد رقدته ، ومُنتبهٍ نامَ بعد طولِ الانتباه ، وربَّ فاجرٍ رُزق الولاية ، وبلغَ منازل الأبرار ، وزاهدٍ سقطَ عن ولايته ، وسلك مَسالك الفجَّار ، وكم من عاملٍ قد حجبته رؤيةُ أعمالِهِ عن رؤيةِ امتنان ربِّه ، حتى عمي بصرُه ، فصار مُبعداً ، وهو يحسبُ أنَّه واصلٌ! ولا مصيبةَ أشدُّ على العارف من الحجاب ، ولو طرفةَ عينٍ ، وأعظمُ عقوبةٍ على العبد من الله البعدُ والحجاب .

* وحُكي أنَّ رجلاً من العُبَّاد قال : إلهي ، إلى كم أعصيك ولا تعاقبني؟! فأوحى اللهُ إلى نبيِّ ذلك الزمان : قل له : إلى كم أُعاقبك وأنتَ لا تدري ، ألم أحجبك عن لطائف أُنسي؟ ألم أُخرج عن قلبك حلاوةَ مُناجاتي؟

* وقال أبو موسى خادمُ أبي يزيد : دخلَ الشيخُ مدينةً ، فتبعه خلقٌ

= صدقة بن عبد الله ، وثقه دُحيم ، وضعَّفه الجمهور ، عن أم سلمة مرفوعاً . وأخرجه القضاعي عن ابن مسعود ، وعن أبي أمامة مرفوعاً . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١١٥ : إسناد حسن . وانظر كشف الخفا ٢/ ٢٨ (١٩٥٢) .

كثير ، فلمّا نظرَ أبو يزيد إليهم ، وإلى ازدحامهم نحوه ، قال : اللَّهُمَّ ، إنّي أعوذ بك أن تَحجبني عنك بهم ، وأعوذ بك أنْ تحجبَهم عنك بي . رحمه الله ما أكثرَ إنصافه ، ما أصدقه بربّه ، ما أشفقَهُ على إخوانه المسلمين ، أراد لهم الخيرَ ، وصحّةَ النظر ، كما أرادَ لنفسه .

تنبّهْ يا من يُريد اجتماعَ النَّاس عليه ، واعتقادَهم به ، كم طيَّرت طقطقةُ النِّعال حول الرِّجال من رأس! وكم أذهبت من دين! اللَّهُمَّ سلّمْ ، اللَّهُمَّ سلّم .

اعلم أنَّ الناسَ أربعةُ أصناف :

١ـ رجلٌ جعل اللهُ قلبَه بصيراً ، ينظرُ بنور اليقين إلى لطائف صنعه ، وكمالِ قدرته .

٢ـ ورجلٌ جعلَ اللهُ عقلَه بصيراً ، ينظرُ بنور الفِطنة إلى الوعدِ والوعيد .

٣ـ ورجلٌ جعل اللهُ سرَّه بصيراً ، ينظرُ في كلّ الأوقات بنورِ المعرفة إلى الله تعالى .

٤ـ ورجلٌ جعله اللهُ مَكفوفاً ، لا يُبصر شيئاً ، فهو مظهرُ قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

واعلم أنَّ الكفَّار مَحجوبون بظلمة الضَّلالة عن نورِ الهدى ، وأهلُ المعصية محجوبون بظلمة الغفلةِ عن أنوار التقوى ، وأهلُ الطاعة محجوبون بظلمة رؤيةِ الطَّاعة عن أنوارِ رؤية التوفيق ، وعناية المولى ، فإذا رفعَ اللهُ عنهم هذه الحُجُبِ ، نظروا بأعينِ النُّور إلى النور ، فعند ذلك يحجبون عن غيره به ، فكلُّ من نظرَ إلى حركاته وأفعاله في طاعة الله صارَ محجوباً عن وليِّها مُفلساً ، ومن نظرَ إلى وليِّها صارَ مَحجوباً به عن رؤيتها ؛ لأنَّه إذا رأى عجزَه عن تحقيقها وإتمامها ، صارَ مُستغرقاً في امتنانه ، وربَّما يُحجبُ برؤية العبادةِ عن وجدان حلاوتها ، وربَّما يُحجبُ

برؤية وجدان الحلاوةِ عن صحّة الإرادة ، وربّما يُحجب برؤية المنّةِ عن المنّان سبحانه .

قال النَّسَّاجُ : من رأى نفسَه عند الطاعة ، لم يتخلَّص من العُجْبِ ، ومن رأى الخلقَ ، لم يتخلّص من الرّياء ، ومن رأى الطّاعةَ ، لم يتخلَّصْ من الغُرور ، ومن رأى الثّوابَ ، لم يتخلَّصْ من الحجاب ، ومن رأى الربَّ تعالى فذلك ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] .

* وقال بكر بن عبد الله : من اشتغلَ بطرائف الحكمة ودقائقها ، صارَ مَحجوباً عن حقائقها ، وما أعرفُ معصيةً أضرَّ بصاحبها من نسيانِ الرّبِّ ، وعلاقةِ القلبِ بغيره .

* وقال : كلُّ همٍّ وذكرٍ لغير الله تعالى فهو حجابٌ بينك وبين الله .

* وفي الخبر : ربَّ حسنةٍ يعملها الرَّجلُ لا يكون له سيئةٌ أضرَّ عليه منها ، وربَّ سيئةٍ يعملها الرَّجل لا يكون له حسنةٌ أنفعَ له منها .

قيل في معناه : لأنَّ الحسنةَ محمودةٌ ، والسيئة مذمومة ، فما دامَ العبدُ في الحسنةِ مع رؤية الحسنةِ فهو في ميدان الدَّلال والافتخار ، وما دام العبدُ في السيئة مع رؤيةِ السيئة فهو في ميدان الانكسار والافتقار ، وحالُ العبد في وقت الافتقارِ أحسنُ .

* قال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللَّهُمَّ ، إنّي أعوذُ بك من الشِّركِ الخفي .

* قالت رابعة رضي الله عنها : حجبتِ الدنيا قلوبَ أهلها عن الله ، فلو تَركوها لجالتْ في ملكوته ، ثم رجعت بطرائف الفوائد .

* قيل لسيدي منصور الرباني[١] رضي الله عنه : بأيِّ شيءٍ يَعرفُ العبدُ

---

(١) منصور البطائحي : صوفي كبير خال الشيخ أحمد الرفاعي وأحد مشايخه . انظر الكواكب الدرية ٢/ ٥٦٢ .

أنَّه غيرُ محجوبٍ من ربه؟ قال : إذا طلبه ولم يطلب منه ، وأرادَه ولم يردْ منه ، وأن لا يختار على اختياره شيئاً ، وإن اختارَ له النَّارَ ، وكلُّ من ليس في قلبه سلطانُ الهيبة ، ونارُ المحبة ، وأُنسُ الصحبة فهو مَحجوب .

* وقال : كفاكَ من المعرفة أنْ تعلمَ أنَّ الله مطَّلعٌ عليك ، وكفاكَ من العبادة أن تعلم أنَّ الله مستغنٍ عنك ، وكفاك من المحبَّةِ أن تعلمَ أنَّ حبَّه سابقٌ على حبِّك ، وكفاك من الذِّكرِ أنْ تعلمَ أنَّ ذكرَه متقدِّمٌ على ذِكرك .

القلوبُ إذا قعدت على بساطِ الهيبة زالتْ عنها الشَّهوات ، وإذا قعدت على بساطِ المعرفة زالت عنها الغفلات ، وإذا قعدت على صدقِ الفَردانية بالفرد للفرد فذلك المقعدُ الصدق .

* * *

الحديث الثاني والعشرون

أخبرنا الشيخ الثِّقَةُ العارف بالله تعالى عبدُ الملك بن الحسين الحربوني قدَّسَ الله روحه ، قال : أخبرنا أبو مطيع محمد بن عبد الواحد الأديب ، قال : أنبأنا أبو بكر عبد الله بن أحمد بن العباس الباطرقاني ، قال : أنبأنا سليم بن أحمد الطبراني ، قال : حدَّثنا إسحاق بنُ إبراهيم الديري ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا مَعْمَر ، عن الزُّهري ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تَحاسَدُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَجَسَّسُوا ، وكُونوا إخواناً كما أمركُمْ اللهُ تعالى »[1] .

هذا الحديث الشريف تضمَّنَ من أسرار المعرفةِ بالله العجائبَ ، فإنه أمر بالتخلّي عن الصفة الإبليسية ، وهي الحسدُ ، ثم بالتجرُّدِ من الصفة النفسانية ، وهي البغض لغيرِ الله تعالى ، ثم بالترفُّع عن الصفة السافلة الهوائية ، وهي التجسُّس ، ثم بعد أن أكملَ درجاتِ التنقية ، أمرَ برؤية عدم الفرقية بين المرءِ وبين إخوانه ، وإنَّ هذا من أمر الله تعالى .

وإذا كملتْ للعبد هذه الخصال ، فقد أحكمَ شأنَ المعرفة بالله ، ومن

---

(١) رواه البخاري ٩/ ١٧١ في النكاح ، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، وفي الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، وفي الفرائض ، باب تعليم الفرائض . ومسلم (٢٥٦٣) في البر والصلة ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس ، والموطأ ٢/ ٩٠٧ في حسن الخلق ، باب ما جاء في المهاجرة ، وأبو داود رقم (٤٨٨٢) و(٤٩١٧) في الأدب ، باب في الغيبة ، وباب في الظن ، والترمذي (١٩٢٨) في البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم .

هذا السرِّ قولُ سيِّدنا عليٍّ كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه : من عرفَ نفسه فقد عرفَ ربَّه[1] .

أَيْ بُنَي ، اعلم أنَّ العبدَ بين الله وخلقه ، إنِ التفتَ منه إلى الخلقِ تجرَّدَ عن الحقِّ ، وصارَ مَتروكاً مَحروماً مَخذولاً ، وإنِ التفتَ إلى الله عن الخلق ، قرَّبه اللهُ وأدناه ، وأوصلَه إلى قربه ، فإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ عبداً غار[2] عليه قدرَ قُربه منه ، وحبِّه له ، ولم يحتملْ منه الالتفاتَ إلى شيءٍ سواه ، فإنَّه إن نظرَ إلى شيءٍ دونه عذَّبه الله بذلك الشيءِ ، وجعله وبالاً عليه . أما ترى أنَّ إبليسَ لعنه الله نظرَ إلى نفسه ، وقال عن آدم : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [ص : ٧٦] ، فلعنَهُ وطرده ، وكذلك نظرَ فرعونُ إلى ملكه وقال : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : ٥١] ، فغرّقه ، وقارونُ نظرَ إلى ماله ، وقال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك الملائكة نظروا إلى تسبيحهم وتقديسهم حيث قالوا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، فابتلاهم الله تعالى بالسجدة لآدم ، وكذلك كلُّ من قال : أنا . يقول الله تعالى : لا ، بل أنا . ثم يردُّه إلى أسفل السافلين ، وكل من يقول : أنت الله . يرفعه إلى أعلى علّيين .

والالتفاتُ على وجهين : التفاتُ العين ، والتفاتُ القلب .

١ ـ فالتفاتُ العين مثلما قال الله تعالى لمحمَّدٍ حبيبه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ . . . ﴾ الآية [طه : ١٣١] ، ثم منَّ عليه لمّا عصمه حيث قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، ثم مدحه بتركِ الالتفات إلى ما سواه ، في قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، ثم أورثه ذلك التركُ الكلّيُّ أن

---

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة (٦٠) .

(٢) أي لم يرض لعبده أن يلتفت إلى غيره .

رفعَ له الحجاب ، حتى رأى ما رأى ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] ، وإن موسى عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، قال : ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ولن تراني بعدَ أنْ نظرتَ إلى غيري .

* كان بعض العارفين يطوفُ حول الكعبة ، فناداه واحدٌ ، فخطر بباله أن يلتفتَ إليه ، فسمعَ هاتفاً يقول : ليس منا من التفت إلى غيرنا .

* وحُكي أنَّ آخر كان يطوفُ حول الكعبة ، فنظر إلى امرأةٍ ، فظهرت يدٌ من الهواء ، وفقأت عينه ، ثم نُودي : نظرتَ بعينك إلى دوننا ففقأناها ، ولو نظرتَ بقلبك إلى غيرنا لكويناه .

* قال ذو النون : من نظرَ من توحيده إلى نفسه لم يُنجه التَّوحيدُ من النار ، ومن التفتَ من الصَّلاة إلى غيرها فقد سقطَ عن درجةِ المُصلّين ، ومن التفتَ من وقته إلى وقته ذهبَ عنه الوقتُ وهو لا يشعر ، وفي الخبر : إذا التفتَ العبدُ في الصلاة ، يقول الله : عبدي ، تَلتفتُ إلى من هو خيرٌ لك مني؟! أَقبلْ ولا تُعرضْ بوجهك عنّي ، فإني إذاً أُعرضُ عنك .

* قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام : « أتاني جبريلُ بمفاتيح خزائن الدنيا ، فلم ألتفتْ إليها ، ولم أقبلها » .

* قيل لبعضهم كيفَ أصبحت؟ قال : أصبحتُ وقد مَنَعَ الكونين عنّي ، ومنعني أن أنظر إليهما .

* وقال العارف السَّقَطيُّ رضي الله عنه : كنتُ في طلب صديقٍ لي ثلاثين سنة ، فلم أظفرْ به ، فمررتُ يوماً في بعض الجبال ، فإذا هو قائمٌ على صخرةٍ ، فدنوت منه ، وأخذت ذَيله ، فقال : خلِّ عنّي يا سَريُّ ؛ فإن الحقَّ غيور ، فلا يراكَ تأنسُ بغيره ، فتسقط من عينه .

* وحُكِيَ أنَّ رابعةَ كانت في طريقِ مكَّة ، فأقبل إليها رجلٌ ، وقال :

يا هذه ، كلّي بكلّك مشغول . فقالت : إنْ كنتَ صادقاً فكلّي لكلّك مَبذول ، إلاّ أنَّ لي أُختاً أحسنُ منّي ، وهي وراءك . فالتفتَ الرَّجلُ ، فلطمته رابعةُ على وجهه ، وقالت : إليكَ عنّي يا بطّال ، ادَّعيتَ مَحبَّتنا ، ثم نظرتَ إلى غيرِنا ، رأيتُكَ من بعيدٍ ، فقلت : وجدتُ عارفاً ، فلمَّا تكلَّمتَ قلتُ : وجدتُ عاشقاً ، فلمَّا جرَّبتُكَ وجدتُكَ كذَّاباً ، ما رأيتُ معك صفاوةَ العارفين ومروءتهم ، ولا طريقةَ العاشقين وصيانتهم . فصاحَ الرَّجل ، وجعلَ التُّرابَ على رأسه ، وقال : ادَّعيتُ محبَّةَ مخلوقٍ فأعرضتُ عنه ؛ جاءت اللَّطمةُ على وجهي ، فأخافُ أن أدّعي محبَّة الخالقِ ، فإذا أعرضت قلبي أخاف أن تكون اللطمةُ على قلبي .

٢ ـ وأما الالتفاتُ بالقلبِ ، فقد حُكِي أنه كان لفتح المَوصلي[١] صبيٌّ ، فيوماً من الأيام عانقه وقبَّله ، فنُودي من الهواء : يا فتح ، ادّعيتَ محبَّتنا ، وفي قلبك حبُّ غيرنا ، فصاح صيحةً خرَّ مغشياً عليه .

* ونظرت رابعةُ البصرية إلى رياح القيسي[٢] ، وهو يقبّلُ صبياً من أهله ، فقالت : أتحبُّه؟ قال : نعم . قالت : ما كنتُ حسبتُ أنَّ في قلبك موضعاً فارغاً لمحبَّة غيره ، ففزعَ القيسيُّ فزعاً شديداً حتى غُشي عليه ، فأفاق وهو يمسحُ العرق عن وجهه .

* قال ﷺ : « لو كُنتُ متَّخذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ؛ لكن خليلي الله »[٣] .

---

(١) فتح بن سعيد الموصلي : من أكابر الأولياء ، كثير البكاء والتهجد ، وله كرامات ، توفي سنة (١٢٠ هـ) . انظر الكواكب الدرية ١/٤٠٣ .

(٢) رياح بن عَمرو القيسي القانت المتعبد كثير التهجد ، اتخذ غلاً من حديد ، فإذا جنّه الليل وضعه في عنقه ، وتضرع ويبكي حتى يصبح . انظر الكواكب الدرية ١/٢٧٨ .

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٣) في فضائل الصحابة ، باب مناقب أبي بكر الصديق ، والترمذي (٣٦٥٦) في المناقب ، باب مناقب أبي بكر الصديق عن عبد الله بن مسعود بلفظ : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنّه أخي وصاحبي ، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً » .

* وحُكي أنَّ داود عليه الصلاة والسلام استقبلَهُ رجلٌ في بعض سياحاته ، فقال : أين تريدُ؟ قال : استوحشتُ عن الناس ، واستأنستُ بالله . فقال له الرجل : هذا مِنْ قبلكَ أو مِن قبلِ الله؟ قال : فسقطَ داود مَغشياً عليه ، ثم أفاق ، وقال : نبَّهكَ اللهُ كما نبَّهتني .

* وقال بعضهم : إن الله تعالى أمرَ قومَ موسى بقطعِ رؤوسهم حين سجدوا للعجل ، بعد أن سجدوا لله تعالى ، فقال : رأسٌ سجدَ لي ثم سجدَ لغيري فلا يصلحُ لي ، فكذلك القلب .

* وبلغنا أنَّ داود عليه الصلاة والسلام قال : أُوتيتُ ما أُوتي الناس ، وما لم يُؤتوا ، وهممتُ بما همَّ به الناسُ ، وما لم يهمّوا ، فوجدتُ الأشياء كلَّها لله ، والأُمورَ كلَّها بيد الله ، والحاصلَ من الدارين وما فيها هو الله ، فلا يَنبغي لمن ادّعى محبَّته أن يكونَ في قلبه حبٌّ لغيره .

* قالت رابعة[1] :

يا حبيبَ القلوبِ من لي سِواكا ارحمِ اليومَ مُذنباً قد أتاكا
يا حَبيبي وصَفوتي ورَجائي كَذَبَ القلبُ إن أَحبَّ سِواكا
يا أَنيسي ومُنيتي ومُرادي طالَ شَوقي مَتى يكونُ لِقاكا

* * *

(١) ذكر الأبيات اليافعي في روض الرياحين ١٥٩ (الحكاية ٧٥) عن امرأة متعلقة بأستار الكعبة ، والمناوي في الطبقات الصغرى عن عباس المجنون . وكلاهما برواية مختلفة ، وبزيادة بيتٍ :

يا طبيبَ القلوب من لي سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
أنت سؤلي ومنيتي وسروري قد أبى القلب أن يحبَّ سواكا
يا مناي وسيدي واعتمادي طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنان نعيم غير أني أُريدها لأراكا

الحديث الثالث والعشرون

أخبرنا شيخنا الشيخُ الكبير العارف بالله تعالى القاضي المُقرىءُ أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا أبو الحسين عاصم بن الحسن بن المقرىء ، قال : حدّثنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد ، قال : أنبأنا مهدي بن إسماعيل بن محمد الصفَّار ، قال : أنبأنا محمد بن عبيد الله بن المُناوي ، قال : أنبأنا شبابة ـ يعني ابن سوار ـ قال : أخبرنا شُعبة بن علقمة بن مزيد ، عن سَعيد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السُّلمي ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنهما : عن النَّبيِّ ﷺ قال :

« خيرُكم منْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ »[(١)] .

هذا الحديث الشريف يُفيد أنَّ الخيريةَ قد صحّتْ لمن تعلَّمَ القرآن وعلَّمه ؛ لما في القرآنِ العظيم من بالغ الحِكَم ، وغامضِ السرِّ ، وخطيرِ الشأن ، وهو حبلُ الله الأعظم ، به يَهتدي المُهتدون ، ويصلُ الواصلون ، وهو خُلُقُ رسولِ الله ﷺ ، وباب الله تعالى ، والمعجزةُ الدائمة ، والنور الذي لا يَنحجبُ ، وعنه تأخذُ أرواحُ العارفين أسرارَ المعرفة ، وما المعرفةُ التي لم ترجع إليه ، ما هي إلا زورٌ وضلالة ، ومتى تحقَّقَ العبدُ بالعلم بالقرآن العظيم ، فقد صارَ عارفاً ، وانكشفتْ له الأسرار الرَّبانية ، الملكية والملكوتية ، ومتى صار عارفاً حنَّ وأنَّ ،

---

(١) رواه البخاري ٩/ ٦٦ في فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، وأبو داود (١٤٥٢) في الصلاة ، باب في ثواب قراءة القرآن ، والترمذي (٢٩٠٩ و٢٩١٠) في ثواب القرآن ، باب ما جاء في تعليم القرآن .

وطلب زيادةَ العلم بالله من كلِّ طريقٍ ، ومن كلِّ فنٍّ ، وكلُّ الطُّرقِ والفنون في القرآن العظيم .

والعارفونُ هم الراسخون بالعلم ، يقولون : آمنا به ، وإليه منتهى سير هممهم ، وعنه يَصدرون ، وبه يَهيمون ، ومنه يأخذون ، ولذلك يقال فيهم : نُدماءُ الحقِّ ، وبهذا السرِّ يفرّقون بين الباطل والحقِّ .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ الله تعالى ربَّما يُزيّن أعداءه بلباس أوليائه وأصفيائه ، حتى أنهم يغترُّون بصفاء الأوقات ، ويحسبون أنَّهم من أهل ولايته ، فهذا من الله لهم استدراج .

وربّما يُزيّنهم بالعزِّ ، والجاه ، والرياسة ، والمنزلة عند الناس ، حتى يغترُّون بثناء الناس ومَحمدتهم ، ويُحسبونَ من أهل فضله ، فهذا أيضاً من الله استدراجٌ لهم .

وكذلك ربّما يزينهم بأنواع لطائفِ الحكمة ، فيغترُّون بحسن بلاغتهم ، وكمالِ فهمهم وفطنتهم ، ويحسبون أنهم أحاطوا بكلِّ حقيقةٍ علماً ، فهذا لهم من الله استدراجٌ .

وربَّما يُزيّنهم بلباس النِّعمة ، ويغرقُهم في أنواع النِّعم ، فيغترُّون بحُسْنِ تجمّلهم ، وطيب عيشهم ، ويحسبون أنهم على شيءٍ من الله ، فهذا لهم من الله استدراجٌ .

ولا يتركهم حتى يردَّهم إلى حقيقةٍ معلومةٍ ، قال سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٤٤] .

فهذا ما كدَّرَ عيشَ المريدين في دار الدنيا ، حتى دامَ كمدُهم ، واصفرَّت ألوانهم ، وذابتْ نفوسُهم ، ودهشت عقولُهم ، وطارت أفئدتهم ، وانشقَّت مراراتهم ، وفقدوا من الخلائق .

وواجبٌ على كلِّ حالٍ ذي عقلٍ ومعرفةٍ أن يحذرَ مولاه ، كما حذَّر نفسَه بقوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وكما قال : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

وقال ﷺ : « المؤمنُ لا يسكنُ اضطرابُه ، ولا تأمنُ روعتُه ، حتى يخلف جسرَ جهنّم » .

ألا إنَّ الله تعالى غيَّبَ مكرَه في حلمه ، وخداعَه في لطفه ، وعدلَه في كرمه ، وخذلانه في أنواعِ نِعَمه ، وسخطَه في جميل ستره ، وقطيعتَه في إمهاله ، فينبغي للعبد ألاّ يعتمدَ على حسن أوقاته ، وكثرةِ حسناته ، فكم من أحدٍ تراه في زِيِّ المُريدين ، وهو في علم الله من المَطرودين ، ولا يشعرُ أنَّ الله تعالى ربّما يُزيّنُ عدوَّه بلباس أوليائه ، ثم يردُّه آخرَ الأمر إلى بُعْدِهِ ، وربَّما يَكسو وليَّه لباسَ الأعداء ، ثم يردُّه آخرَ الأمر إلى حقائق كرمه ، لأنَّه ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج : ١٣] ، يعني يُبدىء على أوليائه صفاتِ أعدائه ، وعلى أعدائه صفاتِ أوليائه ، ثم يُعيدهم إلى حقائقَ معلومة ، وهو الفعَّال لما يريد ، بإظهار فضله في أهل عدله ، وإظهار عدله في أهل فضله .

ألا ترى أنَّ الله تعالى زيَّنَ إبليس بزينة عصمته ، وهو في سابق علمه من أهلِ اللَّعنة ، سترَ عليه ما سَبقَ منه إليه ، حتى أظهرَ أمره في العاقبة .

وكذلك زيَّن بِلعام[١] بأنوارِ ولايته ، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه .

وأغرقَ قارونَ في بحارِ نعمته ، وهو عند الله تعالى من أهل سَخَطه .

لا يغرَّنَكَ بالله أربعةُ أشياء : إظهاره لك ما لم تعلم ، وسترُه عليك بما قد عملت ، وزيادتُهُ لك فيما لم تشكره ، وإعطاؤه إياك ما لم تسأله ، فإنَّه ربَّما أرادَ الله تنبيهاً لك ، أو استدراجاً .

---

(١) بلعام بن باعورا كان من عباد بني إسرائيل وعلمائها ، ثم نقض وارتد ، قال عنه الله تعالى في سورة الأعراف ١٧٥ : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ .

* وقال يوسف بن الحسين[1] : من رأى صنعَ الرُّبوبية عند إقامة العبودية انقطع عن نفسه ، واعتصم بربِّه ، وفوَّضَ أمره إليه ، فحينئذ يسلمُ من آفات الاستدراج .

* وكان يحيى بن معاذ يقول : يا معشرَ المَستورين بالنِّعم والعِصَم ، لا تغترُّوا ؛ فإنَّ تحتها آفاتِ النقم ، لا تغترُّوا بعمارة الأوقات ؛ فإنَّ تحتها غوامضَ الآفات ، ولا تغترُّوا بصفاء العبودية ؛ فإنَّ فيها نسيانَ الرُّبوبية ، والأمر كما قال .

فيا رُبَّ مستدرجٍ بالإحسان إليه ، ويا رُبَّ مُغترٍّ بالثناء عليه ، ويا رُبَّ مفتونٍ بالنعم عليه ، ويا رُبَّ مُستهلكٍ بالسَّترِ عليه .

فمن لم يكن باطنُه في ملازمة الحقِّ تعالى عينَ ظاهره كان شكُّه أغلَبَ من يقينه ، وإنْ كان ظاهرُه يدلُّ على أوصاف الموقنين .

وفقدانُ أنوار الباطن من رؤيةِ حركاتِ الظاهر ، والغفلةُ عن غوامض آفات الاستدراج ، من رؤية صفاءِ العبودية ، فليسَ للمُوفَّق أن يعتمدَ ، ولا للمخذول أن ييئس .

واستدراجُ أهلِ الذنوب الرُّكون إليها ، والإصرارُ على الإعراض عن الله سبحانه ، واستدراجُ أهلِ العلم طلبُ الجاه والمنزلة عند الخلق ، واستدراجُ أهل الاجتهاد الاستكثارُ والإعجاب ، واستدراجُ المُريدين تطلُّعهم إلى العطايا والكرامات ، وسكونهم إليها ، واستدراجُ العارفين استغناؤهم بالمعرفة دون المعروف ، حتى جعلوا لها حدًّا وغايةً ونهاية ، وظنُّوا أنَّهم قد أحاطوا بها ، فكلُّ من كان منزلتهُ أَرفعَ ، كان استدراجُه أعظمَ وأدقَّ ، كم من مُذكِّرٍ لله ناسي الله! وكم من مخوِّفٍ بالله جَريءٌ

---

(١) يوسف بن محمد بن الحسين الرازي وقيل محمد بن يوسف ، صحب الجنيد ، وسمع من أكابر المحدثين منهم أحمد ابن حنبل وأسند الحديث . انظر ترجمته في الكواكب الدرية ٢/ ١٦٤ .

على الله! وكم من داعٍ إلى الله بعيد من الله! وكم من تالٍ كتابَ الله مُنسلخٌ من آيات الله!

* وقال أبو سعيد الخرّاز : لو كنتَ تركتَ الدنيا ، وافتخرتَ بتركها ، فالفخرُ أعظمُ من إمساكها ، ولو تركتَ عُيوبَ النفس وأُعجبتَ بتركها ، فالعُجْبُ عيبُه أكبرُ ، ولو جهدت وتعلَّقتَ بجهدك ، فتَعلُّقُكَ أعظمُ الاستراحة ، ولو خفتَ وأَمنتَ على أنَّك خفتَ ، فالأَمنُ من الخوف أكبرُ .

ثم قال : رؤيةُ القُربِ في القُربِ أقربُ البعدِ ، ورؤيةُ الأُنس في الأُنس أعظمُ الوحشة ، ورؤيةُ الذِّكرِ في الذِّكرِ أَشدُّ النسيان ، ورؤيةُ المعرفة في المعرفةِ أكبرُ النكرة .

* وقال بعض أهل المعرفة : كلَّما ظننتُ أني وجدت فحينئذ فقدت ، وكلَّما ظننتُ أني فقدت فحينئذ وجدت ، إلهي ، إن تَركتُك طلبتني ، وإن طلبتُك طردتني ، لا معكَ قرار ، ولا مع غيرك أُنس ، فالمُستغاثُ منك إليك .

* وقال أبو يعقوب : أجهلُ ما يكونُ العبدُ بالله ، إذا ظنَّ أنَّه استغنى عن الدنيا بالمعرفة .

* وقال يحيى بن معاذ : ذنبٌ افتقرتُ به إليه ، خيرٌ من طاعةٍ افتخرتُ بها عليه .

* وكان الفضيلُ كثيراً ما يَبكي ، ويردّدُ هذه الآية : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] ، يقول : عملوا أعمالاً حسبوا أنَّها حسنات ، فإذا هي سيئات ، حين يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يَحتسبون .

أَيْ بُني ، المعرفةُ مستقرٌ ومستودعٌ ، مستقرٌ في قلوب الأولياء ، ومستودعٌ في قلوب الأعداء ، ثم يُسلب في آخر الأمر ، فليس للموفّق أن يَعتمد على توفيقه ، ويأمنَ من مكره ، ولا للمخذول أن ييئسَ من رَوْح ربِّه[1] .

---

(١) روح الله : فرج الله ، ورحمته . انظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٢ .

وربّما يَرى الرَّجلُ للرجل الرؤيا الصالحة ، وهو استدراجٌ من الله تعالى ، كما حُكي أنَّ رجلاً من أهل الشام أتى إلى العلاء بن زياد[1] ، وقال له : إني رأيتك في المنام كأنَّك من أهل الجنة . فتركَ مجلسَه ، وأخذَ في البكاء ، وقال : لعلَّ اللهَ أرادَ أمراً[2] .

قيل : أصلُ الاستدراج نسيانُ الحقِّ ، والاستغناءُ بمن دونه ، والتعلّقُ بما سواه ، والالتفاتُ منه إلى غيره ، وليس على تحقيقٍ في المعرفة من يغترُّ بكثرةِ العلم والعمل ، لأنَّ إبليسَ كان معلّمَ الملائكة ، ثم في آخرِ الأمر نظرَ إلى نفسه وعبادته ، وتركَ أمراً من أوامر الله ، فصارَ من الملعونين المَطرودين أبدَ الآبدين .

وإيّاك أنْ تغترَّ بعمارةِ الأوقات ، وصفاءِ الأحوال ، فإن برصيصَ[3] ، وبلعام[4] كانا أعبدَ النَّاسِ في زمانهما ، وأحسنَهم حالاً ، وفي آخر الأمر

---

(١) العلاء بن زياد المتعبد المتزهد ، كان له مال ورقيق فتصدق وأعتق ، وأبقى لنفسه ما يقتات به . مات في سنة أربع وتسعين . الكواكب الدرية ١/ ٣٧٠ .

(٢) الخبر في الكواكب الدرية ١/ ٣٧٠ : وقال له رجل : رأيتك دخلتَ الجنة . قال : أما وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك . وقال : إنما نحن قوم وضعنا أنفسَنا في النار ، فإن شاء الله أن يخرجنا أخرجنا .

(٣) برصيص كان من عباد بني إسرائيل ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن راهباً تعبّد ستين سنةً ، وإن الشيطانَ أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ، ولها أخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها . فجاؤوا بها إليه ، فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته ، فأتاها ، فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبُكَ ، إنك أعييتني ، أنا صنعت هذا بك ، فأطعني أُنجك مما صنعتُ بك ، اسجدْ لي سجدةً ، فسجدَ له ، قال : إني بريءٌ منك إني أخاف رب العالمين .

قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وانظر البداية والنهاية ٢/ ١٣٦ .

(٤) تقدمت ترجمته ص ١٣٩ .

مالا إلى النفس والهوى ، فصارا مُفتضحين في الدُّنيا والآخرة .

ولا تغترَّ بصحبة الصالحين والزهّاد بغيرِ الحرمة والمتابعة لهم ، فالصُّحبةُ لو نفعتْ لنفعت امرأةَ نوح ، وامرأةَ لوط ، ولأنَّ الاغترار مَدرجةٌ من مدارجِ الاستدراج .

قال الله تعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا . . . .﴾ الآية [فاطر : ٥] .

وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار : ٦] .

وذلك أنَّ الشيطان ربّما يأتي الزاهدَ ليغرَّه ، فيقول : يا ولي الله ، ويا خيرته من خلقه ، أما ترى مِنْ ربِّك هذه الكرامات والعطايا والقرب والأنس ، أما تدري ما ألهمك ربُّك من كلامِ أهل المعرفة ، وحقائق أنواع الإشارات ، فهل يكونُ مثلُ هذا إلا لأهل محبَّته؟ أما ترى حالَ قربك معه ، وكمالَ لطفه بك ، وأنّك لو أقسمتَ على الله لأبرَّك ، ولا شكَّ أنَّ الملائكة ينظرون إلى حركاتك وسكناتك ، وحسن أحوالك ، وقد رَجحَ فضلُكَ على أهل زمانك ، فما أغفلَ الناسَ عمّا أنت فيه! حتى يغرَّه بأنواع مكره وخديعته ، فإن تداركه اللهُ بالفضل والرحمة ، وبصَّره بمكائد عدوه ، وعرجَ مُلتجئاً بسرِّه إلى سُرادقات قدرته ، فعند ذلك يَسلمُ من درجاتِ آفات الاستدراج .

واعلم أنَّ قلوبَ أهلِ المحبّة لا تزالُ تموجُ من خوفِ الاستدراج ، كما تموجُ البحار ، حتّى يصيرَ كلُّ ما فيه بالله لله .

ورأيت مكتوباً على عصى واحدٍ ، شعر :

كلُّ ذاكَ لكَ مغفو ... رٌ سِوى الإعراضُ عنّي

فقلت :

إن كنتُ أعرضتُ فقد تبتُ ... عدتُ إلى الوصلِ كما كنتُ
وليسَ لي جرمٌ سوى أنّني ... نظرتُ في الحبِّ فعُوقبتُ

* * *

الحديث الرابع والعشرون

أخبرنا شيخُنا الإمام ، فردُ الوقت ، البازُ الأشهب خالي أبو المكارم منصور البطائحي الربَّاني رضي الله عنه ، قال : أنبأنا القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن المهتدي ، قال : أنبأنا أبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام ، قال : أنبأنا أبو الحسين أحمد بن محمد ، قال : أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد الحربي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن علي ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أحبُّوا اللهَ لما يغذُوكم به من نِعَمِه ، وأحبُّوني لحبِّ الله ، وأَحبوا أهلَ بيتي لحُبي »[1] .

وبهذا الحديث الشريف نظامُ التصفية ، فمن أدركها فقد أدركَ الصفاء ، والتحقَ بأهل الاصطفاء .

أي بني ، اعلم أن للصَّفاء ظهراً وبطناً ، فأمَّا ظهرُها فأن تُصفِّي كلّيتك من أدناس النفس ، والخلق ، والدنيا ، وأمّا بطنُها فأنْ تُصفِّي كليتك من غبار رؤيةِ الأعمال ، وطلبِ الأعواض على الأعمال ، والالتفات منه إلى ما سواه .

* رُوي أنَّ النبي ﷺ قال : « أسرَارَكم ، أسرَارَكم ، فإنها عند الله بوادٍ » .

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٩٢) في المناقب ، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ ، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٤٩ ، ١٥٠ ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١١ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ١٦٠ .

* ويقال : جديدُك مع الله لا تُخلقه مع الناس ، وصفاؤك مع الله لا تكدره مع الناس .

* وقال يحيى بن أبي كثير[1] : دخلتُ مكّة ، فاستقبلني عطاء بن أبي رباح[2] ، وسلّم عليَّ ، ثم أقبل على الناس فقال : تَسألوني عن العلم وفيكم يحيى بن أبي كثير! قال : فتضرَّعْتُ إلى الله أربعين يوماً إلى أن يُذهبَ حلاوةَ هذه المقالة من قلبي .

* ويُروى أن النبيَّ ﷺ قال : « ألا إن أوَانيَ الله في الأرض هي القلوبُ ، فأحبُّ الأواني إلى الله تعالى أصفاها وأصلبُها وأرقُّها »[3] .

معناه أصفاها لله عند المراقبة ، وأصلبها في دين الله عند المخاطبة ، وأرقُّها على الإخوان عند الموافقة .

* وقال يوسف بن الحسين : لمَّا اشتغلَ قلبُ مريم بحبِّ ابنها ، سمعت صوتاً : لمّا كان سرُّكِ صافياً لنا ، كنا نرزُقكِ في الشتاء والصيف ، من غير واسطةٍ ، ولا شدَّةٍ ، ولا عناء ، فلمّا ميّلت سرَّك عنّي فلا يأتيك رزقُك إلاّ بشدَّة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٥] .

* وقال أبو محمد الجريري[4] : اعلم أنَّ العبدَ إذا لم يُصفِّ وقته لله

---

(١) يحيى بن أبي كثير (صالح) الطائي بالولاء اليماني أبو نصر ابن صالح ، عالم أهل اليمامة في عصره كان من موالي بني طيىء من أهل البصرة ، أقام زمناً يأخذ عن التابعين ، وسكن اليمامة فاشتهر ، عاب على بني أمية بعض أفعالهم ، فضُرب وحُبس ، كان من ثقات أهل الحديث توفي سنة (١٢٩ هـ) . « الأعلام » .

(٢) عطاء بن أبي رباح (أسلم) (٢٧-١١٤ هـ) تابعي من أجلاء الفقهاء . كان عبداً أسود ، ولد في جَنَد باليمن ، ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها ومحدثهم ومات فيها . « الأعلام » .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال : ١/٢٤٣ (١٢٢٥) عن الحكيم عن سهل بن سعد .

(٤) أحمد بن محمد بن الحسين الجَريري ، أبو محمد ، من كبار أصحاب الجنيد ، وأُقعد بوصية منه ، كان غزير العلم . كان لا يلبس إلا ثوباً واحداً صيفاً شتاءً . مات سنة =

تعالى في إقامة العبودية ، انقطعَ عن الله وهو لا يشعر ، فمن اجتهدَ في صفاءِ معاملةِ الظاهر ، أورثه اللهُ صفاء معاملةِ الباطن ، ومعنى قوله : (انقطع عن الله وهو لا يشعر) قولُ أبي يزيد : من ظنَّ أنَّه بالحال يصل فبالحال ينقطع ، ومن طلبَ الأُنس بالحال فبالحال يستوحش .

* قال أبو محمد الجريري : إنّ الله تعالى حكمَ على أصفيائه وأحبابه ألاّ يخرجوا من الدنيا إلاّ وطوقُ العبودية في أعناقهم .

وبحقٍّ أقول : ما اشتغلَ أحدٌ بغيره إلاّ ضاعَ عمرُه ، وذهبتْ عنه صفاوةُ الوقت ، فمن أراد صفاوةَ الوقت فليؤثرِ الله على شهوته .

* وقيل لواحدٍ : ما حقيقةُ صفاوة الوقت؟ فقال : تصفيةُ الكلّية لخلاّقِ البرية ، بوفاء صدقِ العبودية .

* قال الأنطاكي : إن وجدتَ رَيْناً[1] في قلبك فأدمِ الصيام ، فإن وجدتَ ريناً فأقلَّ الكلام ، فإن وجدت ريناً فاتركِ الآثام ، فإن وجدت ريناً فأكثرِ البُكاء والتضرُّعَ إلى الملك العلاّم .

* ويُقال : الجهلُ كلُّه موتٌ إلاّ من يرزقه الله العلم ، والعلمُ كلُّه حجَّةٌ إلاّ من وفَّقه الله للعمل به ، والعملُ كلُّه هباء منثور ، إلاّ أن يكونَ صافياً لله ، وأهلُ الصفاءِ على خطرٍ عظيم ، إلاّ أن يسلّموا ذلك إلى الله تعالى بلا عيب .

ويجب على العبدِ أن ينظرَ في حال أكله وشربه ولباسه وكلامه وحركاته وإرادته ، فيدع منها ما كَدَرَ ، وليأخذْ ما صفا ؛ لأنّ صفاوة الأوقات على قدر صفاوة الأحوال .

* قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨-٨٩] .

= (٣١٤ هـ) انظر ترجمته في الكواكب الدرية في طبقات الصوفية للمناوي ٢/ ٢٣ .

(١) الرين : التغطية .

* وقال ذو النون : إنَّ لله عباداً يبلغونَ في درجة الصفاء مقاماً تقعُ فِراستهم على سرِّ الناس ، فيعرفون السُّعداءَ من الأشقياء ، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران : ٧٤] من عباده .

* وقيل لأبي عبد الله : ما فضلُ أهل الصفاء على غيرهم؟ قال : رَفْعُ الحجابِ عنهم ، واتّهامُ الوشاة فيهم ، وإفشاءُ الأسرار إليهم . قيل : هل يكون لأهل الصفاء حلاوةُ العبادة؟ قال : أمّا قبل رؤية المِنَّة فنعم ، وأمّا قبل رؤية العبادة فلا ، بلا تعليق .

* وقيل لبعضهم : متى يعرفُ الرَّجلُ أنّه من أهل الصفاء؟ فقال : إذا سترَ جميعَ المعاصي بسترِ التوبة ، وسترَ جميعَ الخيرات بذكر سترِ المنَّة ، وستر ما دونَ الله بستر الله تعالى .

* وحُكي أنَّ بُهْلُولاً[1] كان لا يأخذُ شيئاً من أحدٍ ، وإنْ أكثرَ عليه الإلحاح ، فقيل له في ذلك ، فقال : أُمرنا ألاّ نأخذَ بالواسطة ؛ لأنَّ منها ذهابُ الصفاء . قيل : وما الصفاء؟ قال : طيرانُ القلب بأجنحة الاشتياق لربِّ العَالمين .

ويقال : أدنى أوصاف أهل الصفاء عيشُ القلب مع الله بلا علاقة ، ومن لم يعرفْ نفسَه بالفقر ، والفاقة ، والعجز ، والضعف ، لم ينلْ صفوةَ اليقين ، وإذا كان العبدُ لله تعالى كأن لم يَكن ، يكن الله تعالى له كما لم يزل .

* وقال أبو سليمان : طُوبى لمن صحّت له خطوةٌ واحدة ، لا يُريد بها إلا الله تعالى .

---

(١) بُهلول بن عمرو الصيرفي ، أو وهيب ، من عقلاء المجانين ، له أخبار ونوادر وأشعار ، ولد ونشأ في الكوفة ، واستقدمه الرشيد وغيرُه من الخلفاء لسماع كلامه ، كان من المتأدبين ، ثم وسوس فعُرف بالمجنون . توفي سنة (١٩٠ هـ) « الأعلام » .

* وقال الإمام معروفُ الكرخي[1] رضي الله عنه : بينا أنا أسيرُ في البادية ، لم يكن معي أحدٌ من البشر ، إذ نزلَ شخصٌ من السماء ، فسألني : ما الصفاء؟ فقلت : صدقُ الوفاءِ . فقال : صدقتَ . ثم عرجَ وهو يقول : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ ﴾ [الدهر : ٧] .

أما ترى أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام وضعَ قدماً واحداً بصدق الوفاء على صخرةٍ صمّاء ، فأمر الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وحقيقة الصفاء التخلُّقُ بخُلُقِ المصطفى ﷺ ، والإقتداءُ بأصحابه أُولي الصدق والوفاء ، والانقطاعُ إلى الملك الأعلى .

* وقيل : حقيقة الصفاء طرحُ القلبِ على بساط الامتنان ، واستقامةُ السرِّ مع الملك الديان .

* وقيل : تصفيةُ القلوبِ لعلاَّمِ الغيوب .

* وقيل : صدقُ الافتقار مع دوامِ الاضطرار ، وتركُ الاختيار مع حسن الانتظار .

* وقيل : فناءُ الكلّية تحت كمالِ القدرة ، وطيرانُ الهمَّةِ بأجنحة الشوق نحو ربِّ العزة .

* وقيل : هجرةُ السرِّ إلى الله من المراتب والدرجات ، والفرارُ إلى الله من المنازل والمقامات .

* وقيل : هي مُجانبة دواعي النفس ، ومُتابعة دواعي الروح ، وإخمادُ صفاتِ البشرية تحت صفات الربوبية .

---

(١) معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ ، أحد أعلام الزهاد والمتصوفة ، كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم ، ولد في كرخ بغداد ، ونشأ ببغداد . اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به ، حتى الإمام أحمد ابن حنبل كان في جملة من يختلف إليه توفي سنة (٢٠٠ هـ) « الأعلام » .

الحديث الخامس والعشرون

أخبرنا شيخنا القاضي العدل الثقة المقرئ الكبير الشيخ أبو الفضل علي الواسطي رحمه الله رحمةً واسعة ، قال : أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد الكاتب ، قال : أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد الغيلان ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، قال : أخبرنا محمد بن غالب ، قال : حدّثني عبد الصمد بن ورقاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن سعيد ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ قال :

« من تصدَّقَ بعدلٍ من كسبٍ طيبٍ ، ولا يطعمه إلاّ لله تعالى ، فإنَّ اللهَ يقبلها بيمينه ، ويُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكمْ فلُوَّه[1] ، حتى تكونَ مثلَ الجبلِ »[2] .

حثَّ هذا الحديث الشريف على بذل المعروف ، ونبّه على لزوم الإخلاص فيه ، وبشَّرَ بعد الإخلاص بمضاعفته وقبوله ، وكل هذا انطوى في الإخلاص ، وهو نورُ العارفين بالله ، إذِ الأعمال بغير الإخلاص كلُّها ظلمةٌ ، وبه تتنوَّرُ ، وبذلك ارتفعتْ هممُ العارفين في الأعمال إلى

---

(١) الفلُوُّ : المُهر الصغير ، وقيل : هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر . النهاية في غريب الحديث (فلا) .

(٢) رواه البخاري ٣/ ٢٢٠ في الزكاة ، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ، ومسلم (١٠١٤) في الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، والموطأ ٢/ ٩٩٥ في الصدقة ، باب الترغيب في الصدقة ، والترمذي (٦٦١) و(٦٦٢) في الزكاة ، باب ما جاء في فضل الصدقة ، والنسائي ٥/ ٥٧ في الزكاة ، باب الصدقة من الغلول .

الإخلاص ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر : ٣] .

ألا إنَّ المتحققين بالتصوف صفتْ سرائرهم ، وحسنتْ شعائرهم ، همُّهم ربُّهم ، وخُلُقُهمُ سنةُ نبيِّهم ، عكس أهلِ المُروق من أصحاب الدعوى .

أيْ بُني ، إذا نظرتَ في القوم الذين ادَّعوا التَّصوفَ اليومَ ، رأيت أن أكثرَهم من الزنادقة ، والحَرورية[1] ، والمبتدعة ، ورأيتهم أكثرَ الناس جهلاً وحمقاً ، وأشدَّهم مكراً وخديعة ، وأعظمَهم عُجباً وتطاولاً ، وأسوأهم ظناً بأهل الزُّهد والتقوى ، وأهلِ الصدق والصفاء .

وعلاماتُ أهل الصفاء أدقُّ من أنْ يصفَها واصفٌ ، وأعلى من أن تحتملها الأوهام .

فمن علامةِ الصُّوفي أن يصفوَ في أقواله وأفعاله وحركاته من أدناس آفات النفس ، والخَلْق ، والدنيا ، وتصفو خواطرُه من غبار الإعراض عنه تعالى ، والنظر منه إلى من سواه .

وأيضاً من علاماته أن يكونَ مع النفسِ بلا نفسٍ ، ومع الخلقِ بلا خلق ، ومع القلبِ بلا قلب ، ومع الحال بلا حال ، ومع الوقت بلا وقت ، ويكون مستقيماً على بساط أمر الله ، مُتذلِّلاً تحت جلالِ عظمة الله ، مُستكفياً مستغنياً به عن غيره ، قلبُه مَضروبٌ بسياطِ خوف القطيعة والهجران ، وسرُّه مضروبٌ بسياط خشية البُعد والحرمان ، نفسُه منوَّرةٌ بنور الخدمة ، وقلبُه منوَّرٌ بنور المحبَّة ، وسرُّه منوَّرٌ بنور المعرفة .

ومن علامته أيضاً أن يكون فؤادُهُ طائراً بأجنحة الشوق ، وأركانُه مستقيمةً على طريق الحقِّ بالحقِّ للحقِّ ، مع حسن الانتظار ، وعلى غايةِ

---

(١) الحرورية نسبة إلى حروراء ، وهي قرية بظاهر الكوفة نزل بها الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم . انظر معجم البلدان ، واللباب في تهذيب الأنساب .

الانكسار ، مُقبلاً بالكلّية على مَليكه ، مع تركِ الالتفات منه إلى مُلكه ، مع الفرار من المخلوقين ، لشدَّةِ وجدانه حلاوة الأُنس بربِّ العالمين ، رجوعُهُ إلى الحقِّ ، واعتماده على الحقِّ ، وقرارُه مع الحقِّ ، من غير أنْ يلتفتَ منه إلى الخَلْق ، وحشيُّ القلب ، سماويُّ الحديث ، ربانيُّ العلم ، فرداني الهمَّة ، روحاني العيش ، نورانيُّ القَدَر[1] ، وحداني المعنى ، جميعُ إرادته تحتَ إرادة المعبود ، شاكراً لله في السرِّ والإعلان ؛ كي لا يقع في أبحر الكفران ، ذاكراً لله بالقلبِ واللِّسان ، في كلِّ وقتٍ وأوان ؛ كيلا يتيه في مفاوز النسيان ، يعلمُ أنَّ المولى يراه ، ومن فوق العُلى يَرعاه ، فهو فانٍ تحت عظمة نظره ، متلاشٍ بكلّيته تحت كمالِ قدرته ، مستغرقُ صفاء أوقاته في أبحر امتنانه ، مع سقوطِ كلِّ حلاوة ، غير حلاوة محبَّة ربِّه ، مُستقيمٌ على صدق العبودية ، من غير رؤية العبودية ، فارغُ القلب عن الشُّغل بغير الله ، مع الاتّكال بالقلب على الله ، متواضعٌ لأهل الإيمان ، قائمٌ على بساط الأحزان ، حتى يأتيه اليقين بالعفو والرضوان ، لسانُهُ مثلُ قلبه ، يَصْدُقُ في جميع أقواله وأفعاله ، لا كما قال الله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢] ، شاكرٌ لقليل النِّعمة ، صابرٌ على كثير الشدَّة ، راضٍ بقضاء ربِّ العزة ، دائمٌ على احتراسِ القلب لله بالحجَّة ، لا يخافُ دونَ الله ، ولا يرجو غير الله ، ولا يريدُ إلاّ الله ؛ لما علم أنَّه لا مُضرَّ ولا نافع ، ولا رافع ولا دافع ، ولا معزَّ ولا مُذلَّ إلا الله ، وحده لا شريك له ، متابعٌ لسنة المصطفى ﷺ وأخلاقِه ، ومذاهبِ أصحابه ، خائفٌ من سوء العاقبة ، مشتغلٌ بالمُقدِّرِ إذا اشتغل الناس بالتقدير ، وبالمُدبِّر إذا اشتغلوا بالتدبير ، جالسٌ على بساطِ الخدمة مع الحياء ، مُتَّكِئٌ على سرير الفقر والفاقة ، مشرفٌ على غُرَفِ القُرب والمُشاهدة ، شاربٌ بكأس الأُنس والمحبَّة ،

(١) أي مؤمن بقدر الله تعالى ، لا يرى الأفعال من المخلوقات إلا من طريق النسبة (الأستاذ خياطة) .

يُطيلُ صمتهُ ، ويكظمُ غيظه ، ويغلبُ شهوته ، ويفارقُ راحته ، من غير أن يلتفتَ إلى معاملةِ قلبه ، فارغٌ من مصالح نفسه ، تاركٌ لجميع راحاته وشهواته ، خائفٌ من الوحشة بينه وبين حبيبه ، يكونُ أحسنَ الناس للناس ، وأتقاهم ، وأصدقَ النَّاس وأصفاهم ، وأعقلَ النَّاس وأرعاهم ، ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار ، وإلى النفس بعين الاحتقار ، وإلى الآخرة بعين الاستبشار ، وإلى الربِّ بعين الافتخار ، في الاستقامةِ كالجبل الرَّاسي ، لا تحرّكُهُ الرِّياح الهائجة ، لا يَطلبُ ما ليس له ، ولا يهتمُّ بما قُسم له ، فارغٌ عن خدمة المخلوقين ، مُشتغلٌ بخدمة ربِّ العالمين ، لا يُعرضُ عنه ببلواه ، ولا يختارُ حبيباً سواه ، نفسُه طاهرةٌ من كلِّ خطأ وزلَّة ، وقلبه مُتبرىءٌ من كلِّ سهوٍ وغفلة ، وسرُّه من كلِّ حولٍ وقوَّة ، بدون الله سبحانه لا يرضى ، طعامهُ طعامُ المرضى ، وبكاؤه بكاء الثَّكلى ، لا يتوكَّلُ قلبُه إلاّ عليه ، ولا يسلِّمُ إلا إليه ، ولا يَشكرُ النِّعمةَ إلاّ له[1] ، ولا يطلبُ الحاجةَ إلاّ منه ، مُستأنسٌ بالله في جميع الأحوال ، منقطعٌ إليه في جميع الأعمال ، وذِكْرُ الله حديثُه في جميع المقال ، تاركُ اختياره إلى ذي الجلال ، نومُهُ قليل ، وحزنُهُ طويل ، وبدنُهُ نحيل ، وأنيسُهُ الملكُ الجليل ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) أي ولو شكر الناس بوصول النعمة له على أيديهم ، فإنه مراقب أنها منه تعالى ، فيشكر الله حقيقةً ، ويشكر الناس امتثالاً لقوله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (الأستاذ خياطة) .

الحديث السادس والعشرون

أخبرنا شيخنا العارف بالله خالي الشيخ أبو بكر بن يحيى النجاري الأنصاري الواسطي رضي الله عنه ، قال : حدَّثني الأستاذ أبو القاسم علي بن أحمد البُسري ، قال : أنبأنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي ، قال : أنبأنا محمد بن مَخْلد العطّار ، قال : أنبأنا محمد بن علي بن خلف ، قال : أخبرنا عَمرو بن عبد الغفار ، عن حسن بن حُيي ، وسفيان الثوري ، عن سعد بن سعيد أخي يحيى بن سعيد عن أبي أيوب ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ صامَ رمضانَ ، وأتبعهُ ستاً من شوالٍ كانَ كصيامِ الدَّهر »(١) .

وسرُّ ذلك استغراقُ العبد في أداء الفرض ، وانغماسه في السُّنة المحمدية ، فإنَّها بركةُ الوقت ، وليس عند العارف أهمُّ من استحصال بركةِ الوقت ، بفرضٍ أو سنة أو جمعٍ بينهما ، وهناك مُنتهى الهمم ؛ فإنَّ السُّنة المحمدية روحُ العارف ، بها يقومُ ، وبها يقعد ، وهي منارُ ألبابِ العارفين ، فإنَّ مُشيِّدَ أركانها ، ورافعَ بنيانها ﷺ لم ينطق عن الهوى ، بل هو جلجلةُ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، ولورّاثه العارفين هذه الحصَّةُ من بركةَ اتِّباعه ، أرواحُنا وأرواح العالمين فداه .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ قلوبَ أهلِ المعرفة خزائنُ الله في أرضه ، يضعُ فيها

---

(١) رواه مسلم (١١٦٤) في الصيام ، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان ، والترمذي (٧٥٩) في الصوم ، باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال ، وأبو داود (٢٤٣٣) في الصوم ، باب في صوم ستة أيام من شوال .

ودائعَ سرِّه ، ولطائفَ حكمته ، وحقائقَ محبَّته ، وأنوارَ علمه ، وآياتِ معرفته ، التي لا يَطَّلعُ عليها مَلَكٌ مُقرَّب ، ولا نبيٌّ مُرسل ، ولا أحد دون الله بغير إذنه سبحانه .

فينبغي أن يكونَ العارفُ عالماً بصلاحه وفساده ، مُستقيماً على معاملته ، عارفاً بربحه وخسرانه ، حافظاً له من مُكابدة عدوه ، مُستعيناً بالله في ذلك كلِّه ، وألاّ يدعَ في قلبه مكاناً لغيره ؛ فإنَّ الله تعالى إذا اطَّلعَ على قلبٍ فرأى فيه غيرَه مقتَه ، وخذله ، وسلَّط عليه العدو .

ومعاملة القلوب لله خاصة ، ومعاملةُ الأركان مختلطة ، ومعاملةُ القلوب تُقبلُ بغير الأركان(١) ، ومعاملة الأركان لا تُقبل بدون القلب ، ولا تستوجبُ الثواب ، فإنْ كان العبد في معاملة القلبِ مقصّراً ، وفي معاملة الأركان موفراً ، حُكم على توفير أحكامه بتقصير قلبه ، وإن كان في معاملةِ القلب موفراً ، وفي معاملة الأركان مقصراً ، حُكم على تقصير أركانه بتوفير قلبه .

* رُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام مرَّ بقومٍ من بني إسرائيل قد لبسوا المُسوح ، وقد جعلوا التُّرابَ على رؤوسهم ، ودموعهم مُنحدرةٌ على خدودهم ، فبكى عليهم رحمةً لهم ، وقال : إلهي ، أمَا ترحمُ عبادك؟ أما ترى حالَهم؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، انظر هل نفدتْ خزائني؟ أوَ لستُ بأرحم الراحمين؟ كلا ، ولكن أعلمهم بأني بذاتِ الصدور خبير ، يَدعونني بقلوبٍ خالية عنّي ، مائلةٍ إلى الدنيا .

* ورُوي أنه عليه السلام مرَّ برجلٍ ساجدٍ على صخرةٍ منذ ثلاث مئة

---

(١) يعني أن العزم على صالح العمل بنية صحيحة مرضية تقبل عند العجز عن كل العمل أو إكماله ، ولا يقبل العمل بدون نية صحيحة خالصة ، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] (الأستاذ خياطة) .

سنة ، كان يبكي ، ودموعُه تجري على الأودية ، فوقفَ عليه ، وبكى لبكائه ، وقال : يا إلهي ، أمَا ترحم عبدَك؟ فقال الله تعالى : لا أرحمُهُ . قال : ولِمَ يا إلهي؟ قال : لأنَّ قلبَه يستَريحُ إلى غيري ، وكان له جبَّةٌ يستترُ بها من الحرِّ والبرد .

* وقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : « لا يَستقيمُ عملُ العبد حتى يَستقيمَ قلبُه ، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانه » .

* وقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ في الجسد مضغةً ، إذا صلحتْ صلحت الأعضاءُ كلُّها ، ألا وهي القلب »[1] .

وقال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى ، قُلْ لبني إسرائيل أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلاّ بقلوبٍ وجلةٍ ، وأبصارٍ خاشعة ، وأبدانٍ نقيَّة ، ونيَّةٍ صادقة .

* قال يحيى بن معاذ : قلبُ المؤمنُ مُضغةٌ جوفانية ، حشوها جوهرةٌ ربَّانية ، حولها روضةٌ فردانية ، تحتها ساحةٌ نورانية ، والله تعالى ناظرٌ إليها في كلِّ لحظةٍ بالرحمة والشفقة ، ويحولُ بينها وبين ما يشغله عنه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١١] .

* وقيل : معاملةُ القلوب أمرٌ شديدٌ ، والثَّباتُ عليها أشدُّ وأصعب .

---

(١) رواه البخاري ١/١١٧ في الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، وفي البيوع ، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات ، ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، وأبو داود (٣٣٢٩ ، ٣٣٣٠) في البيوع ، باب في اجتناب الشبهات ، والترمذي (١٢٠٥) في البيوع ، باب ما جاء في ترك الشبهات ، والنسائي ٧/٢٤١ في البيوع ، باب اجتناب الشبهات في الكسب . عن النعمان بن بشير بلفظ : « ألا إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات . . . وإن في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب » .

* قيل لبعض أهل المعرفة : عبدٌ فَقَدَ قلبَه متى يجده؟ قال : إذا نزل فيه الحقُّ . قال : متى ينزل؟ قال : إذا ارتحل عنه ما دون الحقِّ .

* ومعاملة القلوبِ على عشر مدارج : أولها الخطرات ، ثم حديث النَّفس ، ثم الهمُّ ، ثم الفكر ، ثم الإرادة ، ثم الرِّضا ، ثم الاختيار ، ثم النيَّة ، ثم العزيمة ، ثم القصد ، حتى يبلغ إلى عمل الظاهر .

فمن قام لله تعالى فحفظَ معاملة القلب عند الخطرات ، فهو على مدارج الصدِّيقين .

ومن قامَ لله تعالى فحفظَ معاملةَ القلب عند حديث النفس فهو على مَدارج المقرَّبين .

ومن قامَ لله فحفظَ معاملة القلبِ عند الهمِّ فهو على مَدارج الأوّابين .

ومن قام لله على حفظ معاملة القلب عند الفكرة فهو على مدارج المخلصين .

ومن قامَ لله تعالى على حفظ معاملة القلب عند الإرادة فهو على مدارج المُريدين .

ومن قامَ لله فحفظ معاملةَ القلب عند الاختيار فهو على مدارج المتَّقين .

ومن قامَ لله فحفظَ معاملة القلب عند النيَّة فهو على مدارج الزَّاهدين .

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند العزمِ فهو على مدارج المُنيبين .

ومن قام لله فحفظ معاملةَ القلب عند القصدِ فهو على مدارجِ المجتهدين .

ومن قام لله تعالى فحفظَ معاملةَ القلب على عملِ الظاهر فهو على مدارج العابدين من عامَّة الموحدين .

* وقال إسحاق بن إبراهيم : لأنْ تردَّدَ قلبُك إلى الله تعالى ذرةً خيرٌ لك من جميع ما طلعتْ عليه الشمس .

وما من أحدٍ صفا قلبُه من أدناس الشهوات ، وطهَّره من غُبار الغفلات ، ونقّاه من كدورات الغوايات إلاّ أطلعه اللهُ على غاية الغايات .

* وقال بكر بن عبد الله في معنى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق : ٣٣] ، قال : الذي يمشي ببدنه على الأرض ، وقلبُه معلّقٌ بالله تعالى .

* وقيل لأبي عبد الله : ما القلبُ السليم؟ قال : قلبٌ مُنقطعٌ من علائق الدنيا ، مملوءٌ من حبِّ المولى ، لا يَشكو من الشدائد والبَلوى ، ولا يهتكُ أستار الصيانة والتَّقوى .

* ويقال : من لم يكن بينه وبين الله معاملةٌ سرية كان مُسيئاً ، وإن كان مُحسناً ، ومن لا يرى أنَّ الكونين بما فيهما بسير قدرته ، وسريع لحظته ، لم ينل معاملةَ القلب .

* وقال أبو سعيد الخرّاز : اعلم أنَّ معاملةَ القلب هي تجديدُ السرِّ مع الانفراد به ، وملاحظةُ القلب على دوامِ حفظ الأوقات مع صدق الحال ، من غير التفاتٍ منه إلى الوقت والحال .

* وقال أبو الدرداء : إن لله تعالى عباداً تطيرُ قلوبُهم إلى الله اشتياقاً لا يدركُها البرقُ الخاطف .

* ويُروى أنَّ النبي ﷺ قال : « ما سبقكم أبو بكر بكثرةِ صلاةٍ ولا صيام ، ولكن بحقٍّ وقرَ في قلبه »(١) .

إن الله تعالى لا يردُّ القليلَ لقلّته ، ولا يقبلُ الكثيرَ لكثرته ، ولكن إنّما يتقبّل الله من المُتّقين .

---

(١) رواه علي القاري في الأسرار المرفوعة (٤٧٦) طبعة مؤسسة الرسالة .

* ويقال : ليسَ على مقامِ الصدق من تعلَّقَ قلبُه بالمقام ، ولكنَّ الصادق مَن تعلَّقَ قلبُه بربِّ المقام مجرداً ، حتى لا يَرى مع الله غيرَ اللهِ أحداً .

* ويقال : إذا صارتِ المعاملةُ إلى القلوب استراحتِ الأبدان .

* ويقال : لا تكونُ معاملةُ القلب إلاّ لمن كان له قلبٌ صافٍ ، ليس بساهٍ ، صحيحٌ ليس بجريح ، بصيرٌ ليس بضرير ، فريدٌ ليس بطريد ، طالبٌ ليسَ بهارب ، قريبٌ ليس بغريب ، عاقلٌ ليس بغافل ، سماويٌّ ليس بأرضي ، عرشيٌّ ليس بوحشي .

* وقال ثابت النَّسَّاج : قرأت القرآن سنينَ بالخوف ، فلم أجدِ القلب ، ثم قرأته بالرَّجاء ، فلم أجدِ القلب ، ثم قرأته بتجريد القلبِ عن كلِّ ما دون الله تعالى ، فعند ذلك وجدته ، ورأيتُ عند وجوده الولايةَ الكُبرى ، والعزَّة العظمى ، والمراتب العليا .

* وقال الله تعالى في بعض الكتب : القلوبُ بيدي ، والحبُّ في خزائني ، فلولا حُبّي لعبدي ما قَدِرَ العبدُ أنْ يُحبَّني ، ولولا ذكري له في الأزل ما قَدِرَ أنْ يذكرني ، ولولا إرادتي إيّاه في القدم ما قدر العبد أنْ يريدني .

* قيل : إن عارفاً رأى رجلاً يدورُ حول المسجد ، فقال له : يا هذا ، ما تَطلبُ؟ قال : أطلبُ موضعاً خالياً أُصلي فيه . فقال : خلِّ قلبكَ عمَّا دون الله ، وصَلِّ في أيِّ موضعٍ شئتَ .

* ويقال : بقدر إقبالك على الله يكونُ قربُ القلب منه ، وما اطَّلعَ اللهُ على قلبِ عبدٍ فرأى فيه غيرَه إلاّ عذَّبه الله به ، ووَكَله إليهِ .

* وقال يحيى بن معاذ : القلبُ إذا وضعتَه عند الدنيا خاب ، وإذا وضعته عند العُقبى ذاب ، وإذا وضعته عند المولى طاب .

* وقال : الدُّنيا خرابٌ ، وأخربُ منها قلبُ من يَعمرُها ، والآخرةُ دار عمران ، وأعمرُ منها قلبُ من يطلبها .

* وقال : مَفاوزُ الدنيا تُقتطعُ بالأقدام ، ومفاوزُ الآخرة تُقتطع بالقلوب .

* وقال : خرابُ النَّفسِ من عمارة القلب ، وعمارةُ النَّفسِ من خراب القلب .

* سُئلَ واحدٌ من أبناء القلوب : ما لَكَ لا تتكلَّم؟ فقال : قلبي يتكلَّم . قيل : مع من؟ قال : مع مُقلِّبِ القلوب .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث السابع والعشرون

أخبرنا الشيخ الجليل العارفُ بالله شيخُنا أبو الفضل عليُّ الواسطي القُرشي يعرف بابن القارى رضي الله عنه ، قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفّر الداودي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السَّرخسي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله بن يوسف الفِربْري ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري ، قال حدَّثنا بشر بن خالد ، قال : حدّثنا محمد بن جعفر ، عن شُعبة ، عن سُليمان ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال :

« المرءُ معَ مَنْ أَحَبَّ »[1] .

وفي هذا الحديث الشريف من الإلزام بِمحبَّة أحبابِ الله ورسول الله ﷺ ما فيه بلاغٌ للمُوقنين ، وهدىً للمُتَّقين ، ونورٌ للعارفين ؛ فإنَّ من تدبَّرَ سرَّ المعية التي أفصحَ بها هذا النصُّ الأشرف ، انسلخَ إلاّ عن محبَّة الله تعالى ، ومَحبَّةِ من أحبَّه اللهُ ، وأحبَّ اللهَ .

وكذلك العارفون رضي الله عنهم ، والعارفون[2] هم أهلُ القلوب المُنيرة ، أصحاب صفاء السريرة ، والعُمْدَة على القلوب .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ الله تعالى ذكرَ في مُحكمِ كتابه للعباد ، أمرَه ونهيه ، ووعدَه ووعيده ، وترغيبَه وترهيبه ، وقضاءَه وتقديره ، وحكمَه

---

(١) تقدم تخريجه صفحة ٨٥، الحديث الثالث عشر. عن أبي موسى. رواه البخاري ، ومسلم ، وغيرهما ، عن أنس ، وابن مسعود ، رضي الله عنهما .

(٢) في الأصل : ومن العارفين .

وتدبيره ، ومشيئته في خلقه ، وضربَ الأمثال ، وذكرَ آلاءه ونعماءه ، ولطائفَ صنعه ، وكمالَ قدرته ، وعظيمَ ربوبيته . ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق : ٣٧] ، أشهدَ في هذه الآية جميعَ العباد شرفَ مراتب أبناء القلوب ، وبيّنَ فضلَهم على من دونهم .

قال بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، أي : قلبٌ واثقٌ بجميع ما ذكره الله سبحانه في كتابه من الوعد والوعيد ، وغيرهما .

وقال بعضهم : لمن كان له عقلٌ يَزجره عن جميعِ الضلالات ، والغوايات في جميع الحالات .

وقال بعضهم : لمن كان له ذهن يَفِرُّ به عن الشِّرك والشَّكِّ .

وقال بعضهم : لمن كان له يقينٌ يُسقطُ عنه وثائق الغرور ، في جميع الأمور ، إلى أن يصلَ إلى الملك الغفور .

وقال بعضهم : لمن كان له سرٌّ يتلاشى معه جميعُ أوصاف العبودية ، تحت إشارة الربوبية ، عند مُشاهدة الحقِّ .

وقال بعضُهم : لمن له استقامةُ السرِّ مع الحقِّ ، من غير التفاتٍ منه إلى ما سواه .

وقال بعضهم : لمن كان له قلبٌ مُفرد لتفرُّد الفرد ، وإنَّ الله تعالى زيَّنَ قلوبَ العارفين بزينة المعرفة كرماً وامتناناً ، وزيَّنَ قلوبَ المُريدين بالعظمة والهيبة رحْمةً وإحساناً ، وحجبَ قلوب الغافلين بالجهل والغفلة محنةً وخذلاناً ، وطبعَ على قلوبِ الكافرين بالإبعاد والنكرة طرداً وحرماناً .

* والقلوب ثلاثةٌ :

قلب يطيرُ في الدُّنيا حول الشهوات ، وقلبٌ يطير في العُقبى حول الكرامات ، وقلبٌ يطيرُ في سِدْرَةِ المنتهى حول الأُنس والمناجات .

فقلب معلَّق بالدنيا ، وقلبٌ مُعلّقٌ بالعُقبى ، وقلبٌ معلّق بالمولى ، وقلبٌ حريق ، وقلبٌ غريق ، وقلب سحيق ، وقلبٌ مُنتظرٌ للعطاء ، وقلبٌ منتظرٌ للرضا ، وقلب منتظر للقا ، وقلب مَشروح ، وقلبٌ مجروح ، وقلب مطروح ، وقلب مُنيب ، وهو قلبُ آدم عليه الصلاة والسلام ، وسليم وهو قلبُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومُنير وهو قلب محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث الثامن والعشرون

أخبرنا شيخُنا القاضي الثقة المقرىء الجليل الشيخ أبو الفضل علي الواسطي القرشي رحمه الله رحمةً واسعةً ، قال : أخبرني أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي ، قال : أخبرني عبد الله أحمد السرخسي ، قال : حدّثني أبو عبد الله محمد الفِربريِ ، قال : حدّثني أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، قال : حدّثني إسحاق بن إبراهيم ، قال : أخبرنا الحسين ، عن زائدة ، عن عبيد الملك ، عن مُصعب بن سعد ، عن أبيه قال : تعوّذوا بكلماتٍ ، كانَ النبيُّ ﷺ يتعوَّذُ بهنَّ :

« اللَّهُمَّ ، إنّي أعوذُ بكَ منَ الجُبنِ ، وأعوذُ بك منَ البُخلِ ، وأعوذُ بكَ من أن أُرَدَّ إلى أرذلِ العُمُرِ ، وأعوذُ بكَ من فتْنةِ الدنيا وعذابِ القبرِ »[1] .

استعاذ ﷺ من القواطع عن الله تعالى ؛ فإنَّ الجُبنَ مُقعدٌ عن قول الحقّ ، والبخلَ مقصّرٌ عن طلب الحقّ ، وأرذلَ العمر صارفٌ عن بذلِ الهمّة في الحقّ ، وفتنةَ الدنيا قاطعةٌ عن الحقّ ، وعذابَ القبر نتيجةُ أُولئك ، والعياذ بالله تعالى .

وفي مضمون هذه الاستعاذة الشريفة المحمَّدية إرشادٌ بإعلاء الهمَّةِ عن

---

(1) رواه البخاري ١١/ ١٥٤ ، في الدعوات باب الاستعاذة من أرذل العمر ، وباب التعوذ من البخل ، وباب التعوذ من عذاب القبر ، وباب التعوذ من فتنة الدنيا ، وفي الجهاد ، باب ما يتعوذ به من الجبن ، والترمذي (٣٥٦٢) في الدعوات ، باب في دعاء النبي ﷺ وتعوذه في دبر كل صلاة ، والنسائي ٨/ ٢٦٦ في الاستعاذة ، باب الاستعاذة من فتنة الدنيا .

الجبنِ والبخل ، وحثٌّ عن التَّجرُّد إلى الله تعالى ، وهذا بغيةُ العارفين ، اللَّهُمَّ وفّقنا لما تحبُّ وترضى يا مُصلحَ الصالحين ، يا وليَّ المُتَّقين ، يا دليلَ المتحيّرين ، يا أنيسَ العارفين ، يا أرحم الراحمين .

أيْ بُني ، اعلمْ أنَّ العبدَ إذا علمَ أن الله سبحانه حكيمٌ فيما حكم ، وقديرٌ عالمٌ بما قضى ودبّر ، وعرفَ أنَّه جاهلٌ بالمحبوب والمكروه ، رضي عن الله في حكمته وقضائه ، والرِّضا هو سكونُ القلب إلى الحكيم ، وتركُ الاختيار مع التسليم ، ولا شيءَ أشدُّ على النفس من الرِّضا بالقضا ، لأنَّ الرِّضا بالقضا يكونُ على خلافِ رضا النفس وهواها ، فطُوبى لعبدٍ آثرَ رضا الله تعالى على رضا نفسه .

* ورُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول في مُناجاته : إلهي ، خَصصتني بالكلام ، ولم تكلِّمْ بشراً قبلي ، فدُلَّني على عملٍ أنالُ به رضاك ، فقال الله تعالى : يا موسى ، رِضائي عنك رضاكَ بقضائي .

* وقال الدَّاراني : أرجو أن أكون قد أُعطيتُ من الرِّضا طرفاً ، وذلك أنَّ الله تعالى لو أدخلني النارَ لكنتُ بذلك راضياً ، وأنَّ أحقَّ النَّاسِ بالرِّضا أهلُ المعرفة ، وهو بابُ الله الأعظم .

* ورُوي في بعض الكتب : أنَّ جبريلَ عليه الصلاة والسلام كان يهبطُ الأرض ، فرأى رجلاً عليه أثرُ السَّكينة ، فقال : يا ربُّ ، ما أحسن هذا الرجل! فقال الله تعالى : يا جبريل ، انظر اسمَه في اللَّوحِ في أسماء أهل النار . فقال : إلهي ، ما هذا؟ فقال : يا جبريل ، إني لا أُسأل عمّا أفعل ، وأنَّه لا يبلغُ أحدٌ من خَلقي علمي إلا بما شئت . فقال جبريل : يا ربُّ ، أتأذنُ لي أن أُخبره بما رأيت؟ قال : لك الإذن . فهبط جبريلُ وأخبره بحاله ، فخرَّ الرَّجلُ ساجداً ، وكان يقول : لك الحمد يا مولاي على قَضائك وقدرك ، حمداً يعلو حمدَ الحامدين ، ويزيدُ على شُكر الشاكرين . قال : فما زال يحمدُ الله تعالى حتى ظنَّ جبريلُ أنَّه لم يسمع ما قال ، فقال : يا عبد الله ، وهل سمعتَ ما قلتُ لك؟ قال : نعم ،

أخبرتني أنَّكَ وجدتَ اسمي بين أسماءِ أهل النار في اللوح المحفوظ . قال : فما هذا الحمدُ والشكر؟ قال : سبحان الله يا جبريل ، إنَّ الله تعالى قد قضى مع كمالِ علمه ، وسعةِ رحمته وحلمه ، ولطائف ربوبيته ، وحقائق حكمته ، فمن أنا حتَّى لا أرضى ، تبارك اللهُ ربِّي ، ثم خرَّ ساجداً ، وأخذَ في التَّسبيح والتحميد ، قال : فرجع جبريلُ إلى الله ، فقال الله تعالى : ارجع إلى اللوح المحفوظ ، وانظر ماذا ترى؟ فرجع ، فإذا اسمُهُ في أسماء أهل الجنة ، فقال : يا جبريل هو ما ترى ، إني لا أُسألُ عمّا أفعل . فقال جبريل : إلهي ، ائذن لي حتى أخبره بما رأيتُ . فقال : لك الإذن . قال : فهبطَ جبريلُ ، فأخبرَه بما رأى ، قال : لك الحمد يا سيِّدي ومولاي على قضائك وقدرك ، حمداً يعلو حمدَ الحامدين ، ويزيدُ على شكر الشاكرين . فرجعَ جبريل متعجباً من كمال رضاه عن الله بكلٍّ ما حكم له .

* وكذلك رُوي : أنَّ الله تعالى أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائه : أنْ قل لعبدي فلان ابن فلان إنَّك من أهل النار . فلمَّا بلَّغَ إليه الرسالة حمدَ الله تعالى ، وقال : الحمدُ لله على ما قضى ، فالأمرُ أمرُه ، والحُكمُ حكمه . فقال الله تعالى لنبيِّه : الْحَقْ به ثانياً ، وأخبره بأني قد غفرتُ لك ، حيث رضيتَ بقضائي ، فبلَّغ الرِّسالة ، فشهقَ الرجلُ شهقةً ، وخرَّ ميتاً .

* وأنَّ قضاء الله تعالى على أربعةِ أوجهٍ :

الأول : قضاءُ النعمة ، فعلى العبد فيه الرِّضا والشكر .

والثاني : قضاءُ الشدَّة ، فعلى العبد فيه الرِّضا والصبر .

والثالث : قضاءُ الطاعة ، فعلى العبدِ فيه الرِّضا وذِكر المنَّة ، والقيام بالواجب إلى الموت .

والرابع : قضاء المعصية ، فعلى العبد فيه الرضا عن الله والتوبة .

* وسُئل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن القضاء والقدر ، فقال :

ليلٌ مظلم ، وبحرٌ عميق ، وسرٌ الله الأعظم ، فمن رضي به فله الرِّضا ، ومن سخط فله السخط .

* ورُوي أنَّه لما وضِعَ المنشار على رأس زكريا عليه الصلاة والسلام همَّ أن يستغيثَ بالله تعالى ، فأوحى الله إليه : يا زكريا ، إمّا أنْ ترضى بحكمي لك ، وإمّا أن أُخربَ الأرض ، وأُهلك منْ عليها . فسكت ، حتى قُطع نصفين .

* وحُكي أنَّ رابعة البصرية مرضت ، فقيل لها : أما ندعو لك طبيباً؟ فقالت : من قضى عليَّ؟ قالوا : الله تعالى . قالت : أَوَ مثلي من يردُّ قضاء سيده؟!

* ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقيل له : أما ندعو لك الطبيب؟ فقال : قد رآني . قيل : وما قال؟ فقال : إنّي فعَّالٌ لما أريد .

* شكا نبيٌّ من الأنبياء بعضَ ما ناله من المكروه ، فأوحى الله إليه : كم تشكوني! ولست أهل ذمٍّ ولا شكوى ، فهكذا كان بدءُ شأنك في علمي ، فَلِمَ تسخط؟ أفتحبُّ أن أُعيد الدنيا من أجلك؟ أو أُبدّلَ اللوحَ بسببك؟ فأقضي ما يسرُّك كما تريد لا كما أريد ، ويكونُ ما تحبُّ دون ما أُحبُّ؟ فبعزَّتي حلفتُ لئن تلجلجَ هذا في صدرك مرَّةً أُخرى ، لأسلبنَّك ثوبَ النبوَّة ، ولأوردنّك النارَ ، ولا أُبالي .

* قال بعضُ الحكماء : ليس العجبُ ممَّنِ ابتُليَ فصبر ، إنما العجب ممن ابتلي فرضيَ .

* قيل لعبد الواحد بن زيد : أيُّ الرجلين أفضل ، رجلٌ أحبَّ البقاء ليطيعَ ، أو رجلٌ أحبَّ الخروج شوقاً إليه؟ فقال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنْ رجلٌ فوَّضَ أمره إلى الله ، وقام على قدمِ الصِّدقِ في الرِّضا ، فإن أبقاه أحبَّ ذلك ، وإنْ أخرجه أحبَّ ذلك ، فهذه منازل الرضا عنه ، وخُلُقُ العارف معه .

* قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما تشتهي؟ قال : ما يقضي الله .

* وقال أبو عبد الله النسّاج : إن لله عباداً يَستحيون من الصبر ، ويَسلكون مَسلك الرّضا ، وإن له عباداً لو يعلمون من أين يأتي القدرُ لاستقبلوه حبًا ورضا .

* وفي الخبر : « إن أولَ ما كتب الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من استسلمَ لقضائي ، وصبرَ على بلائي ، وشكرَ لنعمائي ، كتبته صدِّيقاً ، وبعثته يوم القيامة مع الصدِّيقين ، ومن لم يرضَ بقضائي ، ولم يصبرْ على بلائي ، ولم يشكرْ نعمائي ، فليختر ربّاً سوائي »[1] .

* يقول قائلهم رضي الله عنهم : يا نفسُ ، إنّي أسلمتُكِ إلى ربِّك ، على أنّه إن شاء جوَّعك ، وإن شاء أشبعك ، وإن شاء أعزَّك ، وإن شاء أذلَّك ، وإن شاء أحياك ، وإن شاء أماتك ، وهو أغنى وأولى بك منك ، وأنت بالكلّية له ، يا نفس ، فمالك والحكم على من له الحُكم والخَلْق والأمر .

* وقيل ليحيى بن معاذ الرازي : متى يَطيبُ عيشُ المؤمن؟ قال : إذا رضي عن الله تعالى بكلِّ ما قضى وقدَّر ، وحكم ودبَّر .

* وقيل له : متى يكون العبد راضياً عنه؟ قال : إذا قال العبدُ لربِّه : إلهي ، إنْ أعطيتني شكرت ، وإنْ منعتني رضيت ، وإنْ دعوتني أجبتُ ، وإن تركتني عبدت .

والزهد عشرةُ أجزاء ، وأعلى درجةِ الزُّهد أدنى درجةِ الورع ، والورعُ عشرةُ أجزاء ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ، واليقينُ عشرةُ

---

(١) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ، كتاب العلم ، باب الأخلاق المحمودة .

أجزاء ، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا ، لأن الرضا أعلى درجة العبودية ، وإنَّ الله سبحانه جعلَ الرّوح والراحة في الرِّضا ، وجعل الهمَّ في السخط .

* وحُكي أنَّ عطيّة[1] الحمصي قال : إن والدي قال لإبراهيم بن أدهم : يا أبا إسحاق ، لو كتبتَ من هذا الحديث كما كتبنا . فقال له : اشتغلتُ بثلاثة أجزاء ، فإن فرغتُ منها فعلتُ ما تقول . قال : وما هي؟ قال : التوكُّل على الله فيما تكفَّل به من الرزق ، وإخلاصُ العمل لله ، والرِّضا بقضاء الله ، فأمّا التوكُّل والإخلاص فقد فرغتُ منهما بعون الله ، وأمّا الرضا بقضاء الله ، فإنّي منه في شُغلٍ شاغل . قال : فبكى والدي بكاءً شديداً ، وقال : ما أبعدنا عمّا أنت فيه! هل يكون فوق الرضا منزلةٌ نقدر أن نقول فيها شيئاً .

* قال محمد بن واسع : إني لا أَغبطُ إلاّ من أصبح وليس له غداء ولا عشاء ، وهو عن الله راضٍ .

* قيل لسفيان الثوري : متى يكون العبدُ عن الله راضياً؟ قال : إذا سرَّتهُ المُصيبة كما سرَّته النعمة .

* وقال رجلُ عند الإمام الحسين رضي الله عنه : إن أبا ذرٍّ كان يقول : الفقرُ أَحبُّ إليَّ من الغنى ، والسقمُ أَحبُّ إليَّ من الصحة . فقال : رحم الله أبا ذر ، أمّا أنا فأقول : من رضي بحسنِ اختيار الله تعالى لم يتمنَّ غيرَ ما اختاره الله له .

* وقال يحيى بن معاذ : طلبتُ العلم فلم أسترح ، ثم طلبتُ العمل فلم أسترح ، فرضيتُ عن الله فغرقتُ في الراحة .

---

(١) عطية بن قيس الحمصي المعروف بالمذبوح من كبار القراء ، معمر قيل عاش ١٠٤ سنين . غزا في زمن معاوية ، وحدّث عن الصحابة . مات سنة (١٢١ هـ) . « الأعلام » .

* قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ليس الشأنُ في أكل خبزِ الشعير ، ولبسِ الصوف ، لكنَّ الشأن في الرِّضا عن الله تعالى .

سَيَكُونُ الَّذِي قَضَى ... كَرِهَ العَبْدُ أَمْ رَضِي
لَيْسَ هذا يَدُومُ بَلْ ... كُلُّ هذا سَيَنْقَضِي

* وكان مكتوباً على سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قَدْ قَضَى فِيكَ حُكْمَهُ ... فانقَضَى ما يُرِيدُهُ
فَأَرِدْ ما يَكُونُ إِنْ ... لَمْ يَكُنْ ما تُرِيدُهُ

* وكان مكتوباً على سيف عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ المَوتِ أَفِرّ ... يَوْمَ لا يُقْدَرُ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ[1]
يَوْمَ لا يُقْدَرُ لا يَأْتِي بِهِ ... ومِنَ المَقْدُورِ ما يُنْجِي الحَذِرْ

* * *

---

(١) البيت من شواهد اللسان (قدر) وروايته فيه :

من أيِّ يوميَّ من الموت أفرّ ... أيومَ لم يُقدرَ أم يومَ قُدِرْ

الحديث التاسع والعشرون

أخبرني خالي وسيدي أبو المكارم منصور الرباني البطائحي الأنصاري الواسطي رضي الله عنه ، قال : حدّثني السيد الشريف حسن بن عسلة الرّفاعي برُواق أبي ـــي أمِّ عَبيدة ، قال : حدَّثني النقيب السيد يحيى الرّفاعي ، قال : حدّثني أبي السيِّد ثابت ، قال : حدّثني أبي السيد عليٍّ الحازم الرّفاعي ، قال : حدّثني أبي السيد علي أبو الفضائل ، قال : حدّثني أبي السيد الكبير رفاعة الحسن المكي الحسيني نزيلُ إشبيلية ، قال : حدّثني أبي السيد محمد أبو القاسم ، عن أبيه السيد الحسن القاسم ، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المُحدِّثُ القطيعي ، عن أبيه السيد أحمد الأكبر ، عن أبيه السيد موسى ، عن أبيه الأمير السيد إبراهيم المرتضى ، عن أخيه الإمام علي الرضا ، عن أبيه الإمام موسى الكاظم ، عن أبيه الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن أبيه الإمام علي زين العابدين ، عن أبيه الإمام الحسين الشهيدِ بكربلاء ، عن أبيه أمير المؤمنين علي المرتضى ، عن ابن عمِّه سيِّدِ المرسلين ، وأشرف المخلوقين ، نبينا محمدٍ المصطفى ﷺ أنه قال :

« حدَّثني ربُّ العزَّةِ سبحانه وتعالى قال : كلمةُ لا إله إلاّ اللهُ حِصنِي ، فَمَنْ قالَها دَخَلَ حِصْنِي ، ومَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذابي »[1] .

هذا الحديث القدسي الذي وصلَ إلينا بالسندِ النَّبويِّ فيه من إعظام شأنِ كلمة التوحيد ما يزيدُ العبدَ إيماناً ، ويملؤه عرفاناً ، ويلزمه

---

(١) ذكره في الإتحافات السنية (٢١٩) وأمالي الشجري ١/ ٤١ .

بالمداومة على الذِّكر بهذه الكلمة التي هي روحُ التوحيد ، وما على قائلها بعد الإيمان بمبلِّغها ﷺ من بأس .

وكونها آخذةً بالعبد إلى الافتقار إلى الله تعالى ، والانقهار تحت عظمةِ فردانيته ، فلذلك صارتْ حِصناً للعبد بإذن الله تعالى .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ الغنى والفقر صفتان : صفةٌ لله ، وصفةٌ للعبد ، فصفةُ الفقر للعبد ، وهو صفة مدح ، كما أنَّ صفةَ الغنى لله ، وهو صفة مدحٍ .

والفقرُ بالحقيقة صفة العبد ، إذ لا يشوبه غنىً ، والغنى بالحقيقة صفةُ الربِّ ، إذ لا يشوبه فقر ، وإنَّ أشرفَ صفات العبد افتقارهُ إلى الله في كلِّ شيءٍ ، كما أنَّ أشرفَ صفات الربِّ استغناؤه عن العبد في كلِّ شيءٍ .

قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد : ٣٨] ، و﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] .

واعلم أنَّ الافتقار إلى الله مقسومٌ على : النفس ، والروح ، والقلب ، والسر ؛ ففقر النفس إلى الله تعالى يكون على سبيل القُرب والرضا . وفقر السرِّ إلى الله تعالى على سبيل المشاهدةِ واللقا ، فكلَّما رأى العبدُ نفسَه متحيرةً على باب عهده ووفائه ، رجعَ بالافتقار إلى باب عفوه ، وكلَّما رأى روحه مُتحيِّرةً على باب ودِّه ومحبَّته ، رجعَ بالافتقار إلى باب عنايته .

ومن حقيقة الافتقار الاستكفاءُ بالكافي ، وطرحُ النَّفسِ السقيمة بين يدي المعافي .

وأيضاً حقيقته انتظارُ السَّببِ من المُسبِّبِ ، مع رؤية السَّبَبِ والاشتغال بالمُسبِّبِ مع نسيان السبب .

وأيضاً من حقيقته دوامُ التبصص والاعتذار ، بلسانِ صدقِ الافتقار ، مع غايةِ الانكسار .

ومن حقيقته تخليصُ الأسرار من رؤية الأعمال ، وترك الاعتماد على حُسنِ الحال .

ومن حقيقته أن لا ينصرف العبدُ عنه بخلقه ولا بملكه .

* قيل لأبي عبد الله بن مُقاتل : متى يكونُ العبدُ غنياً مُحتاجاً ، وهو في غناه وحاجته محمود؟ قال : إذا كان غناه بالله عن خلقه ، وحاجتُه إلى ربّه .

* قال الشيخ أبو بكر الواسطي : إنَّ العبدَ لا يعرفُ الله حقَّ معرفته ، حتَّى لا يعرفَ الفاقةَ الكبرى . قيل : وما الفاقةُ الكبرى؟ قال : أن يعلم أنه لم يهتدِ إلى ربّه إلاّ به ، ولا ينجو من سخطه إلاّ به .

* ويُقال : الافتقارُ لواءُ أهل الولاية .

* ويُقال : الافتقارُ طرحُ النفس بين يدي الربّ ، كالصبي الرَّضيع بين يدي الأم .

ويقال : الافتقارُ فراغةٌ في رعاية ، ورعايةٌ في ولاية ، وولايةٌ في عناية ، وعنايةٌ في هداية ، فمن لا فراغةَ له لا رعايةَ له ، ومن لا رعايةَ له لا ولاية له ، ومن لا ولايةَ له لا عنايةَ له ، ومن لا عنايةَ له لا هداية له .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ الخلقَ بأسرهم فقراءُ مُحتاجون إلى الله تعالى ، أُسراءُ تحت مشيئته ، ضعفاءُ تحت علمه وقدرته ، لا يَملكون لأنفسهم ، ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً ، ولا ذلاً ، ولا عزّاً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، منصوبون بين سهامِ النِّعمة والرخاء ، موقوفون بين القطيعةِ والشقاء ، مستورةٌ عنهم خواتيمهم ، لهم الخوفُ والرجاء ، والفقرُ والدُّعاء ، والتضرُّعُ والبكاء ، فما أفقرَ من هذه صفته . وما أضعفَ من هذه حالته !

واعلم أنَّ الافتقار أجلُّ مراتب المحبّين ، وأرفعُ منازل المُنيبين ، وأزلفُ حالات المريدين ، وأعظمُ آلات الأوّابين ، وأجلُّ مقامات التائبين ، وأعلى وسائل المُقرّبين ، وهو أصلُ العبودية ، وصدرُ

الإخلاص ، ورأسُ التقوى ، ومخُّ الصدق ، وأساسُ الهدى .

فمن أراد أن يدخلَ في عُصبة أهل الافتقار ، فينبغي أن لا يهتمَّ بمصلحة نفسه وعيالِه ، وأن يتملَّقَ بين يدي الله تعالى ، وأن يكون آيساً ممّا سوى الله ، مع الافتقار إلى الله ، كرجلٍ يكون في بئرٍ مُظلمٍ ، ورأسُ البئر مسدود ، وأثرُهُ مستور ، وليسَ له في البئرِ مؤنسٌ ، ولا للخلقِ على رأسِ البئر ممرٌّ ، فهل يكون رجاؤه وافتقارُه إلى أحدٍ دون مولاه؟!

* وحُكي أنَّ رجلاً من الصالحين وقعَ في بئرٍ في البادية ، وكان ضريراً ، فمرَّتْ على رأسِ البئر قافلةٌ ، فناداهم الرَّجلُ من قعر البئر ، فهتفَ هاتف : أتستغيثُ بغيري ، وأنا غياثُ المُستغيثين؟! فسكتَ الرَّجلُ ، فإذا أهلُ القافلة سدُّوا رأس البئر ، وأرادوا أن يُخفوه ، كي لا يقعَ فيها أحدٌ ، فصارَ الرَّجلُ آيساً من نفسه ، وانقطعَ رجاؤه عن الخلق ، ثم قال : يا إلهي ، الآن لم يبقَ لي غيرُك ، وأنا فقيرٌ إليك . فسلَّط الله أسداً حتى فتحَ رأسَ البئر ، وهبطَ فيه ، فأخذَ الرَّجلُ بذَنَبِ الأسدِ ، فرفعه إلى رأسِ البئر ، فنُودي من فوقه : لا تقطعْ قلبَكَ عمّن يُنجيك بتلفٍ من تلفٍ .

واعلم أنّ الله تعالى وضع تحت قوله﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كمالَ وفاءِ صدق العبودية ، ثم عَلِمَ كمالَ ضعفِ العبد ، وعجزه ، فأعطاه كلمةً أُخرى ، وجمع له خيرَ الدَّارين ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فكلُّ حقٍّ لله تعالى على العبد تحت قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وكلُّ فقرٍ للعبد إلى الله تعالى تحت قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

* وقيل : إنَّ أعرابياً وقفَ بالموقفِ ، قال : إلهي ، إليكَ خرجتُ وأنت أخرجتني ، ولك وقفتُ وأنت أوقفتني ، وقد عصيتُ أمرك وأنت [ما] خذلتني ، ومع ذلك لا عذرَ لي ، ولا حجّة ، فإن رحمتني وعفوتَ عني ، فأنتَ أهلُ الإحسان ، ولا فقيرَ أفقر منّي يا سيدي ومولاي .

واعلم أنَّ الله تعالى كلَّفَ العباد صدقَ الافتقار ، كيلا يتجاوزوا عن حدِّ العبودية إلى حدِّ الربوبية ، ومن الإرادات العقلية إلى الإرادات الهوائية ، ومن الصفاوة الرُّوحية إلى الكُدورةِ النَّفسية ، ومن الهِمم العُلوية إلى الهمم السفلية .

قال الله تعالى لنبيِّه الأعظم عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وقال : ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

وقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

نِعْمَ صلاحُ العبد بالافتقار ، نِعْمَ الاستعانةُ بالمستعان .

نِعْمَ سببُ الوصول إلى طريق الهداية ، واللُّحوق بأهل الولاية الافتقار .

* * *

الحديث الثلاثون

أخبرنا الشيخ الثقة ، العارفُ بالله تعالى خالي أبو بكر بن يحيى النجّاري الأنصاري الواسطي رضي الله عنه ، قال : أخبرنا أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزاز ، قال : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي ، قال : أخبرنا إسحاق بن سعيد ، قال : أخبرنا محمد بن هارون ، قال : أنبأنا أبو آمنة محمد بن إبراهيم ، قال : أخبرنا محمد بن سابق ، قال : أخبرنا إبراهيم بن طهمان ، عن منصور ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِذا راحَ أَحَدُكُمْ إِلى الجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ »(١) .

هذا الحديث الشريف فيه من إعظام مناجاةِ الله الغايةُ ؛ فإنَّ العبدَ إذا صلّى ناجى ربَّه ، سيما يوم الجمعة ومشهدها ، فإنه من أعظم مشاهدةِ الحضرة .

والاغتسالُ عبارةٌ عن غسلِ القلب ، والقالب من الوجودات ، هذا مع ما فيه من فضيلة التَّطهُّر الشرعي ، وهذا سرٌّ من أسرار الاغتسال ، ولم يكنْ من حكمٍ شرعيٍّ إلاّ وفيه من الأسرار الباطنة والظاهرة ما تحيرُ له العقول .

---

(١) رواه البخاري ٢/ ٢٩٥ في الجمعة ، باب فضل الغسل يوم الجمعة ، وباب هل على من يشهد الجمعة غسل ، وباب الخطبة على المنبر ، ومسلم (٨٤٤ و٨٤٥) في الجمعة في فاتحته ، والموطأ ١/ ١٠٢ في الجمعة ، باب العمل في غسل يوم الجمعة ، والترمذي (٤٩٢) في الصلاة ، باب ما جاء في الاغتسال يوم الجمعة ، والنسائي ٣/ ٩٣ و١٠٥ و١٠٦ في الجمعة ، باب الأمر بالغسل يوم الجمعة ، وباب حض الإمام في خطبته على الغسل يوم الجمعة .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ من نظرَ في حسن تدبير الله تعالى ، ولطائف صنعه ، وكمالِ قدرته في كلِّ شيءٍ ، عَلِمَ أنَّه تعالى قائمٌ على نفسه بما كسبت ، وأنَّ نواصي العبادِ بيده ، يُقلِّبهم كيف يشاء ، وإنَّ سعادتهم وشقاوتهم في ماضي حِكمته ، لا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقِّبَ لحُكمه ، فمتى تحقَّق ذلك اعتصمَ بالله ، واستسلمَ له ، وفوَّض الكلِّية إليه ، وقامَ بقدمِ الاضطرار بين يديه ، وبقي بلا حولٍ ولا قوَّةٍ ، ولا اختيارٍ ولا تعليق ، ولا تدبيرٍ ولا سؤال ، فإنَّ راحة الدارين ، وسرورَهما في الاعتصام بالله ، وهمومهما في الاعتصام بغير الله ، ورؤيةِ الحول والقوَّة بالنفس ، ألا ترى قولَ الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

ومعاملةُ الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام في التيه مُكافأة لقوله : ﴿ لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾ [المائدة : ٢٥] .

وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : ١٢] ، أي : اخلعْ عن قلبك أهلَكَ ، وولدك ، وكلَّ ما سوى الله ، ثم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ [طه : ١٧ـ ١٨] ، أضافها إلى نفسه ، قال : ما تَصنعُ بها؟ قال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٨] ، فقال له : ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [١٩ـ ٢٠] ، قال الله تعالى : يا موسى ، هذه التي قلتَ أتوكَّأُ عليها صارتْ عدوةً لك ؛ لتعليق قلبك بغيري ، فرجعَ موسى بقلبه إلى الله تعالى ، فلمَّا علمَ الله ذلك منه قال : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ [طه : ٢١] ، وقال لنبينا عليه الصلاة والسلام : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] .

* يقول الله تعالى : ما من عبدٍ نزلتْ به بليَّةٌ فاعتصم بمخلوقٍ دوني إلاّ قطعتُ أسبابَ السماء من يديه ، ووكَلته إلى نفسه ، وما من عبدٍ نزلتْ به بليَّةٌ ، فاعتصم بي دون خلقي إلاّ أعطيته قَبلَ أن يَسألني ، واستجبت له قبلَ أن يدعوني .

* وبلغنا أنَّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : وعزَّتي وجلالي ، وعَظمتي وارتفاعي فوق خلقي ، لا يَعتصمُ عبدٌ من عبيدي بي دون خلقي ، فأعْلمُ ذلك من قلبه ، فتكيده السماواتُ السبع ، ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلاّ جعلتُ له من ذلك مَخرجاً .

وعزَّتي وجلالي ، وعظمتي وارتفاعي فوق خلقي ، لا يعتصمُ عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني ، فأعلمُ ذلك من قلبه ، إلاّ قطعتُ عنه الأسباب ، ثم لا أُبالي في أيِّ وادٍ أهلكته ، وأملأُ قلبَه شُغلاً وحرصاً ، وأملاً لا يبلغه أبداً .

* وفي الخبر : من اعتصمَ بالله ، واستعانَ به أحوجَ اللهُ إليه الناس ، وأنطقه بالحكمةِ ، وجعلهُ من مُلوك الدَّارين ، ومن اعتصمَ بمخلوقٍ دونه ، ووكلَ إليه قلبَه عذَّبه الله ، وقطعَ عنه أسبابَ الدُّنيا والآخرة .

* ورُوي أيضاً : تفرَّغوا من همومِ الدنيا ما استطعتم ، وأقبلوا إلى الله بقلوبكم ، واعتصموا به في جميع أموركم ؛ لأنَّ العبدَ إذا أقبلَ إلى الله بقلبه ، أقبلَ اللهُ بقلوبِ العباد إليه ، ومن يعتصم بالله كفاه اللهُ كلَّ مؤنةٍ .

* قيل ليحيى بن معاذ : متى يكونُ الرَّجلُ مُعتصماً بالله؟ قال : إذا قطعَ قلبَه عن كلِّ علاقةٍ موجودةٍ ومفقودةٍ ، ورضي بالله وكيلاً .

* ورُوي أنَّ الله تعالى قال لداود عليه الصلاة والسلام : ما يتعبَّدُ المتعبِّدون ، ولا يتقرَّبُ المتقرِّبون بشيءٍ أبلغ عندي من الاعتصام والتسليم .

* وقال عامرُ بن عبد قيس[1] لأحدِ العارفين : ادعو الله لي . قال :

---

(١) عامر بن عبد الله ، المعروف بابن عبد قيس العنبري تابعي ، من بني العنبر . قال أبو نعيم : هو أول من عرف بالنسك من عبّاد التابعين بالبصرة . هاجر إليها وتلقن القرآن من أبي موسى الأشعري حين قدم البصرة ، وعلّم أهلها القرآن ، فتخرج عليه في النسك والتعبد . وهو من أقران أويس القرني ، وأبي مسلم الخولاني مات ببيت المقدس ، في خلافة معاوية . « الأعلام » .

لقد استعنتَ بمن هو أعجزُ منك ، أطعِ الله تعالى ، واعتصم به ، يُعطك أعظمَ ما يُعطي السائلين .

* وقال : فيما أُنزلَ على موسى عليه الصلاة والسلام : إن أردتَ أن تكونَ قائداً لأهل الدنيا ، وسيداً في المنظر الأعلى ، فكن مُستسلماً لأمري ، راضياً بحكمي .

* وقال الفُضيل بن العياض(١) : إني لأستحي من الله أنْ أقولَ : إنّي مُعتصمٌ بالله ؛ لأنَّ من اعتصمَ بالله لا يخافُ مَنْ دُونه ، ولا يَرجو غيرَه ، ويقطعُ قلبه عن علائقه في الدارين .

* وقيل في معنى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] ، أي نحنُ عبيدُ الله ، وإماؤه ، نتقلَّبُ في مشيئته وقضائه ، ونواصي العباد بيده : ﴿ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] بالرضا عنه ، والتّسليم له ، والاعتصامِ به ، والتفويضِ إليه .

* ورُوي أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٤] ، فقال : يا ربُّ ، أهلي وغنمي . قال الله تعالى : إذا وجدتني فأيّ شيءٍ تصنعُ بغيري؟ يا موسى ، اذهب ، واعتصم ، واستسلم لي ، وفوّض الأُمورَ إليَّ ، فإني جعلتُ الذئبَ راعياً لغنمك ، والملائكةَ حافظين لأهلك ، يا موسى ، مَنْ أنجاكَ مِن اليمّ حين ألقتك أُمّك فيه؟ ومَنْ ردَّكَ إلى أمّك بعده؟ ومَنْ أنجاكَ من عدوّك فرعون ، حين قتلتَ نفساً؟ ومَنْ أنجاك من المَفازة حين فررتَ من فرعون؟ وهو يقول في ذلك كلّه : أنت ، أنت .

---

(١) الفضيل بن عياض التميمي اليربوعي ، أبو علي (١٠٥ـ١٨٧ هـ) شيخ الحرم المكي ، من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق ، منهم الإمام الشافعي ، ولد في سمرقند ، ونشأ في أبيورد ، ثم سكن مكة وتوفي بها من كلامه : من عرف الناس استراح . « الأعلام » .

واعلم أنَّ من اعتصم بغيره أو بشيءٍ دونه فهو مَخذولٌ ، خارجٌ من حدِّ العبودية ؛ لأنَّ حدَّ العبودية تركُ الاختيار إلى الجبار .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص : ٦٨] .

وقال : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : ٢] .

وقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

واعلم أنَّ العبودية مبنية على عشر خصالٍ :

الاعتصام بالله في كلِّ شيءٍ ، والرِّضا عن الله في كلِّ شيء ، والرجوع إليه في كلِّ شيء ، والفقرِ إلى الله في كلِّ شيء ، والإنابة إلى الله في كلِّ شيءٍ ، والصبرِ مع الله في كلِّ شيءٍ ، والانقطاع إلى الله في كلِّ شيءٍ ، والاستقامة بالله في كلِّ شيء ، والتفويضِ إلى الله في كلِّ شيء ، والتسليم له في كلِّ شيء .

واعلم أنَّ التسليمَ والاستسلام شُعبتان من شُعب الإيمان والمعرفة ، التسليم : هو تسليم الكلّية إلى السلام بالسلامة بلا تخليط ، والاستسلام : هو أن يستسلم راضياً بجميع ما ينزل عليه منه .

* * *

الحديث الحادي والثلاثون

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل أبو الفضل علي القارئ القُرشي الواسطي رضي الله عنه قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المُظفر الداودي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السَّرخسي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفِرَبْري ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري ، قال : حدّثنا صدقة بنُ الفضل ، قال : أخبرنا ابن عُيينة ، قال : حدَّثنا زياد ـ هو ابن علاقة ـ أنه سمع المغيرةَ يقول : قام النَّبيُّ ﷺ حتى تورَّمتْ قدماهُ ، فقيل له : غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبكَ ، وما تأخَّر . قال :

« أَفلا أكونُ عبْداً شكوراً »[1] .

في هذا الحديث الشريفُ من الإلزام بالقيام بواجب العبودية غايةُ الغاية عند من يعقل ، فإنَّ السيدَ الأعظم ، والكنز المطلسم ﷺ ، حالةَ كونه سرَّ الموجودات ، وسببَ الموجودات ، والبرزخ الوسط بين الخلق والخالق ، قد فعلَ في مَقام عبديته ما تورَّم له قدماه الشريفان ، فأين نحن؟! هات .

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٢ في التهجد ، باب قيام النبي ﷺ الليل ، وفي تفسير سورة الفتح ، وفي الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله . ومسلم (٢٨١٩) في صفات المنافقين ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ، والترمذي (٤١٢) في الصلاة ، باب ما جاء في الاجتهاد في الصلاة ، والنسائي ٣/ ٢١٩ في قيام الليل ، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل .

أيُّها العارف ، ابذل مهجَتكَ اتّباعاً لهذا الرسول العظيم ﷺ ، وامحقْ كُلَّكَ في اليوم والليلة ألفَ مرَّة ، وأنت بعدها مقصِّرٌ ، العبوديةُ وصفُ العارف المحض .

أَيْ بُنَي ، قد ذكر اللهُ تعالى في كتب الأنبياء نعتَ الأصفياء ، يقول الله تعالى : عبدي ، بي وجدتني ، وبي وقعَ بيني وبينك عقدُ المحبَّة ، وبي صرتَ من أهل خدمتي ، وبي تَعرفني ، وبي تذكرني وتُثني عليَّ ، وبي تتلذَّذُ بذكري ، وبي قصدت صحبتي ، وبي قدرت أن تنظرَ في الآخرة إلى وجهي ، عبدي ، نفسُك لي ، وروحُك لي ، وقلبك لي ، وكُلّيتُكَ لي ، فإن أعطيتني الكلَّ أَعطيتك الكلَّ ، وكنتُ لك مع الكلِّ .

* وفي الخبر : أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : من الذي دعاني فقطعتُ رجاءه؟ ومن قرعَ بابي فلم يُفتح له؟ أنا الذي جعلتُ آمال خلقي بي مُتَّصلةً ، وعندي مُدَّخرة .

يا داود ، ما لعبدي يُعرِضُ عنّي ، وأنا أقول إليَّ ؟!

يا داود ، أنا محلُّ الآمال ، أنا الذي جعلتُ طيرانَ قلوب المشتاقين نحوي ، وجعلتُها في الأرض مواضعَ نظري ، وأطلقتها إليَّ حتى تزدادَ شوقاً إليَّ ، وقرباً منّي .

يا داود ، بشِّرْ أوليائي وأحبائي بأنّي كلَّ ساعةٍ أُريهم كرامتي ، ولطائفَ صنعي ، وحسنَ امتناني عليهم ، حتى لا ينسوني ، ولا يميلوا إلى غيري ، وشوَّقتهُم إليَّ حتى لا يَصبروا عني ، وفتحتُ لهم أبوابَ أُنسي ، واستجبتُ لهم قبل أن يدعوني ، وأعطيتهم قبل أن يسألوني .

يا داود ، فوعزَّتي وجلالي ، لأُقعدنَّهم في الفردوس ، ولأُمكِّننَّهم من رؤيتي حتى أرضى عنهم ، ويَرضوا عني .

يا داود ، أخبر أهلَ الأرض بأنّي حبيبٌ لمن أحبّني ، وجليسٌ لمن

جالسني ، ومُؤنسٌ لمن أَنِسَ بي ، وصاحبٌ لمن صاحبني ، ومُطيعٌ لمن أطاعني ، ومُختارٌ لمن اختارني ، وقل لعبادي : هلُموا إلى مُصاحبتي ومُؤانستي ، وسارعوا إلى محبَّتي وقربي .

اعلم ياداود ، إني خلقتُ طينةَ أحبّائي من طينة إبراهيم خليلي ، ويحيى زكيي ، ومحمد حبيبي ، يا داود ، هل رأيتَ حبيباً يبخلُ على حبيبه؟

يا داود ، ألا إن طال شوقُ الأبرار إلى لقائي ، فإني إليهم لأشدُّ شوقاً ، ألا من طلبني وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني .

يا داود ، إذا كان الغالبُ على عبدي الاشتياقُ إليّ ، والاشتغالُ لي جعلتُ راحتَه ولذَّتَه في ذكري وعشقته ، ورفعتُ الحجابَ بيني وبينه ، أُحبُّه ويُحبّني ، حتى لا يغفُلَ إذا غفلَ الناس ، ولا يَسهو إذا سَها الناس ، ولا يلهو إذا لَها الناس ، أولئك الأبرار حقاً .

يا داود ، إن طلبتني وجدتني ، وكفيتُكَ الأسباب ، ولم أُطالبْك بالحقوق ، وإنْ طلبتَ غيري شغلتُكَ بالأسباب ، وطالبتُكَ بالحقوق .

يا داود ، إني جعلتُ محبَّتي لمن لا يَنساني بلسانه وقلبه ، فإنّه لا شيءَ أنقص عندي من الغفلة والنسيان .

يا داود ، إن رضيتَ عنّي رضيتُ عنك ، وإنْ أفردتني بالحاجة أفردتك بالإنجاح ، وإنْ شكرتني صيَّرتُكَ ملكاً في الدّارين .

يا داود ، من لم يصبر على بلائنا لا يفزعْ إلينا .

يا داود ، إني إذا أحببتُ عبداً من عبيدي ملأتُ قلبَه خوفاً مني ، وتشوُّقاً إلى لقائي ، وحرصاً على طاعتي .

يا داود ، وأوليائي في قبابي لا يعرفهم إلاّ أوليائي ، فطوبى لأوليائي وطوبى لأحبائي .

يا داود ، إني لا أنسى من ينساني ، فكيف أنسى من يذكرني؟!

يا داود ، إني أجودُ على من يبخلُ عليَّ ، فكيف أبخلُ على من يجود بي؟!

يا داود ، إنّي أحبُ من يُبغضني ، فكيف أُبغض من يُحبني؟!

يا داود ، بشّر عبادي السائلين بأنّي بهم رؤوفٌ رحيم .

يا داود ، كلُّ حبيبٍ يُحبُّ خلوةَ حبيبه ، وأنا مُطّلعٌ على قلوبِ أحبائي ، قل للمتلذِّذين بذكري : هل وجدتم ربّاً أبرَّ مني؟

يا داود ، من أطاعني وهو يُحبّني أسكنُه جنتي ، وأُريه وجهي ، ومن عصاني ولم يُحبّني أُدخله ناري ، وأُحلُّ عليه سَخَطي .

يا داود ، وعزَّتي وجلالي لا يُجاورني إلاّ من طلبَ جواري .

يا داود ، كذبَ من ادّعى محبّتي ، وإذا جنَّ عليه الليل نامَ عني .

يا داود ، من عَرفني أرادني ، ومن أَرادني طلبني ، ومن طلبني وجدني ، ومن وجدني لا يَختارُ عليَّ حبيباً سواي .

يا داود ، من طلبني قتلتُه ، ومن أحبّني ابتليتُه ، ومن هربَ مني أحرقتُهُ .

يا داود ، بشّرِ المذنبين بأنّي غفور ، وأَنذرِ الصدِّيقين بأنّي غيور .

يا داود ، من لقيني وهو يَخافُني لم أُعذّبه بناري ، ومن لقيني وهو يُحبّني لم أُحزنه بفراقي ، ومن لقيني وهو مُستحٍ منّي لم أُخجلْه يوم يلقاني .

يا داود ، جنّتي لمن لم يقنطْ من رحمتي ، وغضبي عمن أخطأ خطيئةً فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو عاجلتُ أحداً بالعقوبة إذنْ عاجلتُ القانطين من رحمتي ، وما العجلةُ من شأني ، فها أنا مُطَّلعٌ على قلوب

أحبائي ، إذا جنَّ الليلُ جعلتُ أبصارَهم في قلوبهم ، فخاطبوني على المُشافهة ، وكلَّموني على الحضور .

يا داود ، لولا أنّي ربطتُ أحبائي في أبدانهم ، لخرجت الأرواح من أبدانهم شوقاً إلى لقائي .

يا داود ، إنَّ من عبادي عباداً جعلتهم للخير أهلاً ، وجعلتُ لهم المؤانسةَ نصيباً ، طوبى لهم وحُسنُ مآب .

* ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام : إنّي قضيتُ على نفسي أن لا يُحبّني عبدٌ من عبادي أعلمُ ذلك من قلبه إلاّ كنتُ سمعَه وبصره ولسانه ، وأُبَغِّضُ إليه كلَّ شيءٍ ، وأَمنعُهُ شهوات الدنيا ولذّاتها ، وطيبَ عيشها ، وأطّلعُ عليه في كلِّ يوم سبعين ألف مرة ، وأزيدُ له كلَّ ساعةٍ لذائذ حبّي ، وحلاوة أُنسي ، وأملأُ قلبَه نوراً منّي ، حتى ينظرَ إليَّ كلَّ ساعةٍ فأمسحُ برأسه ، وأَضعُ يدي على ألمِ قلبه ، حتى لا يشكو منه ، وأنا أسمعُ خفقان قلبه من الشوقِ إلى لقائي ، والخوفِ من قطيعتي ، وهو يقول : حقيقٌ عليَّ أن لا يَسكنَ قلبي حتى أصلَ إليك يا ربي .

يا يحيى ، وكيف يسكنُ قلبُ المشتاق؟ وأنا غاية منيته ، ومنتهى أمله ، وهو كلُّ ساعةٍ يتقرَّبُ إليَّ ، وأتقرَّبُ إليه ، وأسمعُ كلامه ، وأعلمُ أسَفَه ، وأُحبُّ صوته ، فوعزَّتي وجلالي ، لأنقبنَّه يوم القيامة منقباً يَغبطه الأَولون والآخرون ، ثم آمرُ مُنادياً ينادي من تحت عرشي : هذا فلان ابن فلان ، وليُّ الله وصفيُّه ، دعاه الله ليقرَّ عينه ، ثم آمرُ برفع الحجاب حتى ينظرَ حبيبي إليَّ ، وأقول : السلامُ عليك عبدي ووليي ، أُبشِّرك . قال : فغُشي على يحيى ، فلم يفق ثلاثةَ أيام ، فلمّا أفاق قال : سبحانك ، سبحانك ، ما أكثرَ تودُّدَك إلى أوليائك وأصفيائك ! لا يفصل عنك الأمل ، يا خيرَ صاحبٍ وأنيسٍ ، فنعم المولى أنتَ ، ونعم النصير .

* وروي أنَّ الله تعالى قال في بعض كتبه : إذا كان الغالبُ على قلب عبدي الاشتغالَ والأُنسَ بي ، رفعتُ الحجابَ بيني وبينه في الباطن ، حتى كأنَّه ينظرُ إليَّ .

* وروي أنَّ الله تعالى قال في بعض الكتب : وعزَّتي وجلالي ، لأقطعنَّ أَملَ كلِّ مُؤملٍ غيري بالإِياس ، يؤمِّلُ عبدي غيري ، والخيرُ كلُّه بيدي ، من الذي أمَّلني فقطعتُ عنه أمَلَه؟ ومن الذي رجاني فخيّبتُ رجاءه؟ ومن الذي قَرَعَ بابي بالدُّعاء فلم أفتحْ له؟

عبدي ، تنعَّمْ بذكري ، فإنّي نعم الحبيب لك في الدنيا والآخرة .

عبدي ، ستذكرني إذا جرَّبتَ غيري بأني لك خيرٌ من كلِّ ما سواي .

عبدي ، أما استحييت منّي إن أعرضتَ وجهك عني ، وتُقبل على غيري؟

عبدي ، إلى أين تذهب ، وطريقُ الوسيلة إليَّ لا إلى غيري؟

عبدي ، أين من دعاني فلم أُجبه؟ وأين من سألني فلم أُعطه؟

عبدي ، بابي لك مفتوح ، وعطائي لك مَبذول ، وأنا أرحم الراحمين .

* وروي أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام : حقَّت محبَّتي للمتحابّين من أجلي ، وحقَّتْ محبّتي للمُتواصلين من أجلي ، وحقَّت محبَّتي للمتزاورين من أجلي .

يا موسى ، إن ذَكرتني ذكرتُك ، وإن رضيتَ عنّي رضيتُ عنك ، وإن كنتَ لي فرداً كنتُ لك الفردَ ، وإن لم تردَّ عليَّ حُكمي واليتُكَ واصطفيتك ، وقرَّبتُ مقعدَك مني .

يا موسى ، إذا خفتَ فَخَفْني حتى أؤمّنَكَ ، وإذا أَحببت فأحبّني حتَّى أُحبَّك ، وأُحبِّبكَ إلى قلوب الصالحين ، وإذا نظرتَ فانظر إليَّ حتى أنظر إليك من فوق عرشي .

* ورُوِي في بعض الأخبار : أن الله تعالى يقول يومَ القيامة لأوليائه : يا أوليائي ، طالما لحظتُكم ، ورأيتكم في دار الدنيا وقد غارت أعينكم ، وقلصتْ شِفاهُكم ، وخفتْ بطونُكم ، فـ ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] .

أوليائي وأحبائي ، جزائي لكم أفضلُ البذل ، وفضلي لكم أوفرُ الفضل ، ومعاملتي إيّاكم أحسنُ المعاملة ، ومطالبتي إيّاكم أشدُّ المطالبة ، أنا مؤنسُ القلوب ، وأنا علاّم الغيوب .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث الثاني والثلاثون

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل أبو الفضل علي الواسطي ، قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي ، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله السَّرْخَسيُّ ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفِرَبْرِي ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري ، قال : حدثنا عبد الله بن مسلمة ، قال : حدّثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن هلال بن أبي هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص أنه سُئل عن صفةِ رسول الله ﷺ في التوراة ، فقال :

أجل ، والله ، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرزاً للأُميين ، أنت عبدِي ورسولي ، سمَّيتُكَ المُتوكِّل ، ليسَ بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا سخَّابٍ[1] بالأسواق ، ولا يَدفعَ بالسَّيِئَة السَّيئة ، ولكن يَعفو ويصفحُ ، ولن يقبضَه اللهُ حتَّى يُقيم به الملَّةَ العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتَحُ بها أَعيناً عُمياً ، وآذاناً صُماً ، وقلوباً غُلفاً[2] .

ولنا بهذا السندِ عن البخاري ، قال : حدّثنا خالدُ بنُ مَخلد ، قال :

---

(١) السَّخب : بالسين والصاد : الصياح والجلبة ، أي ليس ممن ينافس في الدنيا وجمعها ، فيحضر الأسواق لذلك ، ويسخب معهم في ذلك ، جامع الأصول ١١/ ٢٦٢ .

(٢) رواه البخاري ٤/ ٢٨٧ في البيوع ، باب كراهية السخب في الأسواق ، وفي تفسير سورة الفتح ، باب ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

حدّثنا سُليمان ، قال : حدّثنا عبدُ الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال :

« الرَّحِمُ شُجْنةٌ[١] من الرَّحمَنِ ، فقالَ اللهُ : مَنْ وصَلَكِ وصَلْتُهُ ، ومَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتَه »[٢] .

فالحديثُ الأول : أفاد أنَّ الله يُسعف نبيَّه ﷺ حتى يقوِّم العوجاء بكلمة لا إله إلا الله .

والحديث الثاني : أفادَ أنَّ الرَّحم من أشعةِ نورِ الرحمن ، من وصلَها اتَّصل ، ومن قطعها انقطع .

والجمع بين السِّرَّيْنِ في الحديثَيْن ، هو فتحُ القلب والعين والأُذن بالتوحيد الخالص ، وإيصالُ القلب بالرحمن ، بحبلِ الرَّحمة والشفقةِ على الخلق ، وبهذا تعيَّنَ الأَقربُ فالأَقربُ ، يَفهمُ ذلك العارف ، فكلمةُ التوحيد تُفيد الإيمانَ بالله ، وصلةُ الرحم تُفيد التَّخلُّق بِخُلُقِ الله ، وهو الرَّحمن ، وإليه المرجعُ في المبطن والعيان ، وبه المُستعان ، وعليه التُّكلان ، وما ذلك إلاّ لإعظامِ أمرِ الله ، وهو من إعظام الله .

* قال يحيى بن معاذ : اعرفْ حرمةَ من لا تعرفُ الفضلَ إلاّ منه ، ولا تَرجو الرَّاحة إلاّ منه ، واستحي منه حقَّ الحياء ، واذكرِ امتنانَه إذ خلقكَ

---

(١) الشجنة بكسر الشين وضمها وإسكان الجيم ، يعني : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق . جامع الأصول ٤/ ٥١٥ .

(٢) رواه الترمذي (١٩٢٥) في البر والصلة ، باب في رحمة الناس ، وأبو داود (٤٩٤١) في الأدب ، باب في الرحمة ، عن عبد الله بن عمرو بلفظ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ، الرحم شجنةٌ من الرحمن ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

وروى الإمام أحمد ، وابن حبان بلفظ : « إن الرحم شُجْنَةٌ من الرَّحمن ، تقولُ : يا ربِّ ، إنّي قُطعت ، يا ربِّ ، أُسيءَ إليَّ ، يا ربِّ ، إنّي ظُلمت ، يا ربِّ ، يا ربِّ . فيجيبُها : ألا ترضين أنْ أصلَ من وصلَكِ ، وأقطعَ من قطعك » .

ولم تكُ شيئاً ، وزيَّنَكَ بنورِ المعرفة ، حتى كأنَّكَ لم تزل تعرفه ، ولولا فضلُه ورحمتهُ عليك ، كيفَ كنت تعرفُهُ بأنّه مولاك ، من غير أن تراه بعينك؟ ثم طهَّرَ سرَّك وضمائرك من الشكِّ والشُّبهة والنفاق ، وألبسَكَ من أحسنِ لباسه ، وتوَّجَكَ بتاجه بلا سؤال ، ثم دَعاك إلى دار السّلام .

* ويُقال : لا يزالُ المؤمن عظيماً ما عظَّم الله ، وعظَّم أمرَه ، وعظَّم أولياءه ، وعرفَ قدرَهم وحرمتهم .

* وحُكي أنَّ رجلاً من ملوك الدنيا قال لشقيق[1] : سلْ حاجتك . قال : إنّي لأستحي من ربِّي أنْ أسألك ، ومولاي ناظرٌ إليَّ ، يقول : سل حاجتك بلا حشمة ، حتى أرضى عنك ، ولا تسألْ غيري فأمقتكَ .

* ودخل على رابعة البصرية جماعةٌ من الزُّهاد ، وفيهم سُفيان الثوري ، فرأوا لها حالةً رثَّةً ، فقال لها بعضُهم : أما تُرسلين إلى بعض مواليك ، ليُعطيك شيئاً؟ فقالت : والله ، إنّي لأستحي أن أسألَ الدُّنيا ممن يملكها ، فكيفَ ممن لا يَملكها؟

* وقيل لأبي عبد الله : ما صفةُ المُريدين؟ قال : أن يكونوا مع الناس بأبدانهم ، وقلوبُهم تحت العرش ، كأنَّهم يرون ربَّهم فوق عرشه ، ويستحيون أن يَسألوه شيئاً سواه .

* وفي الخبر : أرأيتم سُليمان ، وما أُعطي من المُلكِ؟ فإنَّه لم يرفعْ رأسه إلى السماء ، تخشُّعاً لله ، وحياءً منه ، حتى قَبضه اللهُ .

* وقال عامر بن عبد قيس : ما نظرتُ إلى شيءٍ إلاّ رأيتُ اللهَ أقربَ إليَّ منه ، وأنَّ نظرَه إليَّ قبلَ نظري إلى ذلك الشيء .

---

(١) شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي ، أبو علي زاهد صوفي ، من مشاهير المشايخ في خراسان ولعله أول من تكلّم في علوم الأحوال بكور خراسان . وكان من كبار المجاهدين ، استشهد بغزوة كولان بما وراء النهر سنة (١٩٤ هـ) « الأعلام » .

* وكان يحيى بن معاذ رحمه الله إذا قرأ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، قال : إلهي ، هذا قُربكَ إلى أعدائك ، فكيفَ قُربُك إلى أوليائك؟

* وقال شَهر بن حَوْشب[١] رحمه الله : ما رأيتُ إبراهيم التَّيمي[٢] رافعاً رأسه وبصرَه إلى السماء قطُّ حتى قبضَه الله ، حياءً منه .

* ومرضَ العارفُ داود الطائي[٣] رضي الله عنه ، وهو في جوف بيته ، فقيل له : لو خرجتَ إلى صحنِ الدار حتّى تهبَّ عليك ريحُ الهواء . قال : إني لأستحي من الله أن يراني ، وأنا أطلبُ الرَّاحةَ لنفسي في الدنيا .

* ويقال : كان في مِصرَ رجلٌ مَجذوم ، فقال : إنه يَعرفُ اسمَ الله الأعظم ، فقيل له : لو دعوتَ الله باسمه الأعظم أن يكشفَ عنك هذا البلاء . قال : إنّي لأستحي منه أن يكونَ لي مُرادٌ بخلاف مُراده .

* كان سيّدُنا الإمام الحسينُ ابنُ الإمام عليٍّ رضي الله عنهما ، إذا توضّأ ليُصلي اصفرَّ لونُه ، وارتعدتْ فرائصُه ، فقيل له في ذلك ، فقال : حقٌّ لمن وقفَ بين يدي ربِّ العرش ، أن يتغيَّرَ لونُه حياءً من إجلاله .

---

(١) شهر بن حوشب الأشعري (٢٠ـ١٠٠ هـ) فقيه قارىء ، من رجال الحديث ، شامي الأصل ، سكن العراق ، وكان يتزيّا بزي الجند ، وولي بيت المال مدة . وكان ظريفاً . « انظر الأعلام » .

(٢) هو إبراهيم بن أدهم التيمي . تقدمت ترجمته صفحة ١٠٨ .

(٣) داود بن نصير الطائي أبو سليمان ، من أئمة المتصوفين . كان في أيام المهدي العباسي ، أصله من خراسان ، ومولده بالكوفة ، رحل إلى بغداد ، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره ، وعاد إلى الكوفة ، فاعتزل الناس ، ولزم العبادة إلى أن مات فيها . قال أحد معاصريه : لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله تعالى شيئاً من خبره . وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه . توفي سنة (١٦٥ هـ) . « الأعلام » .

* وكان مسلم بن يسار[1] يُصلّي ، فانهدمَ زاويةٌ من المسجد ولم يشعر .

* وكان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ترتعدُ فَرائصُه عند قضاءِ أمانةٍ لم تحملْها السماوات والأرض ، وهي الصلاة .

* ولدغت امرأةً حيةٌ في أربعين موضعاً ، ولم تشعرْ من حلاوة الصلاة .

* وكان مُسلم بن يسار يُصلّي ، فوقعَ الحريقُ في بيته ، وفزعَ النَّاسُ إليه ، حتى أطفؤوها ، ولم يشعر .

* قال الجَريري : إنّي لأستحي من الله أن أنامَ تَكلُّفاً ، حتى يَصرَعني النوم .

* وحُكي أن معاذةَ بنتَ عبد الله[2] ما رفعتْ بصرَها إلى السماء أربعين عاماً ، وكانت تقول : عجبتُ لعينٍ تنام والحبيبُ إليها ناظر . وربّما كانت تتفكّرُ في جلاله وعظمته ، حتّى يُغشى عليها .

* وكان داود عليه الصلاة والسلام لا يرفعُ رأسَه إلى السماءِ هيبةً من إجلاله تعالى .

* وقال ابن سِنان : ما اتَّخذ اللهُ إبراهيم خليلاً حتى ألقى في قلبه إجلالاً منه ، بحيث يُسْمَعُ خفقانُ قلبه كالطَّير في الهواء .

* علامة السُّعداء ثلاثة : التَّمسُّكُ بسُنَّة النبيِّ المُختار ، والصحبةُ مع الأولياء الأخيار ، والحياءُ من الملك الجبار .

---

(١) مسلم بن يسار الأموي بالولاء أبو عبد الله ، فقيه ناسك من رجال الحديث . أصله من مكة ، سكن البصرة ، فكان فقيهاً ، وتوفي فيه سنة (١٠٨ هـ) . « الأعلام » .

(٢) معاذة بنت عبد الله العدوية البصرية ، زوجة صلة بن أشيم ، كانت زاهدة ، روت الحديث عن علي وعائشة رضي الله عنهما ، وخرّج لها الجماعة . ماتت في أوائل القرن الثاني . الكواكب الدرية في طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٤٥٦ .

* ومكتوبٌ في الزبور : يا داود ، إني لأستحيي من عبدي أن أردَّه إذا دعاني ، وإن عبدي لا يَستحيي أن أدعوه فلا يُجيبني .

* قال النبيُّ ﷺ : « الإحسان أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك »[1] .

* قال الفُضيل : إلهي ، ارحم من لو عَقِلَ لم يتكلَّمْ من الحياء .

* وحُكي أنَّ عامر بن عبد قيس كان يُصلّي ، فاكتنفتْهُ السِّباع ، فلمَّا انفلتَ من صلاته مسحَ ظهورَها بيده ، وقال : أنتم كلابُ الله ، وأنا عبد الله . فقيل له : هل هِبْتَ منها ؟ قال : إني لأستحيي من ربِّي أنْ أهابَ شيئاً دونه .

* وقال صالح المُرِّيُّ[2] : رأيتُ ربِّي في المنامِ ليلةً ، فقلتُ : لبَّيك ، لبيك . وصرتُ كالبعوضةِ من إجلاله ، فقال : يا صالح ، إني لخبيرٌ بالمُريدين ، وإني أسمع أنينَهم ، وأرى حركاتهم ، وإنني لمُطَّلعٌ على سرائرهم وضمائرهم . قال : فذُهش عقلي حياءً منه .

وحُكي أنَّ الحسنَ البصري صعِدَ موضعاً يؤذِّنُ للصلاة ، فلمَّا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، غُشي عليه من إجلاله .

* وقالت عائشةُ رضي الله عنها : كان رسولُ الله ﷺ يُحدِّثُنا ونحدِّثُه ، فإذا حضرتِ الصلاةُ كأنَّه لم يعرفنا ، ولم نعرفه[3] .

---

(١) تقدم تخريجه انظر صفحة ٤١ الحاشية رقم (١) .
(٢) صالح بن بشير المُرِّي البصري كثير البكاء كثير الخوف ، تكلّم في علم الحقيقة ، أسند الحديث عن كبار التابعين ، وضعّفوه ، مات سنة (١٧٢ هـ) . الكواكب الدرية ١/ ٣٣٠ .
(٣) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ١٥٠ . قال الحافظ العراقي : أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً : كان النّبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً =

* وقال بعضُ أهل المعرفة في معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة »[1]..

لم تَكن الصلاةُ قرّةَ عينه ، ولكن إذا قامَ للصلاة رأى فيها ما تقرُّ عينُه ، لقوله : « الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه » .

* وقال الفُضيل بن عِياض : صلّيتُ خلفَ ذي النون صلاةَ العصر ، فلمّا أرادَ أن يُكبّر رفعَ يديه ، وقال : الله . فبُهتَ ، وبقيَ كأنّه جسدٌ لا روحَ فيه من إجلاله ، ثم قال : أكبر . فظننتُ أنَّ قلبي يَنخلعُ من هيبةِ تكبيره .

قَــلَّ حَيَـاءُ النَّـاسِ مِـنْ رَبِّهِـمْ ... فَكُلُّهُــمْ يُظْهِــرُ دَعْــوَاهُ[2]

لَيْسَ يُبَالِي الخُبْثَ في ثَوْبِهِ ... مَـنْ بَـالَ فـي عَـاجِلِ دُنْيَـاهُ

يَخَــافُ أَنْ يَمْقُتَــهُ أَهْلُــهُ ... ولا يُبَــالِـي مَقْــتَ مَـوْلاهُ

* * *

= من الناس . وذكره المناوي في فيض القدير ٣/ ٨٨ (٢٨٢١) تحت قوله : « أول ما يرفع من الناس الخشوع » .

(١) رواه النسائي ٧/ ٦١ في عشرة النساء ، باب حب النساء ، عن أنس بن مالك ، وإسناده حسن بلفظ : « حبب إليَّ النساء والطيب ، وجعلت قرّةُ عيني في الصلاة » ورواه أحمد في المسند ٣/ ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ ، والحاكم ، والبيهقي .

(٢) في المطبوع: فكلهم يظهر تقواه.

الحديث الثالث والثلاثون

أخبرنا شيخنا القاضي المقرىء القدوة الشيخ أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا أبو علي الحسن بن علي ، قال : أنبأنا عمر بن أحمد ، قال : أنبأنا شاهين ، قال : أنبأنا عبد الله البَغَوي ، قال : أنبأنا عبد الله بن عمر القَواريري ، قال : أنبأنا زائدة بن أبي الرُّقاد ، عن زِياد النُّميري ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجبُ قال :

« اللَّهُمَّ ، بارِكْ لَنا في رَجَبَ وشَعْبانَ ، وبَلِّغْنا إلى رَمَضانَ »[1] .

في هذا الحديث الشريف معانٍ كثيرةٌ ، منها طلبُ فسحة الأجل لصالح العمل ، ليكونَ العمرُ لله ، والعملُ فيه لله ، وكذلك مقاصدُ العارفين بالله ، الوارثين رسول الله ﷺ ، وهذا حالُ أهل التَّقوى .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ التَّقوى على وجهين ؛ خاصٌ ، وعامٌ :

فأمَّا التَّقوى الخاصّ : فالاتقاء بالسرِّ عن الهمَّةِ والمُنْيَةِ[2] ، من غير ذات الله تعالى ، حيث قال الله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾

[آل عمران : ١٠٢] .

وأمّا تقوى العامّ : فالاتّقاءُ بالظاهر عن جميعِ ما كَرِهَ اللهُ تعالى ،

---

(١) رواه الإمام أحمد ١/ ٢٥٩ ، والطبراني في الأوسط ٤/ ٥٥٨ (٣٩٥١) ، ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة . ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٦٥ و ٣/ ١٤٠ ، وقال : . . . . رواه البزار ، وفيه زائدة بن أبي الرقاد ، وفيه كلام . وقد وثق .

(٢) أي ولا يتمنى جلب نفعٍ ، أو دفع ضرٍّ من غير الله تعالى .

قال الله سبحانه : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق : ٥] .

واللهُ تعالى جعلَ الفرجَ والمَخرجَ من الهموم إلى اليسر والسعة في التقوى ، لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢-٣] الآية .

قيل في معناه : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الطاعة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من غُبار الذُّنوب والزلاّت ، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ النجاة من العقوبات ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

ومعنى آخر : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عند الإنابة بالحجَّة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من شدَّة المُحاسبة ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ سلامة الدارين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

ومعنى آخر : ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من جميع الاشتغال بغير الله ، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ حياة طيبة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

ومعنى آخر : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بتركِ المحارم والشُّبهات ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من الإرادات والشهوات ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ حلاوة الطاعة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عند قول الحقّ ، ولا يخافُ لومةَ لائم ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من مكرِ الناس ومكائدهم ، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الظفر ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بترك التعلّق بغير الله ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من عبودية ما سواه ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الصدق والإخلاص ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

* يُروى أنَّ أبا هريرة سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة يقولُ الله تعالى : يا أيُّها النَّاس ، إنّي جعلتُ نسباً ، وأنتم جعلتم نسباً ، إنّي جعلتُ أكرمَكم أتْقاكم ، وأنتم جعلتم أكرمَكم أغناكم ، وإنّي أرفعُ

اليومَ نسبي ، وأضعُ نسبَكم ، فأين المتَّقون؟ اليومَ لا خوفَ عليكم ولا أنتم تحزنون »[1] .

* وقال ﷺ : « الحلالُ بَيِّنٌ ، والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أُمورٌ متشابهات ، لا يعلمُها كثيرٌ من الناس ، فمن اتَّقى الشُّبهات سلمَ دينُه ، ومن وقعَ في الشُّبهات وقعَ في الحرام »[2] فـ« دعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك »[3] .

* وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : لو صمتم حتَّى تكونوا كالأوتار ، وصلّيتم حتى تكونوا كالحنايا[4] ، ما قُبِلَ منكم إلاّ بورعٍ صادق .

* وقال وهب بن مُنبه : من وضعَ شهواتِهِ تحت قدميه ، فرَّ الشيطانُ من ظلِّه ، ومن غلب عقلُه هواه فذاكَ الصابرُ الغالب .

* وقيل لرجلٍ من أهل التقوى : من أينَ جئت؟ قال : ما سؤالك عن شيءٍ لا يَنفعك معرفتُهُ ، ولا يضرُّك جهلُه ، فاشتغلْ بما يعنيك عمّا لا يعنيك . فقيل له : ما رأسُ التقوى؟ قال : أن تحفظَ نفسَك من الشهوات ، وحلقَكَ من اللّذات ، وقلبَك من الغفلات .

* وقال : اتَّقِ الله ؛ آخَذَ آدمَ بلقمةٍ ، وموسى بلطمةٍ ، وداود بنظرةٍ ، ويوسفَ بهمَّةٍ ، ونوحاً بدعوةٍ ، ومحمداً بخطرةٍ ، صلوات الله عليهم أجمعين .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور في سورة الحجرات الآية (١٣) وقال : أخرجه الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي .

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) في الإيمان، باب من استبرأ لدينه، ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة، والترمذي (١٢٠٥) في البيوع، والنسائي (٤٤٥٣) في البيوع، و(٥٧١٠) في الأشربة، وأبو داود (٣٣٢٩) في البيوع، وابن ماجه (٣٩٨٤) في الفتن.

(٣) رواه الترمذي (٢٥٢٠) في صفة القيامة باب ٦١، والنسائي (٨/ ٣٢٧) في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات وإسناده صحيح.

(٤) لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا : جمع حَنِيَّة ، أو حَنِيّ ، وهما القوس ، فعيل بمعنى مفعول ؛ لأنها محنية ، أي معطوفة . وهذا من حديث عمر . انظر النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٥٤ .

* وقال عُبيد بن عُمير[1] : لا يَنبغي لمن تزَّينَ بلباس الورع والتقوى أن ينظرَ إلى زهرات الدُّنيا ، ويتكلَّمَ بما لا يَعنيه .

* وقال جعفر الأزدي : بُلْتُ في أصلِ حائطٍ ، فهتفَ بي هاتفٌ : تدَّعي التَّقوى ، وتبول في أصلِ حائطٍ غيرك !

* وحُكي أنَّ ابنَ المُبارك ارتحلَ من مرو إلى الشام ، من أجلِ قلمٍ كان قد استعارَه ، فلم يردَّه إلى صاحبه .

* وفي الخبر : لا تُفضّلوا أحداً على أحدٍ إلاّ بالورع والتقوى ، لأنَّهما أفضلُ الأعمال .

* وقال أُبي بن كعب[2] : ما من أحدٍ تركَ شيئاً لله إلا آتاه الله ما هو خيرٌ له منه من حيثُ لا يحتسب .

* وقال ابنُ سيرين : حرامٌ على كلِّ قلبٍ فيه حبُّ الدُّنيا أنْ تسكنَ فيه التقوى .

* وقال عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله : القليلُ من الورع ، خيرُ من صلاةِ أهل الدنيا .

---

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجُنْدعي ، أبو عاصم المكي ، قاصُّ أهل مكة . التابعي الفصيح الزاهد المُذكِّر . روى الحديث ووثقوه ، كان عبد الله بن عمر يجلس في حلقة عبيد بن عمير يبكي ، وكان يقول : لله در ابن قتادة ، ماذا يأتي به ؟! مات سنة (٦٨ هـ) . انظر تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩ .

(٢) أُبي بن كعب بن قيس ، من بني النجار من الخزرج ، أبو المنذر ، صحابي أنصاري ، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود ، مطلعاً على الكتب القديمة ، ولمّا أسلم كان من كتَّاب الوحي ، وشهد بدراً ، وأحداً ، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان يُفتي في عهده ، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية ، وكتب كتاب الصلح لأهل المقدس ، وأمره عثمان بجمع القرآن ، فاشترك في جمعه . قال رسول الله ﷺ : « أقرأ أمتي أبي بن كعب » وكان نحيفاً قصيراً أبيض الرأس واللحية . مات بالمدينة سنة (٢١ هـ) . « الأعلام » .

* ورُوي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال : إلهي ، خلقتَ آدم بيدك ، وأدخلتَه الجنَّة ، وفعلتَ به ما فعلتَ من الإحسان ، ثم أخرجتَه منها بزلَّةٍ واحدةٍ ، فقال : يا موسى ، أما علمتَ أنَّ جفاءَ الحبيبِ شديد ، لا يُحتملُ من الأحباء ، ما يُحتمل من الأعداء .

وَلَسْتُ أَرى السَّعادَةَ جَمْعَ مالٍ   ولَكِنَّ التَّقِيَّ هو السَّعِيدُ

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث الرابع والثلاثون

أخبرنا شيخُنا القاضي القدوةُ أبو الفضل عليُّ الواسطي : قال : أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد ، قال : أنبأنا أبو عبد الله الحسين ، قال : أنبأنا أحمد بن بكير بن حامد ، عن حمَّاد العسكري ، عن إسحاق بن سيَّار ، عن حجَّاج بن مِنهال ، عن حمَّاد بن سَلَمة ، عن برد بن سِنان ، عن مَكحول ، عن أبي أُمامة الباهلي ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ وِلِدَ لهُ مَولودٌ فسمّاهُ محمداً تَبرُّكاً بهِ ، كانَ هو ومولودُهُ في الجنَّةِ »[1] .

وفي هذا الحديثِ الشريفِ من سرِّ الحبِّ له ﷺ ما يفهمه أهلُ الخصوصيَّة ؛ فإنهم بذكر اسمه المُبارك ترتاحُ هِممهُم للتخلُّقِ بأخلاقه الزَّكية ، وللتَّشبُّثِ بأذياله ، فتراهم لا تقفُ هممُهُم في طريق متابعته وقفةَ المشغول بالدنيا ، بل هم مُتنبِّهون خاشعون ، ومن الله خائفون ، ولنبيِّهم مُتَّبعون ، وبسُنَّته عاملون ، وأولئك هم العارفون .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ أهلَ المعرفة يكون إذا ضحكَ أهلُ الغفلة ، ويحزنون إذا فرحَ أهلُ العزَّة ، قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢_٢٣] .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨_٣٩] .

---

(١) أورده ابن الجوزي في « الموضوعات » : ١/ ١٥٧ ، والسيوطي في اللآلىء المصنعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ١٠٦ ، وحسَّنه ، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٨٢ .

وإنَّ الله تعالى ذكرَ من دلائل المعرفة ، ومن علامات العارفين كثرة البكاء ، وسيل الدموع ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء : ١٠٩] .

وذمَّ أهلَ الغفلة بالضَّحكِ ، وترك البُكاء في قوله : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم : ٥٩-٦٠] .

واعلم أنَّ البُكاء بكاءُ العين ، وبُكاء القلب ، وبكاءُ السر : فأمّا بُكاء العين فهو لأهل المعرفة من المُنيبين ، وأمّا بُكاء القلب فهو لأهل المعرفة من المُريدين ، وأمَّا بُكاء السرِّ فهو لأهل المعرفة من المحبِّين .

واعلم أنَّ لأهل المعرفةِ هموماً مخبوءةً تحت أسرارهم ، مَستورةً عن أفكارهم ، فكلَّما هاجَ من أسرارهم رياحُ خشية الهيبة ، ومن قلوبهم لهبُ نيرانِ الأحزان ، أحرقتْ ما عليها من هَشيمِ الغفلةِ والنسيان .

والبُكاء على خمسةِ أوجُهٍ : بُكاء الحياء مثلُ بكاء آدم ، وبُكاءُ الخطيئة مثلُ بُكاء داود ، وبُكاءُ الخوف مثل بكاء يَحيى بن زكريا ، وبكاء الفقدِ مثلُ بكاء يعقوب ، وبكاء الهيبة مثلُ بكاء سائر الأنبياء ، وهو قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم : ٥٨] ، وبكاءٌ سادسٌ مثلُ بكاء شعيب ، ذلك بكاءُ الشَّوق والمحبَّة ، بكى شعيب حتى ذهبَ بصرُه ، ثم رُدَّ إليه بصره ، فبكى حتى ذهبَ بصرُه ، ثلاث مرات ، فأوحى الله تعالى إليه : أنْ يا شُعيب ، إنْ كان بكاؤك من مخافةِ النار فقد أمنتك من النار ، وإنْ كان بكاؤك من أجل الجنَّة فقد أوجبتُ لك الجنَّة . فقال : لا يا رب ، ولكن من الشَّوق إلى رؤيتك . فأوحى اللهُ إليه : أن يا شعيب ، حقٌّ لمن أرادني أن يَبكي من شوقي ، إنه ليس لهذا الدَّاءِ دواءٌ غيرَ لقائي .

* ويُروى أنَّ النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : « لو أنَّ عبداً بكى من

خشيةِ الله في أُمَّةٍ لرحمَ اللهُ تلك الأمة ببكائه »[1] .

* وقالت رابعةُ : بكيتُ عشرَ سنين عن الله ، وعشرَ سنين بالله ، وعشرَ سنين إلى الله ، فأمّا ما هو بالله فالرَّجاءُ به ، وأمّا ما هو عن الله فالخوفُ منه ، وأمّا ما هو إلى الله فالشَّوقُ إليه .

* وقال بعضهم : دخلتُ على رابعةَ البصرية فإذا هي ساجدةٌ ، فجلستُ عندها حتى رفعت رأسَها ، فإذا في موضعِ سجودها ماءٌ واقفٌ من دموعها ، فسلَّمتُ عليها ، فردَّتْ عليَّ السَّلام ، وقالت : ما حاجتُكَ؟ قلتُ : أُريد زيارتك . فبكتْ ، ثم صرفتْ وجهَهَا عنِّي ، وكانت تَبكي ، وتقول : قُرَّةَ عيني ، لا بدَّ لي منك ، فالعجبُ ممَّن عرفَكَ ، كيف يَشتغلُ بغيرك؟! والعجب ممن أرادَكَ ، كيف يُريد غيرَك؟!

* وكان عَطاءُ السُّلمي كثيراً ما يقول في بُكائه : اللَّهُمَّ ارحم انقطاعي إليك ، وإعراضي عن سواك ، وغُربتي في بلادك ، ووحشتي بين عبادك ، ووقوفي بين يديك .

* وقال الفُضَيْل بن عياض : بينا أنا في الطواف ، إذ أنا برجلٍ قد تغيَّرَ لونُه ، ونحلَ جسمُه ، وهو يبكي ويُدمدمُ مع نفسه ، فدنوتُ منه ، فإذا هو يقول : إلهي ، قد استأنستْ بك قلوبُ المُحبّين ، واستراحتْ إليك قلوبُ العارفين ، فلا تقطع منك آمالَ المُشتاقين . قال : فسمعتُ هاتفاً يقول : يا ولي الله ، لقد أبكيتَ السماواتِ السبع ، اسكت ؛ فإنَّ لك ما سألت .

* ورُوي أنَّ آدمَ عليه الصلاة والسلام لمّا نزلَ من الجنة ، بكى حتى

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي ، عن النضر بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن عبداً بكى في أمة من الأمم ، لأنجى الله تلك الأمة من النار ببكاء ذلك العبد . وما من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة ، فإنها تطفىء بحوراً من النار . وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله ، إلا حرم الله جسدها على النار ، وإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة » . الدر المنثور ، تفسير سورة الإسراء آية رقم ١٠٦-١٠٩ .
وذكره صاحب كنز العمال ٣/ ٥٩٠٨ عن أبي الشيخ عن النضر مرسلاً .

نبتَ من دموعه النبات ، فأوحى اللهُ إليه : هذا البُكاء على فوت الجنان ، فأينَ البُكاء على ترك خدمتي؟ ففزعَ آدمُ إلى كلمةِ الإخلاص . فقال : لا إله إلا أنت ، سُبحانك . قال الله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة : ٣٧] .

* وقال ذو النون : رأيتُ بمكَّةَ رجلاً يبكي بُكاءَ العارفين ، فدنوت منه ، وقلت : ألك حبيب؟ قال : نعم . قلتُ : حبيبُكَ قريبٌ أم بعيد؟ قال : قريب . قلت : مُوافقٌ لك ، أم مُخالف؟ قال : بل مُوافقٌ لي . قلت : سُبحان الله ، فلم تبكي؟! قال : أما علمتَ أنَّ عذابَ القُربِ والموافقة أشدُّ من عذاب البُعدِ والمخالفة .

* وحُكي أنَّ رابعةَ كانت تمرُّ يوماً في بعض طُرق البصرة ، فقطرتْ عليها قطرةٌ من الميزاب ، فسألتْ عنها ، فقيل : إنَّها من بكاء الحسنِ . قالت : قولوا للحسن : لو ازددتَ بالدموع ، حتى تصل للعرش محبة له ، لكان قليلاً .

وسألَ عبَّادُ[1] شُمَيْطَ بنَ عجلان[2] : هل يبكي المنافق؟ قال : أمَّا من الرأسِ فنعم ، وأمَّا من القلب فلا .

* قال الفُضيل : إذا رأيت الرَّجلَ يبكي ، وقلبُهُ ساهٍ ، فهو بُكاءُ مُنافقٍ ، وإنَّ البكاءَ بكاءُ القلب .

* قيل لمالك بن دينار : ألا تجيء بقارىء يقرأُ بين يديك؟ فقال : إنَّ الثَّكلى لا تحتاجُ إلى النائحة .

---

(١) في النسخ المطبوعة : وقال عباد بن شميط بن عجلان . والمثبت من حلية الأولياء ٣/ ١٢٩ .

(٢) شميط بن عجلان : صوفي محدث ، صاحب وعظ وعبر . أسند عن جماعة من التابعين . انظر ترجمته في الكواكب الدرية ١/ ٣٢٤ .

* وقال كعبُ الأحبار : لأن أبكي دمعةً من خشيةِ الله أحبُّ إليَّ من أن أَتصدَّق بجبلٍ من الذهب .

* وكان مالك بن دينار كثيراً ما يَبكي ، ويقول : يا نفسُ ، تُريدين أن تجاوري الجبَّار ، وتشاهدي المُختار ، بأيِّ شهوةٍ تركتيها؟! بأيِّ بعيدٍ قربتيه إلى الله؟! بأيِّ وليٍّ أحببتيه لله ؟ بأيِّ عدوٍ أبغضتيه لله؟! بأيِّ غيظٍ كظمتيه لله؟! لا والله ، لولا عفو الله ورحمتُه . ثم يغشى عليه .

* ورُوي أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام : لن يتقرَّبَ إليَّ المتقرِّبون بمثل البُكاء من خشيتي .

* وقال ثابت النسَّاج رحمه الله : ما شربَ داودُ عليه الصلاة والسلام شربةً من الماءِ بعد الخطيئة إلاّ وكان نصفُه دموعَه ، حتّى لحقَ بالله عزَّ وجل ، فقال يوماً من الأيام فيما رأى من كثرةِ دموعه : أما ترحمُ بكائي ، يا إلهي؟! فنُودي من السماء : يا داود ، تذكرُ دموعَك ، ولا تذكرُ ذنبك؟ فأخذ برمضِ النَّارِ من الرَّماد ، وصار يجعلُه على رأسه ، ويقول : ذهبَ ماءُ وجهي عند ربّي .

* وقيل : كان في عهد الحسن البصري رضي الله عنه رجلٌ كان له ابنةٌ تبكي حتّى عَميت عيناها ، فجاءَ الرَّجلُ إلى الحسنِ ودعاه ليعظَها ، لعلَّها ترفقُ بنفسها ، فأتاها الحسنُ ، وقال لها : ارفقي . فقالت : أيُّها الأُستاذ ، إنَّ عينيَّ لا تخلو من وجهين ، إمَّا أن تصلحَ لرؤية ربِّي أو لا تصلح ، فإنْ لم تصلحْ فحقٌّ لها أن تَعمى ، وإن كانت تصلحُ فألوفٌ مثلُ عيني فداءٌ لرؤيته . قال الحسن : جئتُ مُداوياً ، فصرتُ مُداوى ، وأتيتُ مُطبباً فوجدتُ طبيباً .

* وقالت سلمة بنت خالد المخزومي رحمها الله : كانت امرأةٌ من الشام ببيتِ الله الحرام ، يُقال لها حزينة ، أَبداً تبكي من غلبةِ الشَّوق ، وكلَّما نظرتْ إلى باب الكعبة ، قالت : بيتُ ربِّي ، بيتُ ربِّي . ففُتِحَ بابُ

الكعبة يوماً من الأيام ، فرأتْ فيها طائفين يبكون ، ويقولون : مَليكنا وقرَّةَ أعيننا ، طالَ شوقنا ، متى تكون مُلاقاتنا؟ فسمعتْ تلك المقالَة ، فصاحت صيحةً ، وخرَّتْ مَغشياً عليها ، ولم تزلْ تضطربُ حتى ماتت .

وقال يحيى بن أصفر : دخلنا مع جماعةٍ من أصحابنا على عفيرة العابدة ، وكانت عمياء من كثرةِ بُكائها ، فقال واحدٌ منا : ما أشدَّ العمى بعد البصيرة! فسمعتْ ذلك ، فقالت : يا أبا عبد الله ، عمى القلبِ عن الله أشدُّ من عمى العين ، ووددتُ لو أنَّ الله أعطاني كُنْهَ محبَّته ، ولم يُبْقِ لي جارحةً إلاّ أخذها مني .

اللَّيْـــلُ دَاجٍ والعُصـــاةُ نِيـــامُ   والعَـارِفـونَ لَـدَى الجَلِيـلِ قِيـامُ
يَتْلـونَ آيـاتِ الهُـدَى ودُمـوعُهُـمْ   تَجْرِي ومِنْهَا قَدْ تَفِيضُ سِجَامُ[1]
لا يَصْبِـرونَ سـوِيعَـةً عَـنْ ذِكْـرِهِ   شَـوْقـاً ولَيْـسَ لِمَـنْ يُحِـبُّ مَنـامُ

* * *

(١) سجام بوزن كتاب ، يقطر دمعها ويسيل .

الحديث الخامس والثلاثون

أخبرنا شيخنا خالي أبو المكارم منصور البازُ الأشهب البطائحي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا أبو علي الحسنُ بن شاذان ، قال : أنبأنا أبو نصر أحمد بن محمد ابن اشكاب النجاري ، قال : أنبأنا الحسن بن محمد بن موسى القمّي ، قال : أنبأنا عبد الرحيم بن جندب ، عن إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله ، عن سُفيان ، عن ليث ، عن طاووس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ أَدَّى حَدِيثاً إلى أُمَّتِي لِتُقَامَ بِهِ سُنَّةٌ ، أَو لَتُثْلَمَ بِهِ بِدْعَةٌ فَلَهُ الجَنَّةُ »[1] .

ومن هذا الحديث الشريف يُعلم أنَّ أهلَ الجنة القائمون بإقامةِ السُّنة ، وإثلام البدعة ، تجرُّداً لله تعالى ، وتوكُّلاً عليه ، وإيماناً به ، وحبّاً له .

أَيْ بُنيَ ، اعلم أنَّ حبيبَ القلوب سبحانه إذا أحبَّ عبداً أطلع سرَّه على جلال قدرته ، وحرَّكَ قلبَه بمراوح ذِكر منَّته ، وسقاه شربةً من كأس محبَّته ، حتَّى يُسكره به عن غيره ، وجعلَه من أهلِ أُنسه وقُربه وصحبته ، حتى لا يَصبرَ عن ذكر ربِّه ، ولا يختارَ أحداً عليه ، ولا يُشغلَ بشيءٍ دون أمره .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٤٤ . قال المناوي في فيض القدير ٦/ ٤٤ : وفيه عبد الرحمن بن حبيب أورده الذهبي في الضعفاء ، وقال : متهم بالوضع . وإسماعيل بن يحيى التيمي قال ـ أعني الذهبي ـ : كذاب يضع .

* وقال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله : منزلةُ الحبِّ أقدمُ من منزلة الخوف ، فمن أراد الدُخولَ في عُصبة أهلِ المحبَّة ، فليُحْسِنِ الظنَّ بالله ، وليعظِّم حرمته .

* ورُوي أنَّ الله تعالى أَوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن يا داود ، أحبَّني ، وأحبَّ أحبائي ، وحبِّبني إلى عبادي . فقال داود : إلهي ، أُحبُّك ، وأُحبُّ أحباءك ، فكيف أُحبِّبك إلى عبادك؟ فقال : ذكّرهم آلائي ، وحُسْنَ لطائفي .

* وفي الخبر : « إذا أحبَّ الله عبداً من عباده ، نادى جبريل عليه الصلاة والسلام : يا أهلَ السماء والأرض ، يا معاشرَ أولياء الله وأصفيائه ، إنَّ الله تعالى يُحبُّ فلاناً ، فأحبُّوه »[1] .

* وقال أبو عبد الله النسَّاج : كلُّ عملٍ لم يكن فيه محبَّةُ الله لم يُقبل .

* وقال : من أحبَّ الله ابتلاه بالمحن ، فمن التفتَ منه إلى ما سِواه صار محجوباً عنه ، وسقطَ عن بساطِ أهل المحبَّة .

* وقال عبد الله بن زيد[2] : مررتُ برجلٍ نائمٍ في الثلج ، وعلى جبينه قطراتٌ من العرق ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أما تجدُ البردَ؟! فقال : من شغلَه حبُّ مولاه لا يَجدُ البردَ . قلت : وما علامةُ المُحبِّ؟ قال :

---

(١) رواه البخاري ١٣/٣٨٧ في التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة ، وفي الأدب ، باب المحبة في الله تعالى ، ومسلم (٢٦٣٧) في البر والصلة ، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده ، والموطأ ٢/ ٩٥٣ في الشعر ، باب ما جاء في المتحابين في الله ، والترمذي (٣١٦٠) في التفسير ، باب ومن سورة مريم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبُّوه ، فيحبُّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » .

(٢) عبد الله بن زيد الجَرْمي : عالم بالقضاء والأحكام ، ناسك ، من أهل البصرة ، أرادوه على القضاء ، فهرب إلى الشام ، فمات فيها ، وكان من رجال الحديث الثقات . مات سنة (١٠٤ هـ) . « الأعلام » .

استقلال الكثيرِ من نفسه ، واستكثارُ القليلِ من حبيبه . فقلتُ له : أوصني . فقال : كن لله ، يكنِ الله لك .

* وقال محمد بن الحُسين : دخلتُ سوق النخَّاسين ، لأشتري جاريةً ، فرأيتُ جاريةً مَشدودةً على وجنتيها عصابة ، مكتوبٌ عليها : من أرادنا أفلسناه ، ومن هربَ منَّا وسوسناه . فقلت : كذا قالَ الله تعالى لعباده : إنْ طلبتموني أنسيتكم بنفسي عن غيري ، وأفنيتكم بي عن أنفسكم ، حتى لا ترون شيئاً دوني .

* وقيل : قرعَ واحدٌ بابَ محبوبه ، فقال من داخل الباب : من أنت؟ قال : أنا أنت . فقال : يا أنا ادخل .

عَجِبْتُ مِنْكَ ومِنِّي ... أَفْنَيْتَني بِكَ عَنِّي
أدْنَيْتَني مِنْكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي[1]

* * *

(١) البيتان للحسين بن منصور الحلاج وقد تقدَّما . انظر الحاشية (١) صفحة ٩٤ .

الحديث السادس والثلاثون

أخبرنا شيخُنا العارف بالله علي القارئُ الواسطي ، قال : أخبرنا أبو بكر الورّاق ، قال : أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد ، عن أحمد بن عبد المؤمن ، عن عليِّ بن الحسن المروزي ، عن أبي حمزة ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال :

كان رسول الله ﷺ إذا قال : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » ، قالَ : « رَبَّنا ولَكَ الحَمْدُ »[1] .

في هذا الحديث من أسرار المُوافقة لداعي الله ، الذي يردُ شأنُه على كلِّ لسانٍ ما يَفهمه أهلُ الذوق من أرباب المحبة .

أيْ بُني ، قيل لواحدٍ : ما حقيقةُ المحبّة؟ قال : الموافقة .

* قال النبي عليه الصلاة والسلام : « اللّهُمَّ ، ارزُقني حبَّك ، وحبَّ مَنْ يُحبُّك ، والعملَ الذي يُبلّغني حبَّك ، واجعلْ حبَّك أحبَّ الأشياء إليَّ »[2] .

---

(١) ورواه البخاري ٢/ ٢٢٥ في صفة الصلاة ، باب التكبير إذا قام من السجود ، وباب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع ، وباب يهوي بالتكبير حين يسجد ، وباب إتمام التكبير في الركوع . ومسلم (٣٩٢) في الصلاة ، باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة ، وأبو داود (٨٣٦) في الصلاة ، باب إتمام التكبير ، والنسائي ٢/ ٢٣٣ في الافتتاح ، باب التكبير للسجود ، وباب التكبير للنهوض : كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٢٣ : رواه الطبراني في الكبير من عدة طرق .

(٢) لم أجده بلفظه في كتب الحديث ، وقد ذكر الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث =

* وقال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاقَ من خالص حبِّ الله استوحشَ عمّن سواه ، وتركَ لأجله كلَّ ما يهواه .

* ويقال : جفاءُ العدو غمٌّ نازل ، وجفاءُ الحبيب سمٌّ قاتل .

* وكان ذو النون المصري كثيراً ما يَقرأ القرآن ، ثم بعد ذلك يشتغلُ بالحديث ، فسمعَ في المنام :

إنْ كُنتَ تَزْعُمُ حُبّي فَلِمْ هَجَرْتَ كِتابي
أَمَا تَدَبَّرْتَ ما فيـ ـهِ من لَطِيفِ عِتَابي

قال : فتركَ الحديث ، وأقبلَ على قراءة القرآن .

* ورُوي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : لا تجعلْ بيني وبينك عالماً مفتوناً في الدنيا وأهلها ، فيصدُّكَ عن طريق محبَّتي ، أولئك قطّاعُ الطريق على عبادي .

* ويقال : أصلُ المحبَّة هو المحو ، إلاّ أنها هو على ثلاث مدارج : العام ، والخاصّ ، وخاصُّ الخاص : فأمّا العام : فمحو القلب عن حبِّ الذنوب والمعاصي ، والخاصُّ : محو القلب عن حبِّ الدُّنيا وأهلها ، وخاصُّ الخاص : محو القلبِ عن حبِّ ما دون الله تعالى .

* وقال يحيى بن معاذ في بعضِ مُناجاته : إلهي ، لا تعذِّبْ قلباً أنت حبيبُه ، إلهي ، إن تعذِّبني عذَّبتَ من أحبَّك ، وإنْ أهنتني أهنتَ من أحبَّك ، وإن أكرمتني أكرمتَ من أحبَّكَ .

* وحُكي أنَّ أبا يزيد تكلَّم يوماً بكلامِ أهلِ المحبَّة ، فجاء طائرٌ ، فلم

= الإحياء في كتاب الصبر والشكر ، حديثاً مقارباً له . وقال : أخرجه الترمذي من حديث معاذ .

يزل يَدنو منه حتى جلسَ بين يديه ، ثم ضربَ بمنقاره على الأرض ، وسالَ منه الدَّمُ حتى مات .

* وحُكي أنَّ واحداً من العارفين ، مرَّ برجلٍ من العيَّارين[1] ، يضربُ عبداً له بعودٍ ، والعبدُ يَضحكُ في وجهه ، فقيل له : يا هذا ، يضربُك السيِّدُ بالسِّياط ، وأنت تضحك! قال : من حلاوة حُبِّه لا أجدُ ألمَ الضَّربِ . فصاح العارف ، وخرَّ مَغشياً عليه .

* وقال يحيى : ليس بصادقٍ في حبِّه من لم يحفظْ حدودَه ، ولم يعظِّم حرمته ، ولم يعرف منَّته .

* وحُكي أنَّ رجلاً جاء إلى عبد الواحد بن زيد ، فقال : أخبرني بأقربِ الأعمال إلى الله تعالى ، وأعظمِها عنده زُلفى . فقال : أنْ تُحبَّ ما يُحبُّ الله . فقال : اشرحْ لي صفةَ المحبَّة . فبكى عبد الواحد ، وقال : أتحتمل؟ قال : ما شاءَ الله . فوصف له شيئاً من المحبَّة وحقائقها ، فغُشي على الرجل ، فلمَّا أفاق ، قال : سبحان الله ، من يستأهل هذا ، أو مَنْ يُطيقُ الاستقامة على تحقيق المحبَّة؟ فقال : رُبَّ قلبٍ قصدَ محبوبَه قصداً لا يُدركه الرِّيحُ العاصف ، ولا البرقُ الخاطف ، حتى وصلَ إلى محبوبه . قيل : أوَ هلْ يكونُ للمحبِّ علامة؟ قال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] ، وكذلك المحبَّةُ إذا دخلتِ القلبَ تلاشتِ النفسُ بكلِّ ما فيها عن الصفات الإنسانية تحت سُلطانها ، فاحترقَ ما في القلبِ من غيرِ الله بنيرانها .

* قيل لبعضهم : ما بالُ المُحبِّين كالمبهوتين؟ قال : لأنَّهم ذاقوا حلاوةَ محبَّته ، وسمعوا أصواتَ عجائب حُسنِ دعوته ، حتى طارتْ عقولهم وقلوبُهم إليه ، وصاروا مَدهوشين به .

---

(١) العيار : الذي يتردد بلا عمل ، يخلي نفسه وهواها ، لا يردعها ولا يزجرها .

هيهات ، أين الحب؟ وأين صفوةُ الحبِّ؟ وأين حقائقُ الحب؟ وأين من يستحقُّ الحبَّ؟ ألا إنَّ من أحبَّه لا يَصبرُ عنه طرفةَ عينٍ .

إنَّ المُحِـبَّ نَهَـارُهُ مُسْتَـوْحِـشٌ　　بَيْـنَ العِبَـادِ يَسيـرُ كـالمُتَفَـرِّدِ
فـالعَيْـنُ مِنْـهُ قَـرِيـرَةٌ بِحَبيبِـهِ　　يَـرْجُـو لِقَـاءَ الـوَاحِـدِ المُتَـوَحِّـدِ
يـا حُسْـنَ مَـوْكِبِهِـمْ إذا ما أَقْبَلُـوا　　نَحْـوَ الإلـهِ مَـعَ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث السابع والثلاثون

أخبرنا شيخنا أبو المكارم بازُ الله الأشهب خاليَ الشيخ منصور الأنصاري الحسيني برواقه في نهر دقلى ، قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد اشتهر بابن الصلت ، قال : حدّثنا أبو إسحاق إبراهيمُ بن عبد الصمد الهاشمي ، قال : حدّثنا الحسينُ بن الحسن المروزي ، قال : حدّثنا الفُضيل بن موسى الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تدخُلوا الجنَّةَ حتَّى تُؤْمِنوا ، ولنْ تُؤْمِنوا حتَّى تَحابُّوا ، ألا أُخبركم بشيءٍ إذا فَعَلْتُمُوه تَحابَبْتُمْ : أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنكُمْ »[1] .

أمر ﷺ بهذا الحديث الشريفِ بقمعِ النفس ، ومحقِ ثورتها ، وصفعِها بنعلِ الهمَّة ، إذا تعدَّتْ طورها ، بشأن إخوانها المسلمين ، وألزم بالمحبَّة الخالصة ، وجعلها عمادَ الإيمان ؛ لأنَّها لله سبحانه وتعالى ، وعلَّمنا ـ وهو مُعلِّمُ الخير ـ ﷺ : أنَّ إفشاء السلام مُنتجٌ للمحبَّة ، وأهلُ الحقِّ مُمتحنون بأهلِ الباطل ، ولكنْ لا تنحرفُ هممُهم عن الحقِّ ، اعتماداً عليه سبحانه وتعالى .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ الله تعالى خلقَ الدُّنيا ، وجعلَها دارَ المحنة ، ومحلَّ الأخطار والأشرار ، ثم خلطَ فيها الأبرارَ والفجّار ، وأهلَ المحبَّةِ بأهل البطالة ، ثم يقلِّبُهم من حال النِّعمة إلى حال الشدَّةِ ، ومن حالِ

---

(١) رواه مسلم (٥٤) في الإيمان ، والترمذي عن الزبير بن العوام (٢٥١٢) في صفة القيامة ، باب سوء ذات البين ، وهي الحالقة .

الشدَّةِ إلى حال النعمة ؛ لإظهار من يَعبدُه على بساطِ المِحنة ، ممَّن يعبدُه على بِساط النعمة ، ومن يَعبدُه على رؤية المعطي ، ممن يعبده على رؤية العطاء .

* قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

* وفي الخبر : أنَّ الذهبَ ليجرَّبُ بالنَّار ، والعبدَ الصالح ليجرَّبُ بالبلاء .

* والحكمةُ في امتحان الله تعالى عبادَه الصالحين إظهارُ ما في ضمائرهم من صدقِ الدعوى وكذبه ، وحقيقةِ المعنى وبطلانه ، ليكونَ فيه ظهورُ مرتبة الصدّيقين ، وافتضاح غيرهم .

أما ترى أنَّه لا يسعُ للحاكم أن يَحكم للخصم على إحاطة علمه في تصديقِ دعواه وبطلانه ، من غير أن يَظهرَ لغيره ذلك ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ [الأنفال : ٨] .

ثم اختلفوا ، فقال بعض العلماء : مَنْ يعبدُه على بساط النعمة أولى ممّن يعبده على بساطِ المِحنة ، لأنَّ منزلةَ الشُكرِ أفضلُ من منزلة الصبر ، وذلك لأنَّ الشُكرَ على النعمة طاعةٌ على بساط الفراغة ، والصبرُ على الشدَّة طاعةٌ على بساط الشغل ، وليس من عَبَدَ الله فارغاً كمن عبده مشغولاً .

* وقال بعضهم : من يعبدُه على بساطِ المِحنة أفضلُ ؛ لأنَّ الأنبياء أفضلُ مرتبةً ممن دونهم ، فامتحنَ اللهُ عامَّتهم بأنواع المِحنِ والبلاء ، قال ﷺ : « إنَّ أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء . . . » الخبر ، وأنَّ الكفرةَ هم أهونُ الخلق على الله ، وعيشُ عامَّتهم بأنواع النِّعَمِ .

وليس من طلبَه بنفي الحِجابِ كمن طلبَه من وراء الحجاب ، والشاكرُ يَطلبُه من وراء الحجاب ، والصابرُ يطلبه دون الحجاب ، والشَّاكرُ يعبدُه على حظِّ نفسه ، والصابرُ يعبده على حبِّ ربِّه ، والشاكرُ مفتخرٌ بملكه ، والصَّابرُ مفتخر بمليكه ، والشاكر حبسَ نفسَه مع النعمة ، والصابرُ حبس قلبه مع المُنعم ، والشاكر يقول : ما دامتِ النِّعمة معي لا أُبالي إن أصابني ما أصابني ، والصَّابرُ يقول : ما دامَ المُنعم معي لا أُبالي إن أصابني ما أصابني ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٥٦] .

وأنَّ الله تعالى أوجبَ للشاكر الزيادةَ ، ونفى عن أجرِ الصابر النهاية ، حيث قال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر : ١٠] .

وقال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

* أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء : إني قدَّرتُ في أُمِّ الكتاب ، أنّي إذا أحببت عبداً جعلته للبلاء غَرَضاً ، وألبستُه جلبابَ الفقر .

* وفي الخبر : إنَّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : قل لأوليائي وأصفيائي وأهلِ محبتي ، أن لا يدخلوا مَداخل أعدائي ، ولا يَسكنوا مساكنَ أعدائي ، ولا يَطعموا مَطاعم أعدائي ، فيكونوا أعدائي ، كما أُولئك أعدائي .

* وقال وهب : إنّا نجدُ في كتابِ الله المُنزل : أنَّ عبادي المُخلصين ، كانوا إذا سلكوا طريقَ الشدَّةِ والبلاء فرحوا واستبشروا ، ويقولون : الآن يتعهَّدُنا ربُّنا .

* وفي الحديث القدسي : « إنَّ البلاءَ أسرعُ إلى من يُحبّني من السيل إلى منتهاه »[1] .

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (حديث ٢٦٧٤) في شرح حديث : « إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا » .

* حُكي أنَّ ذا النون المصري سمعَ مَريضاً يقول : أخ ، أخ . فقال : ليسَ هذا بصادقٍ في حبِّه . فقال المريض : أنيني من وجدانِ اللَّذة ، لا من وجدان الشدَّةِ .

* وحُكي أنَّ فتحاً الموصلي ، أصابَه الحُمّى ، فصلّى ألف ركعةٍ شكراً لله على ذلك ، وقال : أمثلي يذكرُهُ اللهُ من فوق عرشه ، وعلمَ أنَّ لي ذنباً فأراد طهارتي .

* وقالت رابعةُ : ما عرفتُ البلاءَ منذ عرفتُ الله .

أَيْ بُني ، الخَلْقُ صنفان ، وليٌّ ، وعدو ، والحالُ حالان ، شدَّةٌ ونعمة ، فربَّما تَصلُ الشدَّةُ إلى الولي كرامةً له ، كما وصلتْ إلى الرُّسلِ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وربَّما تصل اللَّذَّةُ إلى العدو خسراناً له ، كما قال الله سبحانه : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة : ٢١] .

وربَّما تصلُ النِّعمةُ إلى الولي استدراجاً وتنبيهاً له ، وربَّما تصلُ النِّعمة إلى العدوِ وهو حظُّه من الآخرة ، كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم : ٣٠] .

ثم الابتلاء على نوعين : إكرامٌ وإهانة ، فكلُّ بلاءٍ يُقَرِّبُكَ من المولى فهو في الاسم بلوى ، وفي الحقيقةِ زُلفى ، وكلُّ بلاءٍ يُبعدك عن المولى فهو في الحقيقة بلوى ، ألا ترى أنَّ الله تعالى ابتلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ، وكان سببُ ابتلائه الخلَّةَ والقُربةَ ، وابتلى إبليس ، وكان سببُ ابتلائه اللَّعنةُ والفضيحة ، فقال إبراهيم في البلوى : حسبي ربِّي . وقال إبليس : حسبي نفسي ، فنُودي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخلَّةِ ، ولإبليس باللعنة .

* * *

الحديث الثامن والثلاثون

أخبرنا ابنُ عمّي الصالح السيِّد سيفُ الدين عثمان ، قال : حدّثني أبوك السيد علي بن يحيى الرِّفاعي صاحب المَشهد المُنوّر بالجانب الشرقي من بغداد ، قال : حدّثني ابنُ عمي السيد حسن ، قال : حدّثني السيد يحيى ، قال : حدّثني السيد ثابت ، عن أبيه السيد علي الحازم ويُكنى بأبي الفوارس ، عن أبيه السيد علي ، عن أبيه السيِّد رفاعة الحسن المكّي ، عن أبيه السيد أبي القاسم محمد ، عن أبيه السيد الحسن الرئيس ، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرّضي المحدّث ، عن أبيه السيد أحمد الأكبر ، عن أبيه السيد موسى ، عن أبيه السيد إبراهيم المُرتضى ، عن أخيه الإمام عليِّ الرِّضا صاحبِ طوس ، عن أبيه الإمام موسى الكاظم ، عن أبيه الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن أبيه الإمام زين العابدين علي ، عن أبيه الشَّهيد المَظلوم الإمام الحسين ، عن أبيه أمير المؤمنين علي المُرتضى رضي الله عنه وعنهم أجمعين ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لمَّا أُسْرِيَ بِي إلى السَّمَاءِ رَأيْتُ رَحِماً مُعَلَّقَةً بالعَرْشِ ، تَشكو رَحِماً إلى رَبِّها أنَّها قَاطِعَةٌ لها ، قلتُ : كَمْ بَيْنَكِ وبَيْنَها مِنْ أبٍ؟ قالتْ : نَلْتَقِي في أَرْبَعِين أباً »[1] .

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر . وانظر أحاديث صلة الرحم في جامع الأصول ٦/ ٤٨٦ .

وفي هذا الحديث الشريف من الإلزام للعبدِ بالرَّحمة ما يُقيِّدُ نفسَه عن جموحها ، إذا أدرك وكان من الموفَّقين .

وقد بلغني عن بعضِ العارفين أنه كان يقولُ في مُناجاته : إلهي ، بأرحامٍ اتَّصلت ، وبقلوبٍ بك اشتغلت .

أيْ بُني ، اعلم أنَّ المُحبِّين في طرائقِ العبودية ، وأوقات المناجاة ، على أصنافٍ شتَّى ، فمنهم من ناجاه على لسانِ الاعتذار ، ومنهم من ناجاه على لسان التحيُّر والاضطرار ، ومنهم من ناجاه على لسان الطَّربِ والافتخار ، ولو علم أهلُ الغفلة ما فاتهم في كلِّ نَفَسٍ!

* قال النَّبيُّ ﷺ في مناجاته : « إلهي ، إذا قَرَّتْ أَعينُ أهلِ الدُّنيا من دنياهم ، فأقرَّ عيني بك ، وأقرَّ عيني بلذائذِ أُنسِك ، والشوقِ إلى لقائك » .

* وكذا يقول من يحبُّ : يا خيرَ مُؤنس وأَنيس ، يا خيرَ صاحبٍ وجليس ، طوبى لمن اكتفى منكَ بك .

اللَّهُمَّ ، لبَّيك ، لبَّيك يا حبيبَ القلوب .

لبَّيك ، يا سرورَ القلوب .

لبَّيك ، لبَّيك يا مُنى القلوب .

لبَّيك اللَّهُمَّ ، آليتُ بكَ عليك ، أن لا تَصرفني بك عنك ، ولا تَحجبني بك عنك .

إلهي ، لو دعوتني إلى النار لأجبتُكَ ، وافتخرتُ بك ، فكيف وقد دَعوتني إلى نفسك؟!

إلهي ، إن قرَّبتني منك ، فمن الذي يُبعدني؟! وإن أَعززتني بك ، فمن الذي يذلني؟! وإن رفعتني إليك ، فمن الذي يضعني؟!

إلهي ، من أَرهبُ وأنت مولاي؟ ولمن أَرجو وأنت مُناي؟ وبمن

أَستأنسُ وأنت جليسي؟ فبك عليك أن تتفضَّل بإتمام فضلك ، يا نعمَ المَولى ونعم النصير .

إلهي ، سرِّي عندك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف ، وأنتَ بالجودِ معروف ، وبالكرم موصوف .

إلهي ، أنت أَنيسُ المُستأنسين من أحبَّائك ، ومأوى المَرهوبين من أصفيائك ، وجليسُ الملهوفين من أوليائك .

إلهي ، ما أَطيبَ معرفتكَ في قلوب العارفين ! وما أحلى ذِكرَك في أفواه الذّاكرين ! وما أَحلى مودَّتَكَ في أسرار المحبِّين !

إلهي ، أنت الذي لا تُبطلُ أَملَ الآملين ، لا يَخفى عليك أحوالُ المريدين ، ولا يخيبُ لديك رجاءُ المُنيبين .

إلهي ، أنت سروري إذا نظرتُ منك إليك ، وأنت حسبي إذا استكفيت بك منك ، وأنت أنيسي إذا نزلت منك بك .

اللَّهُمَّ ، ارحم انقطاعي إليك ، وانفرادي بك ، ووحشتي عمَّن سِواك ، فيا خيرَ مُؤنسٍ وأنيس ، يا خيرَ صاحبٍ وجليس ، كن دليلي منك وإليك .

إلهي ، اجعل أَجلَّ العطايا في قلبي حياءَك ، وأعذبَ الكلام على لساني ثناءَك ، وأحبَّ الساعات إليَّ ساعةً يكون فيها لقاؤك .

إلهي ، ما أَوحشَ قلباً ليسَ فيه ذكرُك ! وما أَخربَ قلباً ليس فيه خوفك ! وما أقلَّ سروراً ليس فيه حبُّك !

إلهي ، لا صبرَ لي في الدُّنيا عن ذكرك ، فكيفَ أصبر في الآخرة عن رؤيتك؟!

إلهي ، أشكو إليك غُربتي في بلادك ، ووحشتي بين عبادك .

إلهي ، ما لمرادِنا غيرك ، ولا لبُغيتنا دونك ، وما لحاجتنا سواك .

إلهي ، هذه لذائذُ المُناجاة ، فكيف لذائذُ الملاقاة؟!

إلهي ، هذا شُكري ، وشكر شكري ، إلهي ، هذا سُروري ، وسرورُ سروري ، إلهي ، هذا ودّي وودُّ ودّي .

إلهي ، أُنسي بك أوحشني من خلقك ، ومعرفتي بك تمنعني عن مُناجاة غيرِك .

إلهي ، كيف أُشغِلُ لساني بذكر غيرك؟! أم كيفَ أُشغِلُ بصري برؤية غيرك؟! أم كيف أُشغِلُ قلبي بحبِّ سواك؟! وأنا لا أعرف غيرَك .

إلهي ، على مَنْ أُثني ، وأنت وليي؟! ومَنْ أرجو وأنت مُناي؟! يا خيرِ معروفٍ ومذكور ، أعززتني بولاية معرفتك ، فلا تذلَّني يا سيدي بعدها بمن سواك .

إلهي ، عجبتُ ممن يعرفُكَ ، كيف لا يَستغني عمّن سواك؟!

إلهي ، عجبتُ ممَّن أنِسَ بك ، كيف لا يستوحش عن غيرك؟!

إلهي ، عجبت لمن أرادكَ ، كيف يُريدُ سِواك؟!

إلهي ، هذا سُروري بك في دار الفَناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء؟

إلهي ، هذا سروري بك في قراطق[1] . الخدمة ، فكيف سروري بك في غلائل النعمة؟

إلهي ، هذه لذائذ المحبَّة ، فكيف لذائذ الرؤية؟!

إلهي ، هذه لذائذ المُؤانسة ، فكيف لذائذُ الزيارة؟!

إلهي ، من لم يكن مَسروراً بك ، فَمِنْ أيِّ شيءٍ يكونُ له سرور؟!

---

(١) أي ملابس الخدمة ، مفرده قرطق كجندب .

إلهي ، سقيتني بكأس الحبِّ حتى أسكرتني ، فالحبُّ يَقتلني ، والشَّوق يُحرقني .

إلهي ، أريتني حبَّك ، فأرني وصلك .

إلهي ، طالَ بك حسنُ ظنّي ، على أن لا تردّني خائباً ، فلا تخيِّبْ ظنّي بك ، يا معروفاً بالمعروف .

إلهي ، ليس لي عنك صبرٌ ، ولا فيك حِيلة ، ولا منك بدٌّ ، ولا عنك مَهرب ، ولا مع سِواك أنس .

إلهي ، أحييتني بمعرفتك ، فلا تُمتني بنكرتك .

إلهي ، أريتني وصالك ، فلا تُريني فِراقك .

إلهي ، إن لم تفعلْ ما نُريد ، فصبِّرنا على ما تُريد .

إلهي فَرِّغْ قلبي لذكرِ عظمتك ، وأطلق لساني بوصف منَّتك ، وقوّني على شُكرِ نعمتك .

إلهي ، ارحمني ، فأنا عاجزٌ عند النَصَب ، جاهلٌ بالسبب ، حَيران في الطلب .

إلهي ، جعلتَ سببَ ما تعطي رجاءك ، وسببَ ما يجمع بين أوليائك تأليفَك بين قلوبهم ، إلهي ، فأعطني المَرجو ، كما وهبت الرجاء ، واجمعْ بيني وبين أوليائك ، كما ألّفتَ بين القلوب .

إلهي ، كيفَ يفتقرُ من أنت حظُّه؟ أم كيفَ يَستوحشُ من أنت أَنيسه؟ أم كيفَ يذلُّ من أنت حبيبُه؟ أم كيف يَحزنُ من أنت نَصيبه؟

إلهي ، همُّكَ أبطلَ عنّي الهموم ، وحبُّك حالَ بيني وبين الرُّقاد ، وشوقي إليك منعني اللذات ، وأُنسي بك أوحشني عمّن سواك .

إلهي ، أنت تُوالي من يُعاديك ، فكيف تُعادي من يُواليك؟

إلهي ، معرفتي بك دَليلي عليك ، وحبّي لك وسيلتي إليك .

إلهي ، عرفَ المحبُّون كمالَ ربوبيتك ، والمُذنبون صنيعَك ، وكمالَ قدرتك ، فاستسلموا ، وانقادوا لك .

إلهي ، اجعلني ممن لا يتَّخذُ دونك خليلاً ، ولا يلتمسُ إلى سواكَ سبيلاً ، ولا يَرجو من غيرك فتيلاً .

إلهي ، لا تجعلني ممَّن صرفتَ عنه وجهَك ، وحجبتَ عنه عَفوك ، وأغلقتَ عليه بابَك ، وقطعتَ عنه أسبابَ عصمتك ، ووكلتَه إلى نفسه ، إنك على كلِّ شيءٍ قدير .

* قال مالك بن دينار : رأيتُ جاريةً مُتعلِّقةً بأستار الكعبة ، تقول :

إليكَ جِئنَا وأنتَ جِئتَ بِنَا ... ولَيسَ شَيءٌ سِواكَ يُحيينَا

مِنكَ طَلَبنَا وأنتَ تَملِكُنَا ... ولَيسَ شَيءٌ سِواكَ يُؤتِينَا

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحديث التاسع والثلاثون

أخبرنا شيخنا منصورُ الرَّبَّاني رضي الله عنه ، عن أبيه سيدي يحيى النجاري ، عن سيدي أبي محمد الشنبكي الأنصاري ، ثم الحسيني الحسني ، عن الشيخ أبي بكر بن هوارا البطائحي ، عن سيِّدي سهلِ بن عبد الله التُّستري ، عن الشيخِ ذي النون المصري ، عن الشيخ إسرافيل المغربي ، عن الإمام موسى الكاظم ، عن أبيه الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن أبيه الإمام زين العابدين علي ، عن أبيه الإمام الحسين ، عن أبيه الإمام علي المُرتضى رضي الله عنهم ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال :

« نَظَرُ الوَلِدِ إلى وَالِدَيْهِ عِبَادَةٌ »[١] .

قلت : وفي هذا الحديث الشريف ، من إعظام شأنِ الحبِّ لله ، ما يرفعُ بهمم المُحبين إلى الله ، فإنَّ النَّظرَ في الله عبادة[٢] ، كذلك .

أي بُني ، فاعلم أنَّ عالِمَ أسرارِ المُحبِّين ، والمُطَّلع على همَّةِ المشتاقين طيَّبَ الدُّنيا للعارفين ، بذكرِ الخروج منها ، كما طيَّبَ الجنَّة

---

(١) روى الديلمي في « مسند الفردوس » عن عائشة رضي الله عنها : « النظر إلى الكعبة عبادة ، والنظر إلى وجه الوالدين عبادة ، والنظر في كتاب الله عبادة » .

وروى أبو نعيم في « الحلية » عن عائشة رضي الله عنها : « النظر في ثلاثة أشياء عبادة : في وجه الأبوين ، وفي المصحف ، وفي البحر » .

انظر كشف الخفاء ٢/ ٤٣٦ (٢٨٥٨) .

(٢) أي أن النظر في مصنوعات الله ، على وجه التفكر والتدبر ، الموصل إلى زيادة المعرفة في الله عبادة عظيمة ، ومقام كبير . (الأستاذ محمد نجيب خياطة) .

لأهلها ، بذكرِ الخلود فيها ، ولا شيءَ أحبُّ إلى المحبِّ من لقاءِ المحبوب ، ولولا الآجالُ التي كتبها الله على المُشتاقين ، لماتت أرواحُهم في أبدانهم ؛ لشدَّةِ الاشتياق إليه .

* قال أنس : قيل : يا رسول الله ، لو شاءَ الله أن يدومَ البقاءُ لأوليائه في الدُّنيا . فقال : « يأبى اللهُ أنْ يجعلَ الخلودَ لأوليائه في الدنيا » بل اختارَ لأوليائه وأحبائه ما عنده من جزيلِ كراماته ، أما تعلمونَ أنَّ الحبيبَ يَشتاقُ إلى الحبيبِ ، فطوبى لمن كان روحهُ وراحته في لقاءِ الله .

* وحُكي أنَّ أبا هريرة قال لرفيقٍ له : أين تذهب؟ فقال : أشتري شيئاً لأهلي . فقال أبو هريرة له : إن قدرتَ تشتري الموت لي فافعل ، فإنَّه طالَ شوقي إلى ربِّي ، وإنَّ الموتَ أحبُّ إليَّ من شربِ الماءِ البارد للعطشان ، وأحلى من العسل . ثم بكى بكاءً شديداً ، وقال : واشوقاه إلى من يَراني ولا أراه . وغُشي عليه .

* قيل لأُويس : كيف أَصبحتَ؟ قال : كيف يُصبحُ من إذا أصبحَ لا يشتهي أن يُمسي ، وإذا أمسى لا يشتهي أنْ يُصبحَ ، وطال شوقُه إلى مُنى قلبه .

* قال مالك بن دينار : كنتُ أَسير في بعض حِيطان البصرة[1] ، فرأيتُ شاباً مَريضاً ، أشعثَ أغبر ، مُستقبلاً للقبلة ، يقول : قُرَّةَ عيني ، طالَ شوقي إليك ، وما آنَ أنْ ألقاكَ ، فإلى متى تَحبسني عنك ؟ فقلت : يا شابُّ ، هذا الوقتُ الذي يَطلبُ فيه الأحبَّةُ محبوبَهم؟! فقال : الحبيبُ في كلِّ الأوقات موجود ، ليس بمفقود ، بل هذا الوقتُ الذي تُظهرُ الأحبَّةُ احتراقَهم بحبيبهم ، ويَكشفُ المُشتاقون كتمانَ سرائرهم ، بهيجان نيران الاشتياقِ إلى مُناهم .

* وحُكي أنَّ رجلاً من أهل البصرة ، بكى على شوقه حتى ذهبت

---

(١) الحيطان جمع حائط ، وهو البستان من النخل إذا كان محاطاً بجدار .

عيناه ، ثم قال : إلهي ، إلى متى لا ألقاك ، فبعزَّتك لو كانت بيني وبينك نارٌ تَلتهبُ ، ما رجعتُ عنك بعونك وتوفيقك ، حتّى أصلَ إليك ، ولا أرضى منك بدونك .

* قيل : كان لفتح الموصلي ابنتان عارفتان ، فخرجتا إلى الحجِّ ، فلمّا وقعتْ أعينُهما على البيت ، قالتْ إحداهما للأُخرى : يا هذه ، أهذا بيتُ ربّي؟ فقالت الأُخرى : نعم . فصاحت صيحةً ، وماتت من ساعتها .

وقالت الأُخرى : إلهي ، أشكو من نفسي إليك ، وقد طالَ شوقي إليك آه ، آه ، آه . تقولها حتّى ماتت .

* وقيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله : ما حظيرةُ القدس؟ قال : هي حظيرةٌ جعلها الله لاستماع كلامه ، ومناجاته ، والنَّظرِ إلى وجهه ، حيث شاؤوا ، ومتى شاؤوا . وتلا قوله : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت : ٣١] .

* قال إبراهيم بن أدهم : دخلتُ جبلَ لبنان ، فإذا أنا بشابٍّ قائمٍ ، يقول : يا من قَلبي له مُحبٌّ ، ونفسي له خادمة ، وشوقي إليه شديد ، متى ألقاك؟ فقلتُ : رحمك الله ، ما علامةُ حبِّ الله؟ قال : حبُّ ذكره . قلت : فما علامةُ المُشتاق؟ قال : أن لا ينساه في كلِّ حال .

* بعضُ أهل المعرفة حضرته الوفاةُ ، فبكت امرأتُهُ ، فقال : ما يُبكيك؟ قالت : كيف لا أبكي ، وأنا أبقى منك فرداً! قال : يا هذه ، أنا منذ أربعين سنة بكيتُ شوقاً إلى هذا اليوم ، فإنه يومُ وصلتي وأُلفتي ، وراحتي ، فمرحباً به .

* وحُكي أنَّ الحسنَ البصري رضي الله عنه حضرته الوفاة ، وكانوا يلقِّنونَه الشهادةَ ، ففتحَ عينيه ، وقال : إلى متى تدعونني إليه ، وأنا محترقٌ به منذ عشرين سنة؟!

* وسُئل سهل بن علي عن خفقانِ قلبِ الخليل ، وأزيزِ قلب

المصطفى صلى الله عليهما وسلم ، فقال : خفقانُهُ من الخوف ، وأزيزه من الشوق .

* وبكت رابعةُ العدوية عند موتها ، وضحكت من ساعتها ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : أمَّا بُكائي فمن مفارقتي الذِّكرَ آناءَ ليلي ونهاري ، وأمَّا ضحكي فمن سُروري بلقائه . وماتت من لحظتها .

* ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ، فقيل له : ألا ندعو لك طبيباً يداويك؟ فقال : الطبيبُ أَمرضني ، طالَ شوقي إلى ربِّي ، وإلى قرّة عيني محمد ﷺ ، وإلى إخواني الذين مَضوا من قبلي ، وإني أخاف أن أُفرَّقَ عنهم .

* وكان ذو النون يقول ليلةً إلى الصباح : المُستغاث ، المستغاث . ثم دخلَه السَّكينةُ ، فقيل له في ذلك ، فقال : نظرتُ البارحةَ بعينِ السرِّ ، في مُلاحظة الحقِّ ، حتّى بسطَ إليَّ بساطَ محبَّته ، وغلبني الاشتياقُ إليه ، فاستغثتُ إليه بالخروج من الدنيا ، كما يَستغيثُ أَهلُ النار بالخروج منها ، ثم نظرتُ إلى سُرور المُجتهدين في الدنيا ، ومؤانسةِ المُريدين في ظُلَمِ الليالي ، وافتراشهم الجبهةَ بين يدي علاّمِ الغيوب ، بصفاءِ القلوب ، فدخلتْ عليَّ السكينة .

* قال عُقبة بن سلمة : ما من ساعةٍ يكونُ العبدُ أَقربَ إلى الله من حين يخرُّ ساجداً ، وما من خصلةٍ في العبد أَحبُّ إلى الله من الشوق إلى لقائه .

* وفي الخبر : نِعم التُّحفةُ للمؤمن لقاءُ مولاه .

قال محمد بن يوسف : لو خُيِّرتُ بين أن أعيشَ في الدُّنيا مئة سنة أعبدُ الله تعالى لا أعصيه طرفةَ عينٍ ، وبين أن أموتَ ، لاخترتُ الموتَ . قيل : ولِمَ ذلك؟ قال : من شدَّةِ اشتياقي إليه .

* * *

الحديث الأربعون

حدّثنا شيخُنا الشيخ القدوة علي الواسطي رضي الله عنه ، قال : حدّثني أبو الفوارس طرّاد بن محمد الزينبي ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمد بن زرقويه ، قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن يَحيى الطائي ، قال : أخبرنا جدُّ أبي عليٍّ بن حرب بن محمد الطائي ، عن سُفيان بن عُيينة ، عن الزهري ، عن أبي سَلَمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

« التَّسْبِيحُ لِلرجَالِ ، والتَصْفِيقُ لِلنسَاءِ »[1] .

هذا الحديث يُشير إلى الجدِّ في الأعمال ، واستهلاكِ الحركات والسَّكنات في الله تعالى .

وقد تَرى جماعةً من العارفين ، يضربون للإشارات في الحالات ، ولذي الحضرات كفًّا بكفٍّ ، فإياك أنْ تَظنَّ أنَّ إشارتِهم هذه من التَّصفيق

(١) رواه البخاري ٣/ ٦٢ في العمل في الصلاة ، باب التصفيق للنساء ، ومسلم (٤٢٢) في الصلاة ، باب تسبيح الرجال وتصفيق المرأة ، وأبو داود (٩٣٩) في الصلاة ، باب التصفيق في الصلاة ، والترمذي (٣٦٩) في الصلاة ، باب ما جاء أن التسبيح للرجال ، والتصفيق للنساء ، والنسائي ٣/ ١١ و١٢ في السهو ، باب التسبيح في الصلاة .

« التسبيح للرجال » يعني : إذا أرادوا أن ينبهوا أحداً في الصلاة من سهو أو غيره ، قال : سبحان الله .

« التصفيق للنساء » يعني : أنهن يصفقن ، ولا يتكلمن بالتسبيح مثل الرجال .

انظر جامع الأصول ٥/ ٤٩٩ .

فتزلق ، إنّما هي استهلاكُ حركةِ لله ، في حركةٍ أُخرى لله ؛ فإنّهم ماتوا بالله حالةَ كونهم أحياء ، فلذلك أَحياهم الله حالةَ كونهم أمواتاً .

أَيْ بُني ، اعلم أنَّ لله تعالى عباداً قد مُلئت قلوبُهم بمحبَّة ربِّهم ، يَنتظرون الموتَ اشتياقاً إلى حبيبهم ، ويكرهونَ طولَ المُكث في هذه الدنيا ، لا راحةَ لهم دونَ الخروجِ منها ، وهم مَغمومون بطولِ البقاء فيها ، وشوقُهم إلى الخروج أشدُّ من شوقِ العطشان إلى الماء الزُّلال ، فإذا قربَ أَجلُهم أتاهم ملكُ الموت مع سبعين ألف ملكٍ من الله بالتحيَّة والسلام ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٣٢] .

وكذلك يجيءُ المَلَكُ للمؤمن على أَطيب ريح ، وأحسنِ صورةٍ ، فيقول المؤمن له : مَرحباً ، لأيِّ أمرٍ جئت؟ فيقول له : لقبضِ روحك ، على أيِّ حالٍ تُحبُّ أنْ أَقبض روحك؟ فيقول : إذا كنتُ في السُّجود . فيفعلُ ذلك مَلَكُ الموت ، فيأتيه حافظاه ، ويقول أحدُهما لصاحبه : كان لنا صاحباً وأخاً ، قد حان له الفِراق . فيقولان له : جزاكَ اللهُ خيراً ، وغفرَ لك ، فنِعمَ الأخُ كنتَ ، لقد كنتَ أيسرَ مؤمنٍ ، ونِعمَ ما قدَّمتَ لنفسك ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧] ، بالرُّوح والرَّاحة . وتقول روحُه لجسده : جزاكَ اللهُ عنّي خيراً ، كنتَ تحبُّ الخيرَ وأهلَه ، وتُبغضُ الشرَّ وأهله ، أستودعك الله .

* مُرَّ بجنازةٍ على أمير المؤمنين عليٍّ كرَّم الله وجهه ورضي عنه ، فقال : مُستريح أو مُستراحٌ منه . فقيل له : مَنِ المُستريح؟ قال : المؤمن إذا ماتَ استراحَ من نَصَبِ الدُّنيا ، وإيذاء أهلها ، فلقي رحمةَ الله عليه ، والمُستراح منه الفاجرُ ، إذا ماتَ استراحَ منه العبادُ والبلاد .

* قال مأمون السُّلمي رحمه الله : لمَّا تُوفيَ أبو عبد الله بن مُقاتل غسَّلناه ، وكفَّناه ، ودفناه ، فهتفَ بنا هاتفٌ من السماء : الحمدُ لله الذي أوصلَ الحبيبَ إلى الحبيب راضياً مرضياً .

وقال رجلٌ من أصحاب أبي عبد الله : رأيتُه في المنام بعد موته ، كان يتبخترُ في حظيرةِ القُدس ، فقلتُ له : ما هذا التَّبخترُ يا أبا عبد الله؟ أليس قد نُهينا عنه؟ فقال : هذا مَشيُ الخدَّامِ ، في دارِ السَّلام ، عند الملك العلاّم .

* ورؤي ذو النون بعد موته في المنام ، فقيل له : ما حالُك؟ قال : سألتُ الله أربعَ مسائل ، فأعطاني اثنتين ، وأنتظرُ اثنتين . قيل : وما هنَّ؟ قال : قلت : ياإلهي ، إنْ قبضتَ روحي فلا تَكلني إلى مَلَكِ الموت ، وإن سألتني فلا تكلني إلى مُنكرٍ ونكير ، وإن أهنتني فلا تكلني إلى مَالِكٍ ، وإن أكرمتني فلا تَكلني إلى رضوان .

* وحُكي أنَّ روّاداً العجلي[1] لمَّا ماتَ حُمل إلى قبره ، فإذا هو مفروشٌ بالريحان ، فأخذ الذي يَدفنه شُعبةً من الرَّياحين ، وكان النَّاسُ يَنظرون إليها تعجُباً سبعين يوماً ، لم يتغيَّرْ حالُها ، فأشخصَ الأميرُ ، وأخذها من الرَّجلِ ، ففُقِدَتْ ، فلا يُدرى كيف ذهبت .

* وقال عمّار بن إبراهيم : رأيتُ المسكينة الطُّفَاوية[2] بعد موتها في المنام ، وكانت تحبُّ مَجلس الذِّكر ، فقلت : مرحباً يا مسكينة . فقالت : هيهات يا عمَّار ، ذهبتِ المسكينة ، وجاء الغنى . قلت : هَنيئاً لك ، فقالت : وما تَسألُ عمّن أُبيحت له الجنة بحذافيرها! قلت : بماذا؟ قالت : بمجالسِ الذّكر . فقلت : فما فَعل الله بعلي بن زاذان؟ فضحكت ، وقالت : كساه حلَّةَ البَهاء ، وقيل له : يا قارىء اقرأ ، وارق .

---

(١) في المطبوع : داود . والمبثت من صفة الصفوة ، والمختار من مناقب الأخيار ، وروض الرياحين الحكاية (٤٤١) الطبعة الثانية دار البشائر ٤٧٦ .

(٢) مسكينة الطفاوية من العابدات القانتات ذكرها اليافعي في روض الرياحين الحكاية (٤٤١) صفحة ٤٧٧ .

* وقال ابن أبي الحواري[1] : رأيتُ الواصلي بعد موته في المنام ، كأنَّه قائمٌ في الهواء ، وقد امتلأ الهواء من نوره ، فقلت له : ما فعلَ اللهُ بك؟ قال : نِعمَ المَولى مولانا ، غفرَ لنا وأكرمنا ، وجعلَ بنا ما هو أهله . قلتُ له : أوصني . قال : عليك بمجالسةِ الذَّاكرين ؛ فإنَّهم عندنا في الرَّفيعِ من الدرجات .

* ولما حضر معاذاً الموتُ أُغمي عليه ، ثم أفاقَ ، فقال : ألحقوني بالذين أنعمَ الله عليهم من النَّبيين والصدِّيقين والشُّهداء . ثم ضحكَ ، وقال : لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله ، الحمدُ لله . ثم مات .

* وحُكي أنَّ امرأةً دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فصلَّتْ عند قبرِ النَّبي ﷺ ، ثم سجدتْ ، فلم تزلْ تقول : واشوقاه . فلم ترفعْ رأسَها حتى ماتت .

* وقال جعفر الضَّبيّ : حضرتُ زيارةَ قبرِ مالك بن دينار ، فقلت : ليت شعري ، ما فعلَ الله بمالك؟ فسمعتُ صوتاً من فوق مالك : مالكٌ نجا من المَهالك ، ومن وعثاء المسالك ، وصارَ إلى دار السرور ، بمجاورة الربِّ الغفور . فقلت : الحمد لله .

* وقال ابن بكَّار : صلَّينا الغداةَ يوماً بالمَصِّيصة ، فلمَّا سلَّمَ الإمام ، قام رجلٌ ، وقال : يا أيُّها الناس ، إنّي رجلٌ من أهل الجنة ، وإنّي أموتُ اليومَ ، فمن كانتْ له حاجةٌ فليأتِ . فلمَّا صلَّينا العصرَ ماتَ الرَّجلُ في سجوده .

* وحُكي أنَّ الحارث بن عمرو الطائي مرضَ بأرمينية ، فيوماً من الأيام استقبلَ القبلةَ ، وصلَّى ركعتين ، ثم قال في آخرِ سجوده : اللَّهُمَّ

---

(١) أحمد بن أبي الحواري : الزاهد العابد ، ريحانة أهل الشام ، الثقة ، قال القشيري : أهل الشام به يمطرون ، وله كرامات ، أسند عن الأعلام والمشاهير . مات سنة (٢٠٦ هـ) . الكواكب الدرية ١/ ٥٣٤ .

إني أسألك باسمك الذي هو قوام الدين ، وبه تَرزقُ العالمين ، وبه تُحيي العظام وهي رميم ، إنْ كان لي خيرٌ عندك فعجِّل قبضي . ثم سكتَ ، فحرَّكوه ، فإذا هو ميت .

* وقال مالك بن دينار رضي الله عنه : كان لي رفيقٌ ـ وكانَ واللهِ من العارفين ـ فمرضَ ، فحضرته لأعوده ، فإذا هو رافعٌ بطرفِهِ نحو السماء ، وقال : اللَّهُمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنّي أُحبُّك فبارِكْ لي في لقائك . فلم يتمَّ كلامَه حتى مات .

* وحُكي أنَّ رجلاً رأى مالكَ بن دينار رضي الله عنه كأنَّه في قصرٍ معلَّقٍ في الهواء ، بحيث لم يصفِ الواصفون حسنَه ، فقال : ما فعلَ اللهُ بك يا مالك؟ فقال : أنزلني ربِّي في هذا القصر كما ترى ، وأَباحَ لي أن أنظرَ إليه كلَّما اشتقتُ إلى رؤيته ، بلا كيفٍ ولا شبهٍ ، والحمد لله رب العالمين .

* ولمَّا حضرتِ الوفاةُ سيِّدي الشيخ منصور رضي الله عنه بكينا حوله ، فأفاقَ من غشيته ، وقال :

مَوْتُ المُحِبِّ حَيَاةٌ لا انْقِطَاعَ لَها   قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

ثم قال : أشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله ﷺ . وقضى نحبه .

رضي الله عنه ، وعن عباد الله الصالحين أجمعين ، وسلامٌ على المُرسلين ، والحمدُ لله رب العالمين ، آمين .

* * *

فهرس الفهارس

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فهرس الأحاديث المشروحة

حسب ترتيبها

* * *

فهرس الآيات

الأنفال

التوبة

يونس

يوسف

الرعد

إبراهيم

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الحج

المؤمنون

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

السجدة

سبأ

فاطر

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام(*)

(*) لم تتم فهرسة رجال سند الأحاديث.

فهرس الأقوام

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فهرس الأماكن

فهرس الكتب

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الشعر

* * *

الفهرس

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ḤĀLAT AHL AL-ḤAQĪQA

by

AḤMAD BIN ʿALĪ AL-RIFĀʿĪ

(512 - 578 H.)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

Edited by

Mohammad Adīb al-Jādir

DAR SADER
2000